# نوة الكرم





نجوى شعبان

رواية

# نـوة الكـرم

نجوى شعبان

# إهداء

إلى الغالية:

إحسان فهمي

قالت إيزيس :

**« أنا ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون .. وما من إنسان بقادر على رفع برقعي »**

أليست « الحقيقة » نفسها كذلك؟

**« معظم التاريخ ظن وتخمين، والبقية الباقية تحامـل وهوى »**

ديورانت

# مفتتح

يسأل غريب عن الطريق إلى باب الحرس، يرد الدمياطي بترحاب: عليك أولا أن تمر بجامع المطراوي. وما إن سمع المارة الكلمة « جامع المطراوي » حتى وقف أحدهم وسدد لكمة حانقة إلى فم من نطق بها.

كيف لا؟ وهم ما هدموا قصر المطراوي، وشيدوا مكانه جامعا إلا لتتوارى في البعيد سيرة المطراوي إلى الأبد.

لكن ظل الناس يشيرون إلى التبة بحذاء النهر حيث كانت أبواب قصر المطراوي تطل على النيل مباشرة بأنه شارع المطراوي، حتى نهاية القرن السادس عشر.

عندما استحدث لقب الشهبندر، أطلق الناس على ذلك الموضع اسم شارع الشهبندر تارة، وجامع اليقين والتقوى تارة أخرى.

استغرق الأمر مائتي عام حتى صار الناس يدلونك على الوكالات التجارية بقولهم: ( عليك أن تتخذ يمينك حتى تصل

إلى جامع التقوى ) أو ( في خلف جامع اليقين ستجد وكالات قصبة الثغر ).

هكذا وبتسويف شديد، انمحى من ذاكرة الناس - وببطء النسيان نفسه - اسم المطراوي، كبير تجار دمياط حتى يحل محله أو محل قصره « جامع اليقين والتقوى ».

اقتضى النسيان أجيالا فقد كان الناس يحبون المطراوي؛ لإحسانه ورقة قلبه وإحساسه بالفقراء منهم، صحيح أنه كـان يسرقهم باعتباره أكبر التجار، لكنه الوحيد الذي رأوه يعيـد بعض ما سرق حيث يتصدق ويحسن وينشئ بعض المرافق لهم.

لما عرف الناس دخيلة المطراوي بعـد موتـه وقعـوا صرعى ما بين حبه والاستياء منه، كلمة الاستياء طفيفة قـد لا تقترب من المعنى الذي يدل على حقيقة مشاعرهم، ربمـا كان الكره هو الوصـف اللائـق الـذي يشـعرهم براحـة ضمائرهم، حيال آثام المطراوي.

تساوى في التأرجح بـين الحـب والاسـتياء الكـاره: المسلمون والأقباط، مسيحيو الشام والأرمن وأوربا، وكـذلك اليهود والسريان في هذه المدينة العتيقة ذات الثغرين.

# الفصل الأول

## (١)

يجلس غياث الدين على صندوق متاعه قبالـة مقدمـة السفينة التي تشبه رأس الغراب، داعيا ربه ألا تؤجل القافلـة عزمها على الإقلاع الآن قبل الهبوب العاصف لأنواء الكرم بعد نحو يومين، ولما كان أصـحاب السـفن يتلكئـون فـي مساومات مع رجال الجمرك والمصدرين، تضرع متمتما: يا شيخ خراشي انجدني.. تدور كالدوامة في صـدره وأذنيـه استغاثة بائعة الفجل في سوق الحسبة، عندما قلبت بضاعتها وديست بأقدام جياد الانكشارية، دبت المرأة علـى صـدرها وصرخت: يا خراشي!!

سيعيد على السائلين أنه ذاهب إلى رودس لبيع أجولـة من أقراص النيلة وبذور شجرة السنط والقرض والحصـير المصنوع من نبات البردي، لن يذكر شيئا عن أخته المتوفاة أو بحثه عن ابنها ليكفله، فلم تعد تُعرف أيـة أخبـار عـن زوجها.

يستنجد بعينين ضارعتين أن تتلبد السماء بغيوم لا تخيب، تزمجر، تهطل، في ذلك الأسبوع الأخير من شهر يناير، لتذكر البحارة بقسوة نوة الغطاس التي هبت قبل أيام.. لكنه دهش ليس لصفاء السماء، بل لظهور القمر واضحا إلى جانب الشمس في تلك الظهيرة، وكان غائبا قبل أسبوع خلف غيوم رمادية ثقيلة ليلة مقتل كبير تجار دمياط « عبد الجليل المطراوي » الذي يصدر البن والبكسماط، ويملك معاصر الزيت والمقالي وعيدان الأرز لضرب وتبييض الأرز، والحمامات وأيضا المصابغ جميعا. ظل يردد: المصابغ.. المصابغ!!

يلقن غياث الدين ( وشهرته غيث الصباغ ) نفسه ما سيقوله، ويستعرض خط سير قافلة سفن الأغربة التجارية وما يرافقها من سفينتين حربيتين من طراز « المسطح » فضلا عن سفينة التجسس « الشيطي »..فبعد مغادرة ثغر دمياط، ستبحر في بحر الروم إلى أربعة ثغور: أزمير، قبرص، رودس ومرسيليا.

مع اقتراب جنود الانكشارية.. وجم غيث الصباغ « أنا لا علم لي بذلك، لا صلة لي بالأمر. نعم!! بالطبع لا، هذا

المنديل الذي تقولون إن به جذور "القوة عـود" المخـدر لا يخصني ».. نظر إلى امتداد البحر كأنما يموه عليهم اهتمامه الأساسي: الأغربة.

إلا أنهم تخطوه دون أن يعيروه اهتماما.

صعد الغراب ناظرا إلى القمر النهاري مرة أخرى، في نهار مقمر آخر، صعدت أخته « ليل » مـع زوجهـا إلـى السفينة بعد أن دقوا وشما علـى كتفهـا بـاللغتين العربيـة واليونانية: « ليل بنت السيد بصل ».

سفعته لفحة برد قارسة « طوبة تخلي الصبية كركوبة» تقول ليل في ليالي الحكاوي لإخوتها الثلاثة: التوءمين غياث الدين وليث الدين وسنانية الأخت الصغرى التي نجحت ليـل في تزويجها صبيحة يوم الفل.

ساءل نفسه: هذا اليوم أكان في جزيرة الفل أم جزيـرة القيامة؟

قبل أن يستقر في إحدى المصاري الصغيرة/ القمرات، سمع ضوضاء عالية، استطلع الأمر، أخبره تجار خرجوا من مصاريهم الواسعة: عسكر القبودان هائجون.

نزل عسكر القبودان إلى الخُن في قلب السـفينة الـذي يحوي متاع التجار وبضاعتهم، يفتشون بدقة وسواسية كـل البضائع والمصاري، يعترض صاحب السـفينة الفرنسـي: « لقد دفعت بالفعل عشرة بارات، اثنين رسم حـق المينـاء والثمانية الباقية من أجل المغادرة.. كما أني لا أستغل الشـح في قمحكم وأسمح لتجاركم ببيعه لي ».

تجاهله العسكر.. توتر كتيم تخففه ثقة كل تاجر بأنـه لا يهرب قمحا، « لكن ما حال التجار الآخرين؟ ».

غادر السفينة العسكر بوجوه جامدة، اسـتراح ركـاب السفينة أشرعت قلاع السفينة وجاس مائة وثمـانون رجـلا سواعدهم كالجذوع إلى مجاديفهم، وقالوا مهللين بلغـة أهـل البحر « ياللا، ها نخطف »، وبدأ الإبحـار وئيـدا.. وفـي المقدمة والمؤخرة سفينة حربية عثمانية، تدعمهما «الشيطي» السفينة الصغيرة التي تنطلق لـيلا بـلا شـعلة أو ضـوء، لاستكشاف إذا ما كان ثمة قراصنة قـريبين مـنهم.. رغـم الهدوء النسبي لأنشطة القراصنة في ذاك الوقت، فسفن القافلة ليست كلها مطلية بلون مياه البحر للتخفي.

ينخل اللون الرمادي نغماتـه علـى القافلـة بـاقتراب الغروب قبل أن تتحول إلى أشباح طحلبية، مائـة وثمـانون زوجا من العيون يستحلبون الضوء الأخير من النهار وسقف الحماية من القراصنة فوق رؤوسهم يراوحهم بين درجـات الإعتام.. لم تعد تحمر أو تلتهب أكفهم ذات الجلد السـميك، ماتت الخلايا المبطنة لراحات أيديهم، حتى أصبحت صلبة لا تحس تقريبا.. ومع رياح غربية مواتية انسابت الأغربة فـي البحر كطيور تحلق بارتياح في الهواء.. انسلت « الشيطي » مع مقدم الظلام تضرب بثمانين مجـدافا واهـن الصـوت للاستطلاع عن أية سفينة ( ملبي ) للقراصنة في الجـوار.. ظلت قابعة لفترة.. وبدا بحر الروم خاليا من أي حركة فيمـا عدا القافلة.

تتهادى السفن في بحر سطحه ملاءة من الزئبـق فـي تأرجح ناعم، يتآلف ضي القمر مع الزئبق الفضي في جمال يصعب حتى على رهبان الصحاري المصرية التنبؤ بـه أو احتماله.

دلف غيث إلى قُمرته، ود لو خلع عن كاهلـه سـنوات عمره. مسئوليته عن اليتيم، واتهامه بقتل كبير تجار دميـاط

هاجسان يطوقانه، أمال رأسه في إغفاءه مباغتة، فزع منهـا غيث وقد ظنها أعواما، رأى نفسه يطفو على سطح البحـر وحيدا، والطريق إلى رودس لا يزال طويلا، طـويلا، هـل سيقطع هذه المسافة سباحة في هذا الشتاء القارس، يرتجـف من صقيع الميـاه.. هـاهو الآن فـي رودس يبحـث عـن نور الدين، النار تلتهم الجزيرة، ما إن تقع عيناه على مبنـى حتى تدكه النيران، يترك الحي المحترق مخلفا وراءه أسواره وبوابته وقد ضربتها الصواعق، يتجه إلى جبال قريبة: إنـه الطريق، البيوت مخفية وسط تدرجات الجبـل، حتـى هـذه تشتعل.. ورأى دارا صغيرة ذات قبة باقية على حالها، يقف على بابها صبي أشاح بوجهه إلى جهة أخرى، ثـم صـرخ: كيف لم أعرفه، إنه نور الدين، عاد ولـم يجـد الـدار ولا الصبي.

## (٢)

لكز شيخ طائفة الكحكيين حماره: « هِم.. يـا حمـار، الطريق من المنشية لسوق الحسـبة طويـل، لازم أوصـل للمحتسب قبل صلاة العصر ».. قلقا من تضييق المحتسـب عليه بأوامر ونواهٍ عن كمية الدقيق المسموح بها للكحكيـين،

وعن مقادير صنع الكعك والقُرصة والغريبـة، وأوزانهـا، ونوع الزبد أو الزيت، والنقوش على الكعك.. حتى النقـوش بات يتدخل في كيف ترسم، ولم يكفـه اتفاقـه مـع صـناع المناقيش على رسم الهلال: الراية السلطانية، لينقش بها كعك العيد.

يشق الزحام واجما، لا يخامره استبشار بالخير، ربمـا يومئ المحتسب باستدعائه إلى وجوب تقديم هدايا وتقـدمات عينية مقابل تساهله معهم في الأسعار والأوزان.

كان لابد أن ينتظر حتى ينهي المحتسـب أمـوره مـع موظفيه وشيوخ بعض الطوائف، وتحدث خلالها مـع نائبـه « شاد الدقيق » الذي يشرف على كل صغيرة وكبيرة تخص عجين الخبز والكعك، انتظر أيضا حتى فـرغ مـن صـلاة العصر في الجامع القريب وعاد.. فقط عند المغـرب، مثـل بين يدي المحتسب الذي دفع إليه ببضع قطع من الكعك، قال: انظر.

أخذها شيخ الطائفة في كفه كأنما يزنها، يفتت جزءا من الكعكة ليعرف مدى الالتزام بالمقادير وبأنها ليست متحجرة، تذوب بضغط خفيف بين أسنانه ولسانه.

زعق المحتسب: قلت انظر

هناك فقط تنبه: ماذا؟ فرك عينيه ليزداد وضوح المنظر على وجه الكعكة، ثمة راقصة تتعرى جزئيـا فـي رقصـة النحلة، رفع حاجبين مندهشين إذ أصـابه خـرس مباغـت، عندئذ دفع المحتسب إلى كفه بأخرى وأخرى: رجل يخاصر امرأة، جسد أنثوي فرعوني عار، غزالة وآيل فـي عنـاق لطيف، ملك وملكة من الفراعين في قبلة.

- إنه لفسق. تمتم شيخ الطائفة

انفراجة ضيقة لشفتيه، ورعشة في لحيته: «فسق، فسق» وكأن حبات مسبحة في ذهنه تتبارى كي يبرأ مما رأى.

في دفاع أخير عن نفسه أحنى جذعـه، وجـر سـاقيه للخلف متقهقرا: سيكون الفاسقون بين يديك في بحر يـومين، يومين فقط.

انزعج المحتسب من كم الهرج والمرج والاختلاط غير المحتشم بين الرجال والنساء في الطرقات والأسواق خـلال أيام عيد الفطر الفائت، ذلك المـرح الهسـتيري، والتهتـك المكتوم.. كان الشباب يتداولون المعجنات بحس تواطؤ رجيم وعيون بها لمعة رضا وشهوة لم يكتملا.. اشتكى الشـيوخ،

وجاءته إخباريات من قرى البسـارطة، طـرانيس البحـر، السنانية، عزبة البط، عزبة النسوان، عزبة البرج، شرمساح، محلة انجاق، محكمة القنطرة وسوق الخواصين وغيرهم.

كان موسما طيبا للكحكيين، الذين حاول صغارهم تقليـد هذه المناقيش بطريقة فجة، ليست لها غواية المنـاقيش فـي الأحياء حول الثغر، ليست لها الرشاقة والشحنة الحارة كعطر معتق لأجسام ينبغي دوما أن تختفي تحت ستائر سميكة.

لم يبحث شيخ الطائفة كثيرا، فسرعان ما أشارت أصابع المتنصلين من هذا الانحلال إلى أشهر وأمهر كحكية في بـر دمياط المحروسة كلها: ليل بنت السيد بصل.

ردد الشيخ: ليل.. هذه العانس؟!

قال لها: بالطبع ستتبرأ منك الطائفة، ويتم تجريسك على حمار يمشي من الشيخ درغام وحتى جـامع البـدري قبـل سجنك.

نظرت له هادئة وقد تغضن جانبـا عينيهـا، ليعطيـا ابتسامة عينيها جاذبية ملغزة، مدفوعا لفهم لامبالاتهـا غيـر المستفزة واستكانتها الطبيعية، قال: تجلبـين العـار لنفسـك وإخوتك هؤلاء الذين قمت بتربيتهم وحدك.

لم يصدق نفسه حين سمع منها صوتا محايـدا: اعتبـر أنني لم أفعلها.

- هكذا!! دون ثمن

- طلباتك؟

- تلبسين ملابس تحضرها لك جارتي السوداء، وتضعين برقعا ثقيلا، وتأخذك الجارية إلى حجرتها.

تراكمت مشاعر التوجس والتشاؤم لدى ليل حين جاءتها جاريته السوداء، رأتها موصولة الحاجبين، وبـرغم جمالهـا تذكرت ليل ما قالته أمها، إن الحواجب المقرونة دليل الحسد، حممتها الجارية بنفسها مستخدمة قشور الرمان لتنظيف جلدها وتنعيمه، والريحان لصفاء بشرتها وإزالة رائحـة العـرق، جدلت مع شعرها ضفيرة واحدة سـميكة وبعـض الحلـي الرخيصة ذات أجراس صغيرة بعدما ضمخته بدهن المـاعز وخشب الصندل. انساب شعر ليل إلى مـا بعـد خصـرها، ووضعت على رأسها عمامة من الشاشات الملونة في شـكل كعكة وأمالتها إلى الجانب الأيمن من رأسها فأظهرت القُصة على جبينها وخصلات الشعر المنسدلة على أذنيها.

طبعت الجارية على خد ليل خـال الحسـن، وكحلـت جفونها بالأزرق القاتم، ومدته إلى خارج عينيها في خطـين يتماسان حتى منتصفهما كذيل سمكة.

وألبستها سروالا واسعا من الحرير الـدمياطي وشـدت زنارا من الكشمير على خصرها الذي بدا نحـيلا، وعليـه صديري مشغول بالسيرما، وفوقه السبلة ونقاب من التفتـاز أبيض ضارب إلى الحمرة والذي يشير إلى عذرية ليل.

واضح الآن لليل أنها ستتحرك مثـل جوقـة موسـيقية متمهلة في عزفها من الترتر والبرق بصفائحه الفضية الرقيقة المزين بها ضفيرتها وبرقعها وحزامها، وبعـد أن انتعلـت المست من جلد الماعز وفوقه خف مـن الجلـد المراكشـي الأصفر، وضعت الخلخال الفضي ذا الشخاليل مطوقـة بـه أسفل ساقيها.

مشت ليل إلى جانب الجارية التي كانت مكشوفة الوجه وشعرها مرفوع فوق رأسها وعليها ثوب من الحرير الأسود الفضفاض.. تباطأت خطوة ليل السريعة دوما تحت ثقل العدد من قطع الملابس وما تنتعله في قدميها، تباطأت متوحدة مع تدلل الخاتون والخوندات في مشيتهن وإحساسـهن بجمـالهن

وثرائهن، إنها تلبس الآن ثروة لا بأس بها من الفضة علـى الأقل.

كان قلق ليل عظيما فرفضت عرض الجارية أن تؤجر مكاريا لنقلهما، إنها معتادة على المشي مـن الأفـران إلـى حوانيت الكحكيين، ضمت بيدها اليمنى فتحة صدرها المخفية تحت النقاب كأنها تستر عن الناس ما هي مقدمة عليه، وفي مشيتها الموسيقية، مـرت بجانبهـا فـرس تخـب وعليهـا انكشاري.. كانت تصدر الصلصلة نفسها، تلك التي تصدرها خطوة ليل.

دار الانكشاري بفرسه نصف دائرة ليكون عند رأس ليل تماما وبسرعة خاطفة أخذ شيئا منها لم تدركه فـي الوهلـة الأولى، أحست برأسها أقل ثقلا، صرخت الجاريـة.. قـص الانكشاري ضفيرة ليل الطويلة الثخينة.

صاحت المرأتان في استغاثة، وقف غالبية المتفـرجين ذوي المزاج البلغمي بطيئي الاستثارة، بطيئـي الفهـم، ذوي الأخلاق المتزنة، الذين لا يرتكبون الصغائر ولا يجترحـون المعجزات، وقفوا وقد تخشبت ظلالهم خلفهم في عصر يـوم

دفؤه سابق لأوانه في شـهر كيـاك.. ثـم أداروا أكتـافهم وانصرفوا، من سيقف أمامه؟!

تشاءمت ليل أكثر: ها هي قد فقدت شعرها، ومقبلة على عذريتها، صحيح أن نصف سمك وطول الضفيرة من الشعر المستعار، إلا أنها تمنت للمرة الألف أن تقدر على البكاء هذه القدرة العصية عليها لشدة ما تعودت من ضنك الحياة.

أما عصبيو المزاج، المندفعون، المتهورون، فقد أشاروا على الفتاة المنقبة أن يشتكي والدها للمحتسب، ابتسمت تحت برقعها ساخرة وفسر الفاهمون العارفون أن ذلك الانكشاري لن يبيع شعرها، إنه مهووس بالرغبة، سوف يضاجعها فـي خياله، وتساءلوا لم يحرم عليهم السلطان الزواج ما داموا من العسكر العثمانلية.

ألحت الجارية عليها أن يكتريا حمـارين، خاصـة أن الطريق طويلة، قالت ليل: لا أريد أن أصل بهـذه السـرعة وانتظر طويلا حتى يأتيني ليلا، واسـتطردت: لا عليـك!! حدثيني عما تفعلينه عندما تفرغين من الشغل؟

قدرت الجارية هذه الإيماءة الرقيقة، قالت خجلـة إنهـا تقضي ذلك الوقت في مراقبة العصافير التي تبني أعشاشـها

على الشجرة الوحيدة بالفناء، شجرة زيتون عجوز يقـال إن عمرها ثلاثمائة عام، نافذتها تطل عليهـا. ترقـب صـغار العصافير تجاهد للخروج من البيض رافعة مناقيرها طالبـة الغذاء والحماية.

اختل توازن ليل وتعسرت مشيتها، فانحنـت وخلعـت المست واكتفت بالخف متعجبة: الثريات يلبسن حذاءين فوق بعضهما!!

قالت الجارية: بل أربعة.

لا تدري ليل هل ستنجح مراوغتها؟ حدثت نفسها: وقوع البلا ولا انتظاره، تعجبت في مشوارها إلى عملهـا اليـومي بين البيوت والأفران والحوانيت، لم تتأمـل هـذه البيوتـات الجميلة المفتوحة أبوابها على النيل مباشرة « بالطبع يمكنني معرفة من هم ساكنوها: كبير التجار، القاضي، المحتسـب، كبير الصاغة، يهودي الجمرك، أرمنـي الصـرافة، تجـار البندقية والشام، قبودان ثغر دمياط ». بذلك تهرب ليل مـن إثمها المرتقب.

عرجت المرأتان مخلفتين البيوتات الفخمة والنيل إلـى الشارع الأعظم حيث الجوامع الكبيـرة والحـي التجـاري

بقسيارياته ووكالاته، تتذكر ليل وقت تشييد معظمها بالطوب الأسود من رشيد والأخرى من الحجارة، سألتها الجارية: هل يعجبك الحجر؟ خرجت من شرودها: الحجر وحتى الطـوب الأسود أكثر حنية من البني آدم.

عبر أمام ناظرها قبل تكمل جملتها.. توقف محدقا فـي عينيها بكحلها الأزرق الغميق، ها هي ابتسامة عينيها.. فكت ضمة أصابعها للفتحة المقورة لصدرها ووضعتها في زنارها الكشميري المتدلي على بطنها وتشاغلت بتمشيط خصـلات السوالف المنسدلة إلى جانبي وجههـا.. كـادت تمـد يـدها لضفيرتها المغتصبة. إنها تعرفـه، ولا يعرفهـا هـو: إنـه المجبراتي زوج تلك السيدة المنعمة التي تـذهب إليهـا فـي المواسم لتصنع لها الكعك والفطائر، لم يرها المجبراتـي إلا مرتين كان الطحين فيهما يغطي وجهها وجلبابها الأزرق.

أمال المجبراتي عمامته، ولاك بين شـفتيه قلمـا مـن البوص، حركه إلى أيسر شفتيه ودوره بينهما، وغنى كأنمـا لنفسه:

**خصرك الناحل نحل عظمي**

**ردفك البارز براني ما براني**

**كم سبى عشاق قبل أن سباني**

ضحكت كلتاهما بصوت حيي.

قالت الجارية: إننا نقترب من البيت

- لا، لا.. خلينا نمشي قرب خليج النواري

- ده مشوار طويل ومتعب.

- أنا متعودة على المشي، دمياط مش كبيرة

تجولتا قرب الخليج الذي يخاصر دمياط ويصب قـرب قرية شطا، وتوسلت الجارية: لنعد.

- لا، ألا تعرفين أين أوقاف السلطان قايتباي؟

- لا أعرفه.

- هناك.. فوق جزيرة القصبي في بحر النيل.

- أنعود إلى هنالك؟ سيضربني سيدي.

- قدامنا وقت قليل حتى تغرب الشمس.. يالا نمشي.

- بتهربي، لازم تستريحي في أوضتي حتى يأتي سيدي، يمكنك التسلية برؤية الناس من شباك الجارية البيضـا لأنه على الشارع.

الذي لم تعرفه ليل – كما قيل لهمـا فيمـا بعـد – أن الأجساد السماوية في الميزان والقوس والدلو كانـت تعمـل حينذاك بأقصى ما يمكنها لتيسير الأمور عليها.

قابل شيخ الطائفة جاريته في الممر المفضي إلى حجرة زوجته الثانية.

همس لها: أين هي؟

- في أوضتي يا سيدي

- مش موجودة على الإطلاق!!

- غير ممكن سيدي، إنها جلست وخلعت البرقع والدوارة و...

- لا أحد في الأوضة، غير الملابس اللي أرسـلتك بهـا لها.

## (٣)

تمشى ربان السفينة قلقا على سطح السـفينة، يعـرف المجدفون سبب قلقه وقد فردوا قاماتهم وأصابعهم الحمـراء بعد انتهاء نوبتهم، ليأخذ آخرون دورهم في التجديف، قـال أحدهم:

- أشم رائحة عاصفة.

رد الآخر: إنها متوقعة

كان وهج الزبد في ضبابية النهار يتـألق بينمـا تشـقه السفينة، يتراجع إلى الوراء طويلا مخلفا رغاويه التي تمتـد خمس أذرع بعد المؤخرة، زبد ينتشـي ويتشـبث، ينتشـي ويتشبث طالما ظللته سماء الأبد.

تنعقد خيوط عنكبوت في السماء ثم لا تلبـث أن تنحـل لتتجدد شبكة أخرى تتطاير، تفترسها غيوم أقرب إلى السواد تتسارع وقد كنستها رياح قوية.. تضيء السـماء بـالبروق وتظلم صفحة البحر، كان صوت الرعود الصـاخبة ( أروع ما سمعه غياث ) فهي حبلى برعود أخرى تكونت مثـل آلام الطلق الذي يسبق مخاضات زوجته، يترقب مستثارا وخائفـا المطر.. حتى ذلك الحين كان صوت مطر يهمي هو البهجة بعينها، غير أنها ترتطم قوية بسطح السفينة وترتـد رذاذات ذات شفرات حادة على الوجوه، ويزيد من ألمهـا الصـقيع والعاصفة.

خطوط المطر مستقيمة في هطولها حينـذاك، انتفخـت فتحتا أنف غياث عن آخرهما تجاوزا لدرجة انحراف المطر الذي يوخز حواف الشفاه.. توارت ابتسامة الانتصار الخفيفة

لاستشارته، وتذكر متضايقا ما سمعه من النـاس إنـه مـن الضروري تجنب الأنواء والرياح الشديدة لأنها قـد تسـحب الهواء من الفم.. حين ناضل الرياح والمطر ليلوذ بقمرته، إذ بالسفينة تميل بشدة إلى جانبها الأيسر، انزلق إلى ذلك الجانب وأمسك بإصبع أحد المجدفين، غامت أعينهم لفترة ولما هدأت الريح، رأوا ثلاثة توابيت تسبح إلى جانب السفينة والتـاجر « حاييم سرياقوسي » يصرخ ويلطم ويتهم الخَنّان بالغفلة عن أداء واجبه، فعل ذلك والكل مقْعٍ علـى ركبتيـه، وأذرعهـم تتشبث بالسقيفة فوق رؤوس المجدفين.

انفتحت دوامة كادت تشفط السفينة إلى قرارها، لولا أنها رضيت بالتوابيت الثلاثة مؤقتا.

موجة واحدة كالجبل داهمت سـفن القافلـة فردمتهـا، بعثرتها، أهاجتها ففقدت الاتجاه والتوازن، انفتح كهف داخل الأمواج، فظلت تدور حول بعضها، حتـى توقفـت الريـاح والأمطار واصطخاب الأمواج مخلفة البرد القارس، أحـدث ارتطام سفن القافلة بعضها بعضا خسائر أفـدح مـن أنـواء الكرم نفسها، تتطوح سفينة لتأخذ اتجاه العرض فتأتي أخرى

مندفعة تضربها في منتصفها لتتحطم وتغرق في حين تتهشم مقدمة الثانية وتتسرب المياه إلى جوف السفينة.

كانت سفينتنا الأحسن حظا، إذ لفظت إلى البحـر كـل مؤونتها والبضائع في الخن وبعض البحـارة والتجـار ثـم استوت متوازنة ثم مالت يمينا فانزلقت اندفاعات الأمواج إلى البحر من جديد.

لا يدري غيث الصباغ في أي بقعة بالسفينة هو، يشعر أن يده تجمدت على شيء معدني بارد وثقيل: لعله الهاب، في محاولة السفينة استعادة وضعها العادي، وصل المـاء إلـى صدر غيث، ثم رقبته، ففمه، ظن نفسه قد غرق.

دائما كان « ليث الدين » يسبقه ويحتكر حجـر أختـه الكبيرة ليل، فتمتد ذراعها تحوط به الكتف النحيلـة لتوءمـه غياث الدين، أختها الصغرى سنانية تقـف أمامهـا، تحبـو، تكبش فتات الخبز، تضعه في فمها ثم تبصقه.

في هدهدة تغني ليل للأطفال، لا يعجبهم، ثمة بقية مـن طاقة للشقاوة، تحكي:

( إن ياما كان فيه راجل وحرمته، الراجل اسمه السـيد بصل متجوز بنت عمه بدور بصل، وبلادهم طرانيس البحر،

وجار الزمان على عيلة بصل اللي كانت عيلة مستورة، كل أطيانها تزرعها بصل، في سنة من السنين مقدروش يدفعوا جباية الملتزم، وسنه ورا سنه تراكمت عليهم الديون، باعوا أرضهم لكن مش كفاية، علقوهم زي رأس البصل وهات يا ضرب بالكرباج، أخدوهم في العونة يشتغلوا بالسخرة، لكن كل ده لم يسدد ديونهم لمال السلطان، يعني ضرائب الخراج.. قال الرجال والأعمام والشباب نهرب من الملتزم، نمشي ناحية بساط أو دمياط، لكن المماليك قبضوا عليهم وقالوا إنهم "فلاحين متسحبين" السيد وبدور قدروا يفلتوا منهم، كنت أنا الصغيرة وفي ديل أمي تلات عيال تانيين، سأل المملوك أبويا: عندك كام عيل، قامت أمي ردت وكنت ساعتها على صدرها: ما فيش غير المولودة دي.

- يعني كان لنا أخوة، هم فين؟
- ماتوا
- وليه كذبوا على المملوك.
- خايفين يدفعهم ضرائب عن كل عيل، والأهم من كده كانوا خايفين من الحسد.
- لكن أهمه ماتوا.

- لأن الشوطة بتيجي كتير، وما فيش غذا كفاية

- زي ما حصل لأبونا؟

بعد موالدكم بحجتين، ودمياط بتجهز للحجـاج والنـاس تخرج لرؤية جزء من المحمل اللي اتنسـج واطـرز هنـا، ظهرت كُبة شديدة في شهر بؤونة والحر شوية شديد، كانـت صحة أمنا ضعيفة، ووالدنا كان زي الحصان.

وما كانش عندنا بوظة العرق يحمينا من الكُبة، ولا نقدر نشتري واشتغل السيد بصل عند صباغ حريـر، لا بـد أن الشوطة ضربته في حانوت الصباغ، لأنه بيمسـك عبايـات وقمصان وسراويل الناس، ويكون المرض "مستخبي" فيها.. وكلها ساعتين وظهرت خراريج تحت إبطه وفي بطنه، وأمي قعدت جنبه ترعاه، لكن أمر ربنا سبق، لم تحضر أمي دفـن أبويا لأنها كانت عيانة بالكُبة وفضلت أصلي وأدعي لربنـا ينجيها.

- إزاي؟

- قلت يا رب الجو يبقى سخن جدا

- ودا بيعمل إيه؟

- يموت المرض ويفضل البني آدم صحيح.

- وفضلات أمنا.. الحمد لله. لكن الكبة دي بتيجي منين؟

- بيقولوا من ثغر دمياط

- فيه "ثغرين" هنا.. مش كده؟

- أقصد الثغر اللي على البحر المالح.. وعشان كده فـي عيد الغطاس اللي فات. في ١١ طوبة، أنا غطسـتكم كلكم في ميه باردة.

- مش كده نبرد ونكُح؟

- لا، ده عشان تتمتعوا بالعافية طـول العمـر.. كنـتم بتمرضوا كتير في شهوركم الأولى.

تذكرت ليل أنها كانت يائسة من توعكهما الصحي الدائم ومن ضعف أمها، خرجت إلى الحوش ورفعت رأسـها رأت القمر حديث الـولادة كأخويهـا، دخلـت البيـت وعـادت بغياث الدين الذي ولد أولا، رفعته بيـديها صـوب القمـر، وابتهلت، ثم عادت بليث الدين.. و تضرعت أن يمنحهما الله سبحانه وتعالى الحظ الطيب ويبارك في نموهما وأن يصبحا « فلقة قمر ».

وكانت الشفقة على أمها ومواليدها الأموات قد شرختها، سألت شيخة صوفية وعجائز الغجر العابرين، وتـاجر فـي

الطريقة الرفاعية كانت تخبز لامرأته، ضـحك قـائلا: « لا أعرف غير الابتهال إلى الله عز وجل، ولكني سـمعت مـن تاجر يمني أن حشو التمرة بجزء من مشيمة الطفل يحفظـه، بل ويحدد مستقبله ».

زعقت الأم بصوتها الضعيف: لا تدعوها تدخل علـي وأنا باولد، عمرها ١٣ سنة وإن كانت تظهر بسن بنت عندها عشر سنين.

اكتفت ليل بإمداد القابلة بالماء الساخن، وطلبـت منهـا سرا أن تزودها بجزء من مشيمة المولود، سـألت سـاخرة: ليه؟

ردت: أعمل له حجاب يحميه

بعد نصف ساعة طلبت القابلة المزيد من الماء الساخن

- مش اتولد الطفل؟

- نعم، لكن فيه واحد تاني.. هاعطيـك جـزءين مـن المشيمتين.

عندما استسلمت أمها لنوم عميق، تسـللت ليـل إلـى الخارج، مشت حتى السـوق والقيسـاريات، رمـت وهـي مغمضة العينين تمرة غياث إلى زنبيـل قـرض أحضـره

غجري لتوه عسى أن يغدو عطارا ثريا، ثم استأنفت سـيرها إلى النيل، وقذفت بتمرة ليث على امتداد ذراعها إلى النهـر عسى أن يصبح صيادا وصاحب مراكب.

في قرارة قلبها لم تكن تريد لأخويها الشقاء كما شـقي والداها وعائلة بصل التي كانت من المساتير ثم انحدرت إلى فقراء أجراء ثم إلى معوزين بلا حدود.

انتهب القلق عقل ليل، كيف يتأتى لأخويها أن ينالا حظا طيبا مع صخب ميلادهما، في نوة رأس السـنة الميلاديـة، والأقباط والمسيحيون الآخرون في دمياط يحتفلون آملين ليس بعام طيب فقط، بل بقرن جديد طيب.

لقد هرعت هي وأبوها ـ في عز المطر والبرد وحبات البرد الكبيرة ـ للبحث عن داية، تقبل الخروج في نوة تطير الأجساد وأغصان الأشجار في الهواء.. كم من ساعات ذاقت فيها أم ليل الألم منذ العشاء حتى منتصف الليل، حتى سمعت وأبوها صوت بكاء الوليد « غياث الدين ».

ولد التوءمان في الساعة الأولى من الأول مـن ينـاير ( كانون الثاني ) عام ١٥٠٠.

سرى خدر في ذراع غياث الدين، فتململ، أدهشه أن جسده كله يتجمد من البرد، ما عدا ذراعه القابضة على شيء لا يدري ما هو؟ خدر موجع.. تساءل: وهل يتألم الغريق؟

من السهل التمييز بين التوءمين مع تطابق ملامحهما، غياث أسود الشعر والعينين بلون قمحي فاتح، أما ليث فأزرق العينين، عسلي الشعر، وبشرته أفتح قليلا من لون أخيه.. متلازمان دائما، يتشاجران في الغالب، يعتمد أحدهما على الآخر كحق أصيل.

في البداية لم تشغلهما نظرات النساء لهما، يمصمصن الشفاة وعيونهن تفيض رثاء، يشوحن بأيديهن لإبعاد الشر أو اللعنة عنهن، ما استغربا ذلك فهما سابحان في عالميهما الغني عن الخارج، حتى سمعا عرضا، لكن بوضوح: دول ولاد المنتحرتين، استغفر الله العظيم، الشر بره وبعيد.

تسأل أخرى: نعرف إن أمهما انتحرت، فمن الأخرى؟

- جدتهما

- الجدة للأم أم للأب؟

- المصيبة أنها الجدة للأب.. يعني تحدي إرادة الله في دمهم من الجهتين: الأم والأب.

- العِرق دساس، عيلة مجانين، تنتحر فيها النساء دائما.

- صحيح، دي عيلة غريبة قوي.

نظر التوءمان إلى بعضهما، ولن يعودا أبد كمـا كانـا، ولكل طريقته الفريدة.

سألا ليل، ردت مضطربة: لم يحـدث، دي تخـاريف نسوان.

- عشان ايه دايما تقسمي الرغيف خمسة أقسام، وكـأن أمنا معانا؟، ده كان أيام فقرنا الشديد، وحتى الآن مـع إن شغلك خلانا والحمد لله مستورين بطلنـا نسـتلف فلوس من الناس، ليه بتخلي كل واحد منا يقسم رغيفه خمسة، ويعطيك الجزء الأخير؟

- رحمة ونور على المرحومة.

- مش باين إن دي الحقيقة.. قولي.

- أمنا كانت صحتها ضعيفة قوي بعد ولادة سنانية.

هز التوءمان كتفيهما غير مقتنعين.

**تململ غياث الدين في رقدته على سطح السفينة وقد سكن شهر طوبة عظامه.**

في تلك الأثناء في بر دمياط، اقتلعت أنواء الكرم شجرة ليمون عتيقة، جابت بها أرجاء المدينة وقراها في دوامتهـا،

قاذفة من جسدها شظايا إبرية تخترق أجساد الناس، والفقراء في بيوتهم الطينية وعششهم من عيـدان الغـاب والجريـد، بملابسهم الرثة كأوراق الكرنب المخال، وجدرانهم وأسـقفهم الواهية.

ما إن استقرت بقايا جثة الشجرة مترهلة، مشعثة، حتى دبت آلام رهيبة احتلت الأجساد ونفختها كما قربة الماء، مع حمى شديدة.

ساد فزع وإحساس فظيع بالذنب، لا بد أن طلسم سـحر وراء ذلك لم تصل أنواء الكرم لهذه الدرجـة مـن الـدمار والفوضى تجعلهما يصيبان هدفهما بدقة بالغة.. تعالـت فـي البيوت أصوات النساء والأطفال والرجال والشيوخ: اسـتغفر الله، استغفر الله، اغفر لنا يا رحمن يا رحيم، لم نكن نعـرف أنه كافر، متهتك، اغفر لنا يا رب ببركة الصلوات الصـادقة ومجالس الصالحين في العلم والدين هنا، تلك التي يقصـدها المؤمنون من أقاصي مصر وبلاد المسلمين للسماع إليهم.

اغفر لنا يا رب، أنّى لنا أن نكشف سريرته وهو حـي بيننا.. ربنَا ولاَ تُحملْنَا ما لاَ طَاَقَةَ لَنَا بِهِ... وارحمنَا.

تساءلوا فيما بينهم: هل ندفع ثمن جهلنا واحتضاننا هـذا الرجل الشيطاني ومهرطقيه وزنادقته من أتباعه الأوربيين؟

خرج أهل المصابين قاصدين دور العبـادة وشـيوخها والمبروكين بالمدينة، يقف « الترجمان » كعادته محدقا فـي الأشياء التي تصلح للكتابة عليها، وعبه منفوخ ببقايا قراطيس وورق وجلود، وكذلك سيالة جلبابه وتحت الطاقية.. غاضب لأن النوة كنست الشوارع من كل ما يصلح للكتابـة عليـه، متأملا حوزته وهل ما بها يكفيه للكتابة، تنبه إلى تجمع الناس حواليه بوجوه مستخذية مستجدية.

مد أحدهم إليه قطعة صالحة للكتابة من جريد النخل.

- ماذا ستكتب يا ترجمان؟

- الفقراء هم القرابين الصامتة المذعنة

- قرابين؟!

أوضح آخر: أضحية يعني.

- أو نذر.

- كيف يا ترجمان؟

- هم ضحايا غضبة الطبيعة وغضبة البشر.. والغزوات.

عندما سمع الناس الكلمة الأخيرة شحبت وجوههم خوفا وانفضوا عنه، فقد نطق الجملة بالعربية والتركية والفرنسـية والقبطية واليونانية.

استهان البعض الآخر به: دا لسه عايش في أيام سـيدنا نوح، غزو إيه!! هو فاكر نفسه طومان باي؟!

رد الترجمان: أنا فاكر نفسي المغفل ده قنصوه الغوري اللي أقام ورمم وسلح القلاع والأسوار في دمياط قبل الغـزو بخمس سنين، الترك كانوا أخبث وجاءوا مصر من البر.

تجمهر الناس حول جثة الشجرة يخافون مسـها، حتـى شقت الجموع ثلاث لحيات طوال لشيوخ الـديانات الـثلاث الواصلين في العلم.. راحوا يفحصونها، كل متسربل بأدعيته وتعازيمه الخاصة خشية وجود طلسم فيها يؤدي إلى المزيـد من الأذى، ومزيد من الضحايا، غير أنهم لم يعرفوا هل هذا الحدث هو بداية البلاء أم نهايته.

أهذه أنت يا ليل، جئت بهذه الأغطية لتدفئيني؟ آه، إننـا الآن من الأموات، أنا كنت ماضيا لاستعادة ولدك. ثم، ثم..

أحكمت ليل الغطاء حول جسم أخيها.. غفا وتملكه دفء هو في حاجة إليه، فتح عينيه ممتنا وحامدا لأختـه حنانهـا، ابتسمت ثم تلاشت.

لاحق بناظريه طيفها الآخذ في الأفول: آسف يا أختي ما كنت متعمدا سماعكما.

في الحديث تردد ليل على سؤال لم يسمعه غيـاث فـي مروره بالبيت لغرض ما.

- كان عندي يومها ٣٥ سنة قمرية يا آمونيت.
- كيف أفلت منه في المرة الأولى؟
- أتعرفين في شهر كياك.
- طبعا كياك: صباحك مساك تقوم من نومـك تحضـر عشاك.
- كان يوما دافئا فوق العادة في ذلك الشتاء، لدرجـة أن بعض الأشجار تفتحت براعم أزهارها قبل الأوان.
- لما دخلت بي الجارية إلى حـوش المنـزل لاحظـت شجرة كبيرة جدا. وعصافير كثيرة حولها، مناقيرهـا مليئة بالقش، سألتها عن القش فقالت إنها وضعت تحت قاعدة الشباك كومة كبيرة من القش على سقف خشبي

لشباك في الدور الأول، لتهون على العصـافير بنـاء أعشاشها.

- ثم؟

- ما إن تركتني لأستريح حتـى اقترضـت ثوبـا مـن خزانتها، واختفيت داخل القش.

وكانت رحمة الله واسعة، أمطرت ليلتها ولذلك لم يـدر بذهن أحدهم أني مختبئة داخل القش في العراء تحت قرقعات سياط المطر.

- ظللت هكذا حتى الصباح؟

- لا، تسلقت الشجرة واحتميت في قلب أغصانها الداخلية وعندما طفئت أنوار البيت خرجت.

جاءتني الجارية صباحا وحكت، كـم استشـاط شـيخ الطائفة غضبا وضربها وسألتني كيف خرجـت، تظـاهرت بالدهشة ألم يقل لك الخدم أنهم خلطوا بينـي وبينـك لأنـي استعرت ثوبك وخرجت، لكني وضعت على وجهي برقعـك ذلك الذي كان مهملا في صندوق ملابسك.

وأضافت أنها توسلت إلى الشيخ أن يمنحهـا ويمنحنـي فرصة أخرى.

- ما هي؟

- أن أذهب بنفسي إلى مكتبه في مضـرب الأرز الـذي يمتلك نصفه.

- وذهبت؟

- نعم.

- وأفلت أيضا؟

- بعون الله أفلت.

- كيف؟

- ألا تتذكرين يا آمونيت ماذا أفعل حينما يدور المنـادي معلنا منع خروج النساء من بيوتهن؟

- طبعا.. أيام خاير بك.

- تقصدين خاين بك، وغيره، وغيره، أحيانا يكون المنع خاصا بدمياط وحدها

- حقا، ولكن لِم؟

- إنها حكاية أخرى يا أختي.

- أتذكر أنك كنت تلبسين لباس الغلمان، يساعدك في ذلك جسدك النحيل.

- وأحيانا، ألبس جلبابا رجاليا مع عمامة

وغرقت ليل في الضحك

- بالله عليك، أضحكيني معك.

- تعرضت لمغازلات من مصـريين وشـوام وعسـكر عثمانلية وأنا بلباس الغلام،

فاقت المغازلات لي كامرأة، بل تفوق حتى المغـازلات لرجل في جلباب.

- ماذا كانوا يقولون؟

- يشيدون بالسيقان المنتوفة المعتنـى بهـا، والتـدويرة اللطيفة لمؤخرتي وبطني.

ويشهقون إعجابا عندما يرون رموشي الطويلة الكحيلة.. وهناك من يجوف يده أمامي مليئة بالنُقل والعملات الذهبية.

- ماذا تفعلين، ألم تخافي؟

- إن خفت فلن تنفع لي أية حيلة.

- أيتها الداهية الشقية!!

- هززت كتفي بالإجابة: لا، ونظرات عيني ساهية.

- يا لجرأتك!!

- ما كان بإمكانهم التحرش بي علنـا، إذ أمشـي فـي الطرقات المزدحمة.

- هيه.. لبست كالغلمان، وذهبت لمضرب الأرز.

- نعم، بل وأشهدت العمال أن يبلغوا شيخ الكحكيين أن اسمي ليل وأنني قد وصلت.

- بم أبلغوه؟

- تخابثوا عليه كما سمعتهم، غامزين في ندائهم إلى الشيخ بأن الغلام ليل قد وصل.

دخل وأغلق الباب بالقفل الخشبي من الداخل.. كنت قد التحفت بزنبيل للأرز الميري المخصص تصديره المطبخ السلطاني في إسلامبول، وسط ثلاثة صفوف من عبوات الأرز المختلفة من مطبوقات، وغزاويات وزنابيل، بالطبع لم يجدني، تحسس بنفسه عبوات الأرز الدمياطي، لكني كنت في الصف الثاني لصق الجدار، تحتي أربعة عبوات وفوقي عبوتان أخريان.

لما لم يجدني فتح الباب، وصاح على العمال: أين الغلام؟

- سمعت من النمائم، لا أقصد ذلك، أنك السبب في أن قاضي دمياط، أمر بإزالة جميع الترابيس الخشبية من

داخل الدواوين أو هؤلاء المتعاملين معها مثل شـيوخ الطوائف.

- كان ذلك صحيحا، وقد دفعت الثمن، وأشـارت إلـى ساقها المتدلية على حشيتها،

والفضل لله ولك في شفاء ساقي.

- الفضل للرب وحده، أنا مجرد وسيلة.

- لولا أن وهبك الله اللمسة الشافية والحكمـة، لظللـت أجرها ورائي.

- حقيقة.. أنت شجاعة يا ليل، امرأة أخرى ما جـرؤت أن تنام في ظل الهرم، وأن تتسلل إلى سراديبه الخفية لتبيت فيها.. وتحلم.. ألن تقولي لي ماذا قيل لك؟

- آمونيت، ليس مسموحا لي، فقط عرفت كما قلت قـبلا أننا منذ تلك اللحظة لن نفترق أبدا.

- وها نحن صديقتان حميمتان منذ بضع سنوات.

عندئذ يا ليل تنحنحت، فانتبهتما لـي، قالـت آمونيـت مبتسمة: ما أتيت إلا لأعرف شكواك.

خجلت فقلت: كأنكما أختان.

ردت آمونيت: نحن بالفعل كذلك، صـف لـي اتجـاه الصداع الذي تشكو منه.

وعلمتني بعض طرق التدليك بأطراف أصـابعي علـي جبهتي وصفحتي وجهي.

- الآن اجلس معنا، سوف يذهب صداعك حالا، عليك أن تعرف هذه الطريقة.

- ما هي؟

- سأصنع لك قهوة.

- معذرة فقد حرمها الشيوخ.

- لا أعرف لِم حرموها ولكني سأريك أنها نـوع مـن الدواء.

وضعت آمونيت بكرج القهوة على منقد الفحـم حتـى قاربت مياهها الفوران، فرفعتها، وأخـذت جمـرة صـغيرة وأسقطتها في البكرج وغطته لدقائق، ثم شربت منه فـذهب الصداع في الحال بحمد الله.

وصرت يا ليل تشتكيني لآمونيت لأن زوجتي وبنـاتي أخذوني منك ولا أطل عليك إلا قليلا.. أعرف يا ليل ما فعله زواجي بحالك، والسوداوية التي ضربتك، أنت التي عزفـت

عن الزواج لأجل تربيتنا.. وأيضا رفضك بيع أحـدنا عبـدا وكان في هذا تخفيف حماك ومسئوليتك.

لا يزال وجهك معاتبا؟

حدث غياث نفسه: إن لم أكن قد مـت، فلسـوف أجـد نور الدين في رعاية آمونيت، ربما داخل المدينة العتيقـة أو خارجها.

شعر أنه تلقى صفعة، صرخ في وجه المهـاجم، لكـن صوتا لم يصدر منه، نظر حواليه فأحاطته عيـون والديـه حانية عطوف، وعرف بالحدس جدته التي يقال إنها انتحرت، وملائكة صغارا هم إخوته الذين توفوا في شهورهم أو سنيهم الأولى.

أخبرهم كأنه يطمئن نفسه: أعرف أن أمي لم تنتحر.

أكد أئمة الجوامع في صلاة الجمعة أنه بالرغم من شـح القمح الآن، فالحال أهون كثيرا من المجاعـات المماليكيـة، فالفرمانات السلطانية تحظر تصدير القمح والشعير وتراقـب الأفران وتثبت أسعار الخبز.

سمعت ليل خطبة الجمعة من زاوية بالقرب من المنزل، تهكمت متوهجة بالحديث إلى أمها: إذًا ما الذي يفعله « دايان

السرياقوسي » صاحب إدارة جمرك دميـاط، والمطـراوي كبير تجارها غير تصدير القمح، مما اضطر النـاس لنهـب مخزن الدشيشة، نعم البارات معانا، لكن لا يوجد عيش كاف بالأفران، حتى الشعير الرشيدي الذي كنا لا نحبه في خبيزنا، لم يعد موجودا أيضا.

بعد أيام نفدت البارات واختفى الخبز، خرجت ليل بنت الستة عشر عاما للتسول من البيوتات الغنية على النيل، كانوا يردونها، ومرة أدخلها الغفير إلى المطبخ حيث تقوم الجارية بلت العجين.

رمقتها: ماذا تريدين؟

- رغيف واحد.

- هلمي، ساعديني في العجين مقابل الرغيف.

كان الرغيف يوزع في المساء على خمسة أفراد، إلـى جانب نباتات الرجلة التي ينتزعونهـا مـن أرض زراعيـة مجاورة، منافسين العصافير في طعامها الذي تعتمد عليه.

همست بدور بنت موافي بصل: لازم الرغيف يتـوزع على أربعة بس.

ردت ليل مستنكرة: بتقولي إيه يا اما؟!

محرجة قالت: ولا حاجة.. كلـه بسـبب رأس عشـم الخير(*).

- يا اما قلت لي إن رأس عشم الخير اللي خسرت الناس الجلد والسقط، كان قبل ما تتجوز جدتنا.

- آه.. صحيح.

استمرت الأم أسبوعا تكرر الكلام نفسه.

في اليوم الثامن وجدوا جلبابا أزرق يطفو فـي منطقـة جرداء من شط النيل.

يقف الترجمان غريب الأطوار، بأسماله البالية ولسـانه السليط، وقد فرد ورقة مكرمشة، يسأل الناس فـي المقـاهي والخارجين من صلاة الجمعة: اقرأ.. اقرأ.

- لا نعرف القراءة.

- وأنت؟

- ما هذا، إنه عقد إيجار قديم.

- لا، اقرأ ما كتبته.

- لا شيء بخطك.

- هذا القلم البوص وهذه الدواة في خدمتي، اقرأ، اقرأ.

---

(*) رأس الرجاء الصالح .

- محبرة فارغة، وقلم لم يتبقع بالحبر.. قل لي أنت ماذا كتبت؟

- الغاياتي.

- من هو الغاياتي؟

- بل قل من هم الغاياتي؟.. إنه القاضي الذي يتحدث عن العدالة والغايات النبيلة، وجاويشية الثغر وبحر النيـل: النزهاء الذين يسرقون موارد الثغور من أجل غايـات الإخلاص للسلطنة الزاهرة التـي غايتهـا أن تكـون صوت الله على الأرض.

تكفهر وجوه البعض ويضحك البعض الآخر، والغالبيـة تضرب كفا بكف وتمضي.

- هل تعرف غاياتي رابع؟

يعدد الشـبان بغيـر حصـافة أو حـرص: أتعـرف السرياقوسي؟

متخابثا سأل الترجمان: بيشتغل إيه؟

- هو كمان غاياتي!!

لم يطق المحتسب صبرا على هيبة الحكـام ومسـاتير الناس وكبارهم التي تضعضعت بسبب مسـاخر الترجمـان،

فأمر بالقبض عليه، وألقى به في سجن « العرقاناه » الـذي يسمونه سجن الشرع الشريف.

ما صدق الناس الشائعات فهو بالنسبة لهم « مجـذوب حقيقي » يحدق في الشخص ولا يراه، تصيبه دوامات مـن الوجد فلا يردد سوى: الله، الله، بعدها يقع صـريعا وبدنـه ينتفض، وعلامات رضا الله عن تقواه كثيرة فجيوبـه دائمـا عامرة بالمال يوزعه على المساكين والمتعطلين، ولا يقبـل أحسانا أو طعاما، بل يشتري طعامه، ويوم حـاول صـبي. غرير من الزعار أن يقطع جيب جلبابه بخنجـره تسـاقطت البارات والنصف فضة، جمعها الصبي متلهفـا والترجمـان ينظر إليه مبتسما.. لم يمض سوى سحابة نهار حتى وجـدوا الصبي معلقا من قدميه في سوق الحسبة، مع أن الترجمان لم يتظلم أو يشكه إلى أحد.

دارت في البلد شائعات تقول إن الترجمان ذمي هالـك، فلا يعرف له دين، ولا أهل أو ولد.. فضلا عن أنه لم يطـع يوما أولي الأمر، وإنه يتلاعب بمشاعر الناس حتى يعتبروه وليا وفقيرا من فقراء الله المكشوف عنهم الحجاب.

احتار الناس بالفعل، فما كانوا على استعداد للتخلي عنه، فلقد تنبأ بنبوءات حدثت، في الوقت الذي يقرع فيـه النـاس على غفلتهم.. لو تخلوا عنه فكأنهم ينبذون لسانه الذي ينطق بدلا منهم، ويهدئ البراكين التـي تفـور فـي صـدورهم وعقولهم.. فهو بنظرهم مثل شيوخ الصوفية الذين يعينـونهم على التحمل، ولكنه خلافا للصوفية لا يدفعهم دفعـا إلـى أن يتحملوا صاغرين، بل يحضهم على الانفجار.

استدارت في أفق دمياط تكشيره كبيرة، فكوك تصـطك وأسنان يجز عليها، تتسع خطوات الناس يسابقون حنقهم كي لا يتآكلهم من الداخل، يكورون قبضة اليمنى تضرب الكـف اليسرى، ترتع الآن تغضينة الغضب على الجبـاه وتختفـي تجاعيد الانكسار تحت الجفون.

لم تنم دمياط ثلاث ليال.. حول الأدباتية كلام الترجمان إلى أغانٍ ذكروا فيها اسمه سليمان ولد يؤانس العطار تـارة وسليمان بن يونس مرة أخرى، انتشرت النكات حول سجانه، وحورت تعليقات الترجمان الساخرة.

تحـرش الزعـار بعسـكر الجاويشـية والانكشـارية والسباهية، احتل المنفيون من الأمراء وعلماء الدين المنـابر

وحكوا قصة الترجمان وسبب جنونه وهددوا بإذاعة أسـماء أطلق عليهم « المفسدون في الأرض » بات الشـباب تلـك الليالي حول السجن، وعندما شرع العسكر في رفع السـياط، كان الزعار أسرع في رشقهم بالحصى المدببة.

تكاتف شيوخ فقراء الصوفية بفرقها المتعددة: القادريـة والرفاعية والأحمدية وغيرها على عبارة واحدة انطلقت من داخل تكاياهم والزوايا، يهللون فـي الشـوارع والأسـواق وأمارات الانجذاب والبركة تكلل محياهم: « سلطان غشـوم ولا فتنة تدوم ».

**تلقى غياث صفعة أخرى، في جسده، فتح عينيه غاضبا، ألم أقل لك...؟**

كان الخنان أمامه. وقد جره « حاييم السرياقوسي » إلى الخن الذي امتلأت أرضيته بماء البحر، أشعلا نارا للتدفئـة، ثم واصل السرياقوسي ما بدا لغياث أنه رآه من قبل – كـان يلطم بالفعل –

سأل غياث: أين نحن الآن؟

رد الخنان: لا ندري، السفينة وحدها في عرض البحر، والقافلة تشتتت وربما غرقت سفن.

نظر غياث السرياقوسي: ربنا يعوضك.

أسرع الخنان: يعوضه إزاي وهو يبيع جثث للفرنساوية.

- يا جماعة، انتو مش فاهمين حاجة، جثـث الفـراعين دي، بيدرسوا بيها الطب، ولازمة لكل حكيم هناك.

فند غياث حجة السرياقوسي: ربنا كرم جسم الإنسان في حياته وبعد موته.

السرياقوسي: تفتكر إزاي عالجوا الأمراض؟

غياث: باللبخة والحجامة والكي والأعشاب.

السرياقوسي: وتفتكر العطار والحكيم قادرين على علاج أمراضنا كلها.

الخنان: لا يبقى سوى الدعاء بعد الأخذ بالأسباب

غياث: والفرنساوية دول كفار.

السرياقوسي: الكنيسة عندهم حرمت تشريح جسم البني آدم المتوفى حديثا، وكان المخرج هو التشريح فـي جثـث الفراعين.

زم غياث شفتيه وأشاح الخنان بوجهه.

سأل غياث: والغشية اللي كنت فيها استمرت كتير؟

الخنان: كان شكلك زي الميت، عرفنا أنه مغشي عليك، ضربنا على خدك ولم تفق، وبعدين جذبناك من السطح إلـى هنا.

- يعني وقت قد ايه؟

- مفيش دقايق.

- ياه.. دا أنا حسبته دهر، وافتكرت إني مـت وقابلـت أهلي في الآخرة.

تمتم لنفسه: الآخرة!! وتذكر ما خبأه في مكان سري في بيته من أجل حياة اليقين والتقوى، ولام نفسه أشد اللوم أنـه نسي في غمرة هروبه أن يخبر أحد الرفـاق عـن: الـنفط، الحبال، زنبيل من جذور « الفوة عود » لتخـدير الأعـداء، وبعدها يسهل الانقضاض عليهم، عدد من دوبارات خيـوط الصوف البنية التي تلف حول المعصم الأيسر، أدوات للوشم سمكة بباطن طولها بوصتان ( كعلامة للتعارف بينهم ) وحفر بارز على الخشب للكعبة الشريفة لطبعه على الحيطان.

طأطأ رأسه، واستل من حنجرته أعلى طبقاتهـا، رأى نفسه مناديا في الشارع الأعظم: الكعبة سرة الكون، فعـودوا إلى الله.. نعم، أعترف أنني خدرته بالفوة عود، ثم أطبقـت

يدي على رقبته، بودي لحظتها أن أعلن عليكم أنني قتلتـه. مسح غياث الدين بعين خياله مجددا محتويات خبيئتـه التـي ستنتظره ثلاثة عشر عاما هناك.

آثر الثلاثة أن يبيتوا في المكان نفسه التماسا للأمان. نام غياث نوما قلقا تناوئ أذناه ضربات مجـاديف قويـة علـى صفحة بحر هادئة.

في دمياط كانوا يعتصرون « عبد المطلـب » صـديق غياث للحصول منه على اعتراف بقتـل المطـراوي أو أن يشي بما يعرفه عن هذا الأمر، أصوات رجع صدى لكلمتين استفزازيتين تزحمان ذهنه أولهما ينطقها المحققون: ( قررتهم قتله ) يقابلها نصح ـ سابق – من الرفـاق حـال القـبض عليهم: ( عينان جافتان ) كيلا يتم الإيقاع بك.

يبذل عبد المطلب جهدا خارقا حتـى لا تكـون عينـاه رطبتين، إلا أنه كان متململا في وقفته، يضع يده على خـده تارة وعلى فمه مرة أخرى، ترمش عيناه كثيرا، يهـز يديـه باستنكار واستهجان، يمط شفتيه كهلال مقلوب فـي ازدراء، ومضة قلق في نظرة جانبية مختلسة إلى القاضي والجنـود، تعقبها ابتسامة لا تتلاءم والموقف.. تتجمد الابتسامة ويتلجلج

الصوت.. ثم اختفى ذلك كله برسالة من عين القاضي دهش لها: رسالة متواطئة!!

فأصبح وجهه قناعا هادئا، استكان جذعه وأطرافه فـي استرخاء تمثال رخامي، كان يكذب وفقا لاعتقاده أنـه قتلـه بالفعل بدس الدسم في شرابه، يهنئ نفسه سرا ( ليس غيـاث الهارب هو القاتل.. غايتي أنبل منه، لا أقصـد بهـا سـوى إحقاق الحق، أما هو فله عداوة شخصية مع المطراوي ).

فز جسد غياث الدين مجددا في نومه، هيئ له أن صوت ضربات المجاديف القوية معناها إبداء مقاومة شديدة لغـدر البحر وهياج أمواجه، قال لنفسه ربما هي مجاديف في ثلاثة طوابق، ثم تنبه إلى أن هذه السفينة من الأغربـة بمسـتوى واحد من عشرات المجاديف، هل سمع صوت انفجار برق؟ موجة عاتية؟ رعد؟

أسرع يجري في حركات خرقاء على السطح يتشـبث بالمخاطيف.. ( أما كان يجدر بي أن أظـل فـي الخـن؟ ) تجمدت أصابعه على الخطاف الحديدي البارد.. أين الخنّان؟ أين اليهودي السرياقوسي؟. ها، إنهما يتهامسان على أختـه

ليل، يرويان ما حكته ليل لصديقتها آمونيت. كيف عرفا، هل تخون آمونيت وتحكي عن..؟

كيف دخلت الشمس في الخن لتسقط حممها علينا، مرت صلاة الظهر وصلاة العصر وها نحن على وشـك صـلاة المغرب، ولم تغب أو تهدأ حدتها بعد، صـرخ علـى أخيـه التوءم ليث الدين أن يخلع بعض ملابسه وأن يضع قلة الماء البارد إلى جانبه.. متى تسلل الشيب إلى لحيتك يا ليث ومـا شاب شعر أي من أهلنا حتى شيوخهم الطاعنين.

هل تظن أن رودس تبعد عنا بمسيرة أربعة أيـام فـي البحر؟

يموج صدر غياث الدين بالكثير مـن الأسـرار التـي يرغب في التخفف منها، وفي نوبة الحمى الشديدة وتسـارع الزمن لديه، استثنى ليث الدين والسرياقوسي من أن يحيطهما بعذاباته العائلية، فالأول أخوه والثاني من أهل دمياط.. وقـع اختياره على الخنّان، كلاهما بالنسبة للآخر إنسان عابر قد لا يجتمعان مرة أخرى.. قرر أن يتخلى عن تحفظه وكتمانه.

عصبت ليل ضفائرها الكثر بمنـديل أرفقتـه بطرحـة سوداء على رأسها ورقبتها، وقبعت أمام شيخ الطائفة.

- ما لك تتكورين إلى الداخل كأنك قنفد.

لم ترد، تكورت تحتضن نفسها، نظر إليها بحقد وغضب وإحساس لازمه منذ طفولته: شعور بالذنب، وأنه مرفوض.

طريقة ليل من الاحتماء منه أو من عدوانه يشبه سـخط أمه عليه في طفولته، كانت توبخه، ثـم تجلـس لتحتضـن إحباطاتها، تربت على كتفها وخديها ناظرة إليه بلوم.

- هل تساقط لحم وجهك من الحياء؟

دهشت ليل لفظاظة تشبيهاته.

- ألا ترين أنني ضحيتك، ألم يكن اتفاقا بيننا لا تـزالين تخلين بتنفيذه.

ابتسمت ليل لإصراره على التحدث بالفصـحى، علـى الكل أن يعرف أنه أنجز دراسته باكرا فـي الكُتّـاب وأنـه يختلف إلى مناقشات العلماء في المساجد.

- لشفتيك ابتسامة تتسع كرصيف ثغر دمياط، أتسـخرين مني للمرة الثالثة، لو فكرت قليلا لوجدت أني احتـرم كل بوصة في جسدك.

كادت ضحكة تفلت منها لكل هـذه الاحترامـات التـي يوليها لكل بوصات جسدها، لكنها تنحنحت ولم ترد.

ظل شيخ الطائفة يتحدث من الظهـر حتـى العصـر، مفزعا، مهددا، لابسا مسوح الحامي لها.. أجالت ليل ناظريها حولها وعجبت للترتيب والنظافة والنظام لمحتويات المكـان، متشاغلة مدت يدها لترى نوع قرطاس ودواة وضـعا علـى منضدة صغيرة من القش، نظر لها بحزم أن تعيد الأشياء إلى مكانها.

- ما ردك؟ تعرفين أني حمار شغل، هيا بنـا الآن.. لا تريدين!! أفهم أن السكوت علامة الرضا.

- السكوت علامة القهر.

- أنت تقهرين بلادا، ليس أنا فقط.

استسلمت للإنصات إليه فقط، وكم كان ذلك مكلفا، لقـد امتص كل طاقة فيها حتى لم تعد تقدر على التـنفس، بـدأت الأشياء حولها تنزف الظلمة.

ألقى الشيخ سلاحه الأخير: تتزوجيني؟

لم تسعفها طاقتها الناضبة لترد.. هزت رأسها: لا

أفاقت ليل لتجد نفسها في المكان ذاته وآلام مبرحة فـي ساقها اليسرى، كان مساعدو الشيخ مـع المجبراتـي الـذي غازلها في السوق قبل أيام.. دوت صـرختها مـا إن بـدا

المجبراتي في دهان ساقها المكسورة بالزبـدة حتـى قـال ساخرا: يا عيارة، كنت بتعملي إيه هنا، كل الخلايق عارفـة إنك لبؤة.. مرة شاق.

انطلق سيل الشتائم: يا فاسق، يا دون، يا كلب

في هذه اللحظة كان مساعده يمسكها وهو يجبر سـاقها بمنتهى الثبات والبرود، ولشدة تركيزها في سبه، لم تشـعر بألم التجبير.

- هتفضل الجبيرة دي لمدة شهرين فاهمـة!!.. سـينقلك مساعدي إلى بيتك،

وعليك أن تضعي هذه القطعة من حشيش«أبي النـوم» تحت لسانك الآن.. حتى تسكن الآلام، سأمر عليك غدا بعد العشاء.

- لا أريد أن أرى وجهك أيها الفاجر.

برباطة جأش، اقترب من أذنها وهمس: الفاجر هو اللي كسر رجلك عشان أنت بهدلتي هيبته.

- أنت تعرف إذن؟

- بالطبع، أعرفه وأعرفك جيدا.

انتقم شيخ الطائفة لنفسه وللأخلاق الحميدة التـي تـأبى النظر إلى مناقيش ليل الخليعة.. لكن ذلك لم يجد من شوشرة النساء وتشفي الرجال.

زارتها النساء للاطمئنان عليها:

النساء: ترفضيه لمجرد أن نفسك ضاق وهو بيتكلم؟!

ليل: مش صعوبة التنفس هي السبب لوحدها، دا شـفط الهواء كله.

النساء: لأنك كنت خايفة أو قلقانة.

ليل: لا ده، ولا ده، ما كانش بيتكلم، كان يجتر الكـلام زي ما الجمال تجتر طعامها، اجتراره أجهدني، زي فار في بقه حاجة يقرضها دايما، وأنا ما أتحمل ده.

النساء: شغلك وتعاملك مع الرجال خلاك بقيت شـبههم في قلة الكلام لدرجة إنك تزهقي من راجل يرغي كثير.

أخذ غياث في هذيانه يشرح لمحيطين به أنه لم يحـدث أن استخدمت ليل في شغلها مناقيش خلاعية، ربما هي غيرة من زملاء الطائفة، وأن شيخ الطائفة لم يكسر رجلها بل كان يلح عليها كثيرا بالزواج والسترة، لكنها اشترطت أن تظـل معنا، ولا تجالس زوجاته في بيته:

« أؤكد لكم إن اللي كسر رجلها هم زملاء غيورون من شهرتها؛ إنها أحسن واحدة تعمل كحك في دمياط ».

فيما يرى النائم، رأت ليل أنها تقف فوق تل رملي ليلة تمام البدر، والشاطئ ورماله البيضاء يمتدان أمامها، تعجبت، رمال بيضاء تلتمع بالنور الفضي!!

وإذا بها ترى جمعا من الناس، غريبي الشكل، ثمة رجل حصان وامرأة حصان، يرقص الجميع في تلك الليلة الصافية، يتبادلون العناق والمشاعر اللطيفة، بدت لها أجسامهم شفافة دون ظلال، أحست بالحسد ثم بالخزي من اطلاعها على مشاعر حميمة لخلايق أغراب، وفي اللحظة نفسها وقع ظلها على حوافر رجل حصان توقف مبهوتًا، تنبه الجمع، صرخوا، وركضوا باتجاه فدادين من الألق القرمزي والأبيض لزهرة الخشخاش، كان المنظر بديعا.

نظر لها الرجل الحصان متحفزا، فأطلقت ساقيها للريح، ركض، وتهنئ نفسها أن ساقيها سليمتان غير مكسورتين، كانت تجري باتجاه الألق القرمزي وفي يدها ورقتان من زهرة خشخاش.. كادت تجن شبقا من الملمس الناعم والمزغب للورقتين.

وقفت على التل تراقب مطاردة الرجل الحصان لها وهي تركض، وتلهث، كانت تراقب نفسها أيضا، فتنها اللون الكستنائي لبدن الرجل الحصان، وشعره الطويل الذي يدوم في الريح.

وجدته أمامها على التل، ينظر إلى عينيها مباشرة، رفع حافر قدمه اليمنى الأمامية، فإذا بها كف إنسان ثم قام بقص خصلة من شعرها لتنسدل كغرة جميلة على جبينها، قال في صهيل يشبه غناء في محارة هجرها الشط: شمعة ذهبية.

صحت ليل في اليوم التالي تشعر بالامتلاء والخدر والنشوة.. تساءلت: ماذا تعني الشمعة الذهبية؟

منذ الآن لن تعود أنوثة ليل غافية، لكنه – ويا لخجلها – صحو أنوثة في وقت أفولها لدى غيرها من النساء.

قبل سنوات قليلة تخلت صويحباتها عن لياقتهن بإغفال الحديث أمامها عن العالم الحسي لديهن؛ إذ أدركن أن حساسية الشباب لديها قد تلاشت بمرور الوقت فهي غيرهن ليس كل ما يشغلها الفراش والأولاد.

جئن بالزاد والزواد الملائمين لمناسبتهن الخاصة: الحكايات والنمائم.

همست عديلة بشيء فانفجرت النساء ضحكا، تغاضبت ليل: ما وراءكن يا ماكرات؟

ردت عديلة: لم تعرفي ما حدث لعزيزة؟

ليل: سمعت صراخا كأن زوجها يضـربها، لكنـي لا أستطيع إنقاذها بساق واحدة.

تخابثت أخرى: ضربها ليه؟ دي طيبـة تـتحط علـى الجرح يطيب، همست أخرى بعيدا عن ليل: أو على الكسـر يتجبر.

عديلة: المهم، ما استطاع أحد أن يتدخل، حتـى أكمـل علقته الساخنة، وقعدت تبكي وكان وشها، وشعرها وهدومها آخر بهدلة.

- هيه وبعدين؟

- الحكاية إنه رجع للبيت قبل موعـده، قبـل المغـرب بشوية.. فوجدها جالسة تغني وتسرح شعرها المبلول.

وكان أن هاجمها: امتى استحميتِ يا فاجرة؟

ردت ببراءة وما له يا أخويا، دا أنا بقـالي شـهر مـا استحميت، دماغي هتولع من الحر، والقمل بدأ يمشـي فـي راسي، فقمت استحميت.

- بتضحكي على مين. كان لازم تاخدي إذني الأول.

- في عرضك أنا تعبت، هو الحموم بس بعد الجماع، ما ينفعش حموم للنظافة.

وصار يتهمها في شرفها ويضربها وهي مذعورة تنكر أوهامه وتصرخ.

مصمصت النساء شفاههن تعاطفا وتشفيا بعزيزة في آن واحد لأنها مثل الغجرية: لسانها طويل وفاكرة نفسـها ســت جيرانها.

شردت ليل في زوجة أخيها غياث الدين التي عيرته في إحدى مشاحناتهما بأنه ابن المنتحرة، وضربها وحـذرها أن تنطق ذلك ثانية، لكن السهم كان قد أصاب بناته من قبل فقد أخبرتهن الأم بضرورة الحرص على أنفسهن لأن نساء عائلة بصل ينتحرن، فأسقط في يد غياث ولم يجد طريقة للانتقـام وردع زوجته سوى الضرب: يكفي نظرتها التي توسمه بابن المجانين.

ما كان صاغرا في معاشرتها، أقنـع نفسـه: فلأصـبر عليها صبر جزيرة جفت وتشققت شطآنها، حتى يأتي المـد،

ويستعيد البحر سطوته وشطآنه، وينكمش البر على ضـعته وخسته.

في يوم طلب منها جوربه الصوفي، فعبثـت بالخزانـة وأخرجت عددا من جواربه، مد يده بعفوية ليأخذ زوجا مـن الجوارب، غير أن ارتعاشة في يدها سرت إليه، نظـر لهـا متسائلا، شاحبة ومضطربة!! لملمـت بسـرعة الجـوارب لتعيدها للخزانة، فرق الجوارب بسيف يده، تبعثرت، ما مـن شيء غير عادي، ركعت لتجمعها، فردة جورب غريب اللون ومليء بنشارة الخشب، أمسك به كمن يمسك فأرا من ذيلـه: لمن هذا الجورب؟

- لا أعرف، ربما سقط في الفنـاء مـن بيـت جارنـا الإيطالي.
- وما الذي أوصله للخزانة؟
- ربما جمعته « ريم » بين غسيلنا الـذي جـف علـى الحبال بالحوش.
- آه هو كده؟!
- هو كده.

كان من العسير على ليل أن تحصي الألـوان الزرقـاء والبنفسجية من الرضوض واللطمات والكدمات التي أصيبت بها زوجة أخيها.. لم تعلق مطلقا على ما حدث، حتى بعد أن رأت أخاها يغلق على زوجته وبناته حتى يعود، ومنعها مـن زيارة أهلها أو استقبالهم في بيته، ويعقد محكمة كل مساء، ثم يمر على ليل صباحا قبل أن تذهب لعملهـا ويشـتكي مـر الشكوى.

سألته ليل باقتضاب: أتعاشرها؟

رد: أحيانا.

تعجبت.

ذات يوم طلبت ليل منه المفتاح لتزور بناته، وجلسـت مع زوجته الباكية التي تحكي ما حدث لتعيده مرة أخرى بلا توقف، ثم تشتكي من الجارات بأنهن يتقولن عليها بالرغم من أنها لا تدس أنفها فيما لا يخصها.

عقبت ليل: لكنك لم تري جاراتك منذ شهر.

- أنا أسمعهن. يقفن في الحوش ويغتبنني.

- هل نسيت أن زوجك كسر عواميد الخشب وقطع حبال الغسيل وحرم على جاركما استخدام الحوش، وقال إنه

يمكن لزوجته أن تنشر في السـطح، وإغلاقـا لبـاب الشبهات قام بتسقيف الحوش؟

- أعرف وقد بنى لنفسه حجرة كي يهجرني.

- فمن أين عرفت أن النساء يتقولن عليك؟ لأن زوجـك يضربك؟ كل الزوجات يضربن.

- لقد سمعتهن بأذني هاتين ورأيتهن بعيني هاتين.

وبعد فترة صمت أضافت: ليس لي غيره – تشير بيدها إلى السماء – ربي هو من يظهر براءتي.

لم تغلق ليل الباب عليهن لما خرجت، ذهبت من فورها إلى حانوت أخيها ووجدته منشغلا بفحص أثـواب الحريـر والتأكد من اسم صاحبها عليها، أو كتابته، قبل أن تلقي السلام داهمه رجال المحتسب وأزاحوه جانبا وفتشوا مواد الصباغة ووجدوا أكياس الحناء، اتهموه بأنه يغش ويصـبغ الحريـر بالحناء بديلا "للفوة عود"، فيبدو الحرير مشرق اللون لفتـرة وجيزة ثم لا يلبث أن يبهت لونه، كما أنه يعير ويؤجر ثياب أشراف الناس إلى آخرين مدة يوم أو أكثر.

سألتهم ليل: إلى أين ستأخذونه؟

- وما يهمك يا حرمة؟

- يهمني لأنه أخويا.
- إلى المحتسب طبعا.
- على فكرة بالحانوت أيضا "الفوة عود"، وهـذه الحنـة تخصني وتخص بكريته لأن خطوبتها بعد عشرة أيام، وإن عريسها شامي هيوصل كمان يومين مـع ليـث الدين توءمه.. أنا عايزة أعرف من اشتكاه؟

أسرعت ليل إلى شيخ طائفة صباغي الحريـر، قبلهـا همست في أذن أخيها: قبل أن تدعو ربنا أن يفك زنقتك، انْو أن تفك عن امرأتك أو تطلقها إذا كنت متأكدا من الهـاموش اللي في دماغك.

عندما اكتفى المحتسب بفرض غرامة، انطلقت زغاريد في بيت غياث، مالت عليه ليل مرة أخرى: كـف عنهـا أو طلقها.

وقف وتحدب ظهره في إحساس عميق بالإهانة.. تعلق الصمت في الهواء فجأة.

ابتسمت ليل: عرفت لذتك الآن.

مازال ظهره محدبا.

- لذتك أن تكسر خاطر امرأتك، بوصمها بالفحش حتـى تظل طول عمرها تسترضيك وتبكي براءتها، ونسيت شيئا هاما.

لم يعقب أو يسأل.

- ستنبت لك قرون حقا إن لم تفك عنها أو تطلقها.

ولهول الجملة استدركت ليل: بيني وبينك زين الغجرية، ابعت صبيك لها لتقرأ لك.

- تقرأ إيه؟

- كله: ثفل البن، الكف، الرمل والودع.

- أو أحد فقراء الزاوية.

لكزت ليل إحدى صويحباتها الزائرات: هيـه.. رحـت فين؟ بدرية الشامية هتحكي، اتجهت الرؤوس إلـى بدريـة: (كانت بنت خالتي أجمل بنات العائلة، وأرقهـن حاشـية.. بالرغم من مصابها وحرمانها، تستمتع بالحياة.

عطاؤها وافر وقلبها كبير.

وغنت:

**عاوز شوية لبن من بزيز أمه**

**ومسامحة من أجلكم ومسامحة في أمه**

**ومسامحة في فمكم، واللي يجي منه**

صاحت النسوة: بتغني ليه، فين الحكاية؟

هو ده كان غناها، لما كانت صبية عنـدها ١١ سـنة، وكان حبيبها الحداد في السوق، لما يلقاها تمر من السـوق، يشير لها أن تعود لبيتها فورا، بيتها قريب من السوق، تدخل بيتها خائفة على زعله، خافرة في حياء. كان عشـقا عـاش حتى بلغت سن ال ١٥.

ابن عمها زن على ودان والدها: « أنا هاصونها وعندي مال »، وكانت في الحقيقة خايفة من الزواج من الحـداد لأن عيلته مش هتحسن معاملتها، بسبب عداوات مش عارفة إيـه هِي، لكنها بقت في عرف العداوات المنسية.

يموت والدها والوصية في فمه أن تتزوج موسى ابـن عمها، فكلام الأموات لا يرد، صدمتها كانت صدمتين: موت والدها والقفص الحديدي اللي حطها فيه بوصيته.

وقعت من طولها، لا تأكل، ولا تشرب، ولا تنـام مـدة أربعة أيام.

أقرصها كي تبكي: ابكي.

قالت: أبكي!! الحي هو اللي يبكي.

بعد أسابيع لقيتها تدندن غنوة:

خلاني الجميل خلاني

سلب عقلي وغير حالي

خلاني ونا في الشباك

طالب شيشة وطالب تمباك

يا جدع ليلتي   وياك

يا ستي أيام وليالي

سألتها: مين هو؟ وين هو؟

أشارت إلى دماغها وقلبها: هنا في خيالي، وفي قلبي.

يمنعها زوجها عني لأني كنت مخطوبة لأخيه مرة وفسخت الخطوبة، لأنه كان زي عروسة الأراجوز في إيد أخيه الكبير وبغبغان لأقواله.

عموما، تزوجها وسافر للشام.

بعد ثماني سنوات اقتنصنا فرصة لرؤية بعضنا لما عادت في زيارة لأهلها ومعاها أولادها.

جميلة كما هي: « أنا لم أخن زوجي، لكني في حالة عشق جميل ».

وقالت إنها عادة لا تشتري ثيابا للخروج إذ تنفق جـزءا كبيرا من مالها على شراء قمصان النوم اللي تحل من علـى حبل المشنقة منها القمصان الشفافة والغلامية، المسدلة كرما والمختصرة بخلا.

وتغني:

يا بنت الناس الله يرحم أباك

جفاكي النوم من قلة حياكي

ونا العليل وصفولي هواكي

بإذن الله طاب الجرح طابا

وتقول: « حبيبي اللي في خيالي أجمل رجل.. ولما أنام من زوجي، أغمض عيني وأتخيله حبيبي، صحيح إنه كـان مفترس علمته رقة الحب، أهمس له: لا داعـي للعجلـة أو الافتراس، أنا لك أحب جسمي وأحب نفسي، واستمتع بحبيبي في بقية الأغنية:

قلت لها يا ستي أوريني

على قورتك وفرجيني

قالت لي روح يا مسكيني

دي قورتي هلال شعبان

رددت النسوة بحماس: يا عيني

وقالت كمان: إذا كان الله قد وعد الرجال بحور العـين في الجنة، فأنا المرأة الوحيدة اللي نالت الحبيب، لـيس فـي الآخرة، لكن هنا والآن على الأرض.

والصراحة أنها كانت موضع حسد من قريباتهـا، فـي الشام، فقالت لهن: أنا غلفت نفسي مثل الجنين، أو المولـود قبل أوانه، لازم ندفيه في تخت صغير، تخيلن طفـلا يكبـر حتى سن الرابعة جنب الـدفا ده، سـيتمرد وينفجـر تختـه الصغير.. هكذا أنا.. قصدت أن أقلص من مسـاحة عقلـي وأفسح لخيالي لأعيش دون خطيئة.

رددت النسوة: الله، الله.

وفي نشوة رضا بالصحبة ومع ليل، واهنـة الصـوت، غنين:

قلت لها يا ستي أوريني

على صدرك وفرجيني

قالت لي روح يا مسكيني

دي نهودي رمان الشامِ

يا عيني

قلت لها يا ستي أوريني

على بطنك وفرجيني

قالت لي روح يا مسكيني

دي بطني عجين خمران

يا عيني

قلت لها يا ستي أوريني

على اوراكك وفرجيني

قالت لي روح يا مسكيني

دي اوراكي عواميد رخامِ

يا عيني

تمنى غياث الدين وقد شعر بـبعض الراحـة لهبـوب حرارته قليلا، ألا يكون صوت هذيانه عاليا، فتح عينيه وجد الخنّان يضع كمادات باردة على جبينه، والسرياقوسي جالسا هناك مغتما، تمتم: الحمد لله، ليس هو الذي يعنى بي، سأكون حينها مقيدا في مقاضاته بتجارته في الجثث بعد رجـوعي، وتساءل: ألا تعرف جماعته الهيودية بهذا الأمر الشائن، وهل صدقوا الكلام الذي يلوكه السرياقوسي عن معرفـة أسـرار

البدن بتقطيعه وتشريحه؟، فكيف إذن عرف الأقدمون الطـب والدواء بدون تقطيع جسم الإنسان؟

من جديد تردد صدى كلمة « يلوك » في دماغه: كـان الناس يلوكون سيرة ليل والمجبراتي فقـط لتسـليتهم دفعـا لإحباطاتهم.

# الفصل الثاني

« لا يمكن أن نسيء إلى الرب إلا إذا كانـت أفعالنـا انتهاكا لحياتنا وكرامتنا نحن »

توما الإكويني

## (١)

بعد أن بات يومين في زنزانته وحيدا، يئس الترجمـان من إمكانية عرضه على القاضي التركي الذي سيفحمه بـلا شك في فصاحته باللغة التركية.. انتظروه جالسا القرفصـاء، ولحيته إلى ركبتيه، خلع طاقيته من الصوف المغربـي مـن بقايا عهد زائل، أخرج من تجويفها الأوراق الدقيقة الحجـم، فك زناره لتنثال المكاتيب التي قرأها مـن قبـل لأصـحابها واستغنوا عنها، لأنها مجرد سلامات لا تنبئ عـن عقـار أو أطيان، تركوها له ليكتب على الوجه الآخر، فك عب جلبابه، فتطايرت في الزنزانة الضيقة قراطيس مكرمشة لم يـدرس هويتها بعد، حل أزرار الصديري لتقع رزمة ورق البـردي، التصقت ببعضها بعد أن تشربت بعرقه، لتحمي صدره مـن

الإصابة بالبرد والكحة، أما جواربه فقد اختفت فيها الصكوك وترجماتها، من وجهة نظره المختلفة اختلافـا بينـا عمـن يجيدون القراءة والذين يرون أنها لأغراض أخرى غير مـا يقول بها الترجمان، فهو ينفرد بقراءات لا يقبلها النـاس ولا يرون فيها أحيانا سوى محض صفحات بيضاء.

وأن ما يقوله الترجمان مجرد هـذيان السـابح فـوق السحاب.

من حسن الحظ أنه في يوم اعتقالـه رأى « القشـاية » معلقة على مسمار خشبي في عشته، فوضعها علـى كتفـه، لتكتم صوت خشخشة الأوراق حول بدنه التي لا بد سينكشف سرها مع هبوب الرياح الشتوية، لم يلق بـالا لزمهريـر أو مطر.

فرد القشاية التي سترت جسمه لسنوات من الرأس حتى القدم، وفي تصنيف دقيق وضع راقات الورق، كـل واحـدة حسب موضعها تحت لباس الرأس للقشاية لتكون مثل وسادة لرأسه المتعب.. اندفع يقرأ أوراقه من الذاكرة.

( اشتريت القشاية بخمس وعشرين نصف فضة، هـي ثمن ما تقاضيته لقاء ترجمة صك للقنصل الفرنسـي، أكـان

الصك مبرما داخل إحدى الوكالات أو فـي ثغـر: بـولاق؟ رشيد؟ ثغر دمياط؟ لا أتذكر، المهم أن التاجر المغربي قـال لي مجاملا: آرجاز زين.

- الله يبارك فيك، أنا رجل زين!!

- تتكلم التامازيجية؟

- بضع كلمات فقط.

- أنت مغربي بربري

- أحد أجدادي من البربر.

وبنيت عشتي من « البوص » في الخلاء الواسع، البعيد عن العمار، وشيدت سورا أخفاها عن الأعين، أنـا أحـب: « الضل ولا ضالّي ».. ظل السور أفضل عندي مـن ظـل بيوت حوالي وأزواج من العيون المستطلعة.

تمنيت لو بنيت جدارا بعد جدار وأنثر الحصى بينهما ثم بعدما أصبح جدارا واحدا أجلس في ظله، يقيني الرطوبة في الحر، والزمهرير في الشتاء، أربعة جـدران مرصوصـة، بعيدا عن الخلايق: خلايق طامعة، وخلايق خانعة، لا يعيش أحدهما دون الآخر.

ألم يترجم سليمان للأبواب الشريفة فـي إسـلامبول أن جملة الرسوم لم تزد عن مائتين وعشرين ألف بارة فقط على طائفة الخردة من راقصـات ومغنيـات وغـوازٍ وسـحرة، والبهلوانات والأدباتية والعاهرات، وكذلك تجـار الحشـيش والطبالين.

الذي لم يترجمه سليمان وهو يعرفه حـق المعرفـة أن الملتزمين سرقوا من المال الحرام نحو سبعين ألف يارة.. لم يشك أحد من الطائفة لبالغ ضعفهم أو أنهم تعـودوا أن يـتم نهبهم في صمت، ألم يدفع ملتزم بحيـرة أسـماك در بنـدر دمياط ثلاثين ألف بارة، وجمعوا من الصيادين حول البحيرة خمسين ألف بارة، ولا يشتكي الصـيادون لأنهـم يجهلـون التركية التي لا يعرف القاضي العثماني لغة غيرها، ولأنهـم لا يثقون بالمترجمين الذين يتقاضون الرشـاوى حتمـا مـن الملتزم، وبات الفلاحون والصيادون لا يملكون سوى الجلباب الأزرق المهترئ.. .المهترئ !! أين برنسي، أين الدواة، آه.. نسيت طلبه مني سليمان، قال: « عندك قشاية وبرنس كفيلان بتدفئتك. فاعطني أحدهما » وأعطيته البرنس وكنت خبـأت الدواة في غطاء رأسي الموصول بـالبرنس مـن خلفـه..

وأحكمت الحياكة حول الدواة، ماذا يعني ذلك؟ يعنـي أننـي أكتب الآن بلا حبر، رأس القلم البوص قد جف. كيف أواصل الكتابة؟

كلماتي تتقاب جثثا تلبس « طاقية الإخفاء ».. جثـث!! جثث السرياقوسي والقاضي الجنك. كلاهما يهوديان والأخير أظن وبعض الظن إثم إنه يمارس التقية.

كثير النسيان أنا، ها هي الدواة التـي أخرجتهـا مـن جوربي، لا يجدر بترجمان حـق أن يمشـي دون قرطـاس ودواة.. عن السرياقوسي أكتب: تقدم أصـحاب الميخانـات والبوظ يحتجون ضد إغلاق حوانيتهم ويبررون بأن عملهم لا يفسد النظام والأخلاق العامة، بل ستتنزل على دمياط ومصر كلها صاعقة، حارقة، ماحقة إذا لم يتم توقيف السرياقوسـي الصغير وسجنه لأنه يتاجر بجثث الفراعين ويدفعها عبر بحر الروم إلى جهات غير معلومة، مذكرين القاضي أن الإنسـان خلق على أحسن صورة، ومن الحرام العبث ببدنه بعد موته.

كان سـليمان هـو الترجمـان بـين هـؤلاء النـاس والسرياقوسي الذي مثل أمام القاضي الذي أسـماه سـليمان بـ « القاضي الجنك الرومي » كاشفا للناس ما لا يعرفونـه

عن ذلك القاضي.. الغريب أن القاضي حكم بصـحة هـذه المتاجرة في جثث الفراعين لأنهم كفرة ووثنيون واستشـهد بآيات من القرآن الكريم في هذا الشأن.

يومها وقفت في السوق أعلن أن لقب هذا القاضي هـو « الجنك » ألا تعرفون ؛ وأن أباه وجده يهوديان روميان كانا يعملان بالعزف والغناء على آلة الجنك، وأنه أعلن إسـلامه في شبابه، ودرس الشريعة والفقه، ونال ثقة العثمانلية، فعينوه قاضيا، إنه يداري خلقه بالتقية: يا ناس يا هوه.

لكن الناس تفرقوا، الكل ساهم ومشغول يبحث عن لقمة عيشه فقط، اللقمة التي ربما لن يجدها غدا.

سال لعاب سليمان، وشعر بجوع قارص، رغيف واحد وكوز ماء في البرد لا يكفي.. حلم مثل أبي شـادوف فـي قصيدته: بالكشك والخبز المقمر والفول المشوي، والعدس مع شرشر بصل، وفسيخ، وزغاليل... و... وإيه رأيك يا سليمان في سردين الفيضان في شهر مسرى، والا نمـص القصـب الدمياطي « الفحل والخلفة »، أو نقف مترنحين أمام الدقاقين بعد تحميص البن، يدقوه ويطحنوه، نسكر بالريحـة، سـكر الخفة والنشاط، وننسى أعوام القحط وسردين النيل الهزيل.

ذكّره سردين النيل الهزيل بما يقوله الناس وقت الجفاف أنه لا بد أن سلطان الحبشة نفذ تهديده الذي أعلنه قبل أيـام صلاح الدين الأيوبي: يتركون النيل أعواما لحـال سـبيله، وأعواما أخرى يضعون الصخور تحجر مياهه عنا، لأنهـم غاضبون من الاتجار بالعبيد الأحباش.. وفي الجوامع يقولون إن هبوط منسوب النيل هو ابتلاء من الله أو عقاب منه على آثامنا.

كنت أرى أيام القمح والمجاعة، أرامل يمشين واهنات، ساخطات، أزعق عليهن: تمنين زلزالا، يروع الأرض، يشق كبد البحر، سأكون لكن تقدمة وقربانا وأضـحية، الزلـزال يدمر، يهلك في الحال.. الزلزال يرحم، إلا أن الزلزال لـن يقع، وستنفقون مثل المواشي، خلايق دمياط كلهم فيما عـدا: الحكام وكبار التجار والمساتير العسكر.

أسواق فارغة، حوانيت مغلقة، كلب وقطـة يتنازعـان شيئا لا يرقى لأن يكون طعاما، الشيء ذاته منذ أيام المماليك تصبغ الأم جسدها وجسد صغارها بالنيلة لمقاومة القمل فهـم لا يمتلكون ترف تغيير الثوب أو حتى غسله.. امرأة هضيمة تبيع جسدها مقابل لقمة، فتية تتأخر بلوغهم يعرضون خدماتهم

كشيالين، حمار عاطل عظامه تتقدمه والمكاري يهش الذباب عنه، أما الغوازي فمنكفئات تخاصمهن العافية، يهززن فـي حرج أعطافهن، ينثرن كثيرا من الترتر والشراشـيب علـى ثيابهن يتوسلن فألا بانسياب أفعواني لأجسادهن.

تمنى سليمان أن يرى هؤلاء الناس مرة أخـرى حـين لعلعت البلد بثغريها وقراها من جديد.. وقرر حالما يخـرج من الحبس أن يسأل عنهم.. ألم يصرخ حينها في الأسـواق أن: كل غربال جديد وله شدة، هذا الرواج كاذب لأنـه ابـن صرامة الخضوع والخوف من البدع والأفكار.. تشاءم منـه الناس وتجنبوه، وحرضوا عيـالهم علـى قذفـه بـالطوب ومطاردته هازئين ضاحكين: « العبيط أهه ».

تحرشوا بسليمان، وتركوا ذلك الصوفي الفقير والزبـد يتَطاير من فمه يفسق بامرأة على قارعة الطريق. يحسدونها على البركة التي نالتها.

ورجعت الشدة من ثاني، أيامها اعتبروا سليمان صوفيا فقيرا فيه حاجة لله.. وطلعت على المئذنة وقلـت: الكـرش عريض، لكن اللسان قصير، وإذا كانوا همه الفقرا. فما اسـم اللي مش لاقيين اللضى.

يبررون ثراءهم الفاحش بأن الله يفتح على العبد رزقـه إذا صدقت نيته وأخلص في عبادته حتى ليرتفع فوق الطبيعة ونواميسها، كيف ذلك؟ وسيدنا عمر نفسه قال إن "السـماء لا تمطر ذهبا ولا فضة".. لا تفرحوا بالشفاعات لـدى الحكـام تشفعون فيما هو حق لكم، يقولون إنهم يردون بدعائي البلايا عن البلاد.. طيب: ألم يدع اللهَ لنصرة طومان باي من قبـل، ألم تحدث بلايا الشوطة والجوع والجفاف والغلاء؟

انظروا إليهم أيام الفتن، أما لاحظتم تجنـب اخـتلاطهم بالناس، ويدعون إلى التماس الأعذار للحكام، فهم أتم نظـرا من أفراد الشعب، وبعد ذلك هـل تمـدونهم بالعطايـا كـي يسجدونكم للظالمين؟!

عن للترجمان فجأة أن ينسق القراطيس والصكوك التي ترجمها بغية تقديمها للقاضي ليدرأ عن نفسه تهمة رمي خيار الخلايق بالتهم الباطلة.. لن يتشدد له ويناصره أي من أهـل دمياط، فما عرفوه إلا غريبا، وسيضـطر لإنقـاذ نفسـه أن يبربر للقاضي، أن يتصرف كأنه مشوش الذهن، يكون جملة ينطق كل كلمة فيها بلغة مختلفة، في فتح العرب للمغرب لـم يفهموا لغة أهلها، قالوا إنهم يبربرون، إذا سوف أبربر.

قلب الترجمان ثيابه كلها وفحص القراطيس بدقة، ليس فيها ما يبحث عنه، أعمل ذاكرته، ربما خبأها في العشة التي تكرمشت كقرطاس يوم الزلزال، بدا له أن البحث عن حكاياته التي كتبها لتوه قد تريحه وتشعره بالاطمئنان.

لم يجدها.. نوبة من الرعب أرعدته، ريح صرصر تضرب في خوائه الداخلي، ونذر: سأكون أضحية أو شهيدا إذا وجدت قراطيسي وقلمي ودواتي وكلماتي.

احتضن نفسه يهدئ من روعه، ربت على كتفه، على خده، هل نام وغافله الحرس وسرقوا قراطيسه المهمة فقط.

بحثا عن الاسترخاء وضع الترجمان إصبع السبابة، على رسغ يده الأخرى، ليشعر بدنه كله بنبضات قلبه، تدق دقا رتيبا.. يهدأ انفعاله قليلا.. قليلا، ثم ينسى شرور البشر ووحدته.

كادت طبلة أذنه تخرق ( كتب سليمان عن الترجمان ) عندما سمع المنادي الذي لا يستعمل البوق: يا خلايق دمياط ألزموا النسوان في دورهن، وإذا خرجت امرأة سيعاقب وليها، وإذا لم يكن لها ولي ستضرب وتُجرس في شوارع دمياط المحروسة.

يا أهالي دمياط، تعرفون أن النساء حبائل الشيطان، فمن ظهرت منهن بالقميص المملوكي من جديد، رجمت، وعلـى النساء حين يقفن على أسطح البيوت مداراة أجسادهن ما عدا الكفين.

يا خلايق دمياط، لما ظهر وبـاء القمـيص المملـوكي القصير، أجمع المشايخ على أن الله، سـتنزل لعناتُـه علـى مصر أقرب مما نتصور، وفقدت مصر الكثير مـن صـبية ورجال الزعر والعياق لدى الفتح العثماني الميمون: « رجال مخابيل ».. وضربت مصر بالوباء والجوع.

يا خلايق دمياط، الزموا النساء بيوتهن.

حادث الترجمان نفسه / سليمان بصوت عال في الشارع الأعظم، سمعه العرب والعجم في الوكالات التجارية: ( يـا سليمان، لم تعد نساء مصر عجب لكن ما يزال رجالها عبيد من غلب ).

وصدق قول الترجمان، هكذا كتب سليمان، فلقد أطـاع الرجال الأمر وسكنت النساء في البيوت، وإذا خـرجن فـي ظروف قاهرة بعد مدة طويلة من ذلك النداء التزمن الحشمة والبرقع.. بدأت ليل الكحكية تخرج بملابـس الغلمـان، لـم

يتعرض لها أحد، لم يشوا بها للعسكر، لأنهم يعرفـون أنهـا تجري على رزق أيتام.

عندما ترهل الغربال، ظهرت النسـوان علـى أسـطح البيوت بثياب سابغة من قمة الرأس حتى أسفل القدم، كانـت تلك الفتاة الصغيرة الفائرة أخت ليل، تقف علـى السـطح، ترفع ذراعيها لأعلى كي يلتقط الحمام الحب من يدها، فيظهر جسدها كله عاريا، الثوب مفتوح من الجانبين تماما من تحت الإبط وإلى قدميها (*).

ويكتب هذه الكحكية قرصت أخويهـا التـوءمين فـي أذنيهما، لأنهما هربا منها عاريين إلى الحـارة، ورأينـي،

---

(*) على هامش المخطوط ، علقت إحدى حفيدات سـليمان الترجمـان وهي قابعة في السندرة / السقيفة تقرأ المحظور لدينا هذه الأيـام : « كانت سنانية أخت ليل الكحكية أول من تقوم بعـرض أزيـاء / ديفيليه فوق سطح دارهم في وقت لم تكن مصر قد عرفـت فيـه الملابس الداخلية إلا بعد مائتي عام من ذاك الوقت مع الغزو !! / الفتح !! الفرنساوي النابليوني لمصر » .

وصارت الحفيدة تضع علامات التنقيط والاستفهام وتعدل الألفـاظ التي اندثرت لتتلاءم ودلالات اللغة الحالية .

فصارا يصوبان علي الحصاة إثر الحصاة، صائحين: العبيط أهه.

ضربتهما ليل وجذبتهما وهما يبكيان لتكمل الاستحمام الذي يهربان منه، وكان الماء يغلي فوق الكانون وجاملتني معتذرة: حقك علي يا عم.. دول عيال صغيرين.

كبر التوءمان: عمل غياث الدين كصبي صباغ وهي مهنة والده بعد تسحبه / فراره من تراكم الضرائب والديون في القرية، أما الآخر الشقي ليث الدين فكان أرزقيا / بمهن صغيرة كثيرة ولا يستقر بإحداها.

سألت ليل بعدما أعطتني لفافة من فطائرها اللذيذة: ألا يزال ذلك المتهور، شديد الكبرياء أرزقيا، أما كان من الأفضل أن تبيعه إلى أحد المماليك؟، كانوا سيرحبون به لأنه أشقر مثلهم.

ردت ليل: يا عم، كيف أبيعه، إنه من لحمي.. وقد استقر الآن في خدمة بيت مملوك مقابل عشرين بارة مع طلعة كل شهر عربي.

- كم شهرا قبض راتبه؟

- واحد فقط، ومنذ ستة أشهر.

- له أنفة واندفاع، وعلى حلاوة لسانه فإنه لـن يصـبر على المماطلة والقسوة، وقد لا ينصفه مجلس الشـرع الشريف إذا اشتكى.

كبر التوءمان: كانا مفتونين بتضليل الناس عمن يكـون منهما غياث أو ليث، في مواجهتهما يعرف المرء، ملامحهما متطابقة نعم، لكن الأول أسمر اللون والثاني أشـقر بعيـون زرقاء شهلاء، من ظهريهما يصعب تمييـز أحـدهما عـن الآخر، فهما دائما يلبسان ثوبين متشابهين.

قلت لسليمان: اصبر وستعرف من غياث ومن ليث.

يمشي أحدهما على أطراف أصابعه كأنـه يميـل إلـى الأمام مما يعطيه شكل شخص يعتذر أو يـدافع عـن نفسـه ولون هالته – كما قال عنه أهل الشفافية الروحانيين دونمـا مزاعم كبيرة – أصفر شاحب، والآخر يمشي علـى كعبـي قدميه، قامته عمودية ورأسه مرفوع، ولون هالتـه أصـفر كالقش.. بالطبع عرفتم: الأول هو غياث الخجـول، الطيـع، والآخر هو ليث الذي قضى نصف حياته في أحلام اليقظـة الفخيمة.

تنبه الترجمان إلى توتره العصبي وأن قبضة يده ترشح توترا وهو يمسك القلم كأنما يجز عليـه بأسـنانه وتشـبث أصابع يده الأخرى بالقرطاس، عجب إذ يجدر به أن يشـعر بنشوة ( حزر – فزر ) التي يشاغب بها قارئة المفتـرض.. وقرر بعزم على معرفة سبب عصبيته، أجال النظر داخـل نفسه، ثم أعاد الكرة على الزنزانة، ذهب اللون الشفقي الذي أسعده منذ نحو الساعة، كان يكتب فـي الظـلام.. الظـلام. ويا ليته دام!!

كان الظلام إيذانا بنهايات أوقاته الوردية في السجن.

سرا، ومغبة لفت نظر المحتشدين حول السجن، أخرجوه من زنزانته المريحة، نقلوه معصوب العينين إلى بيت كـانوا قد أبقوا على مشربياته ومظهره الخارجي في الوقت الـذي سدوا النوافذ بالطوب من الداخل كيلا لا يثير هـذا البيـت / السجن ريبة العامة.

## (٢)

لما دخلت الشمس برج الأسد في شهر مسـرى حيـث وعود الفيضان الخصب.. عاد ليث الدين على أول مركـب شيني رست بثغر دمياط ذلك اليوم كانت الزيارة الأولى لـه لبلدته منذ تعاقد ليعمل بقلفطة السفن في أزميـر.. تحسـس جيبه، ها هو ينجز جزءا من حلمه بامتلاك مركـب تجـوب الموانئ في البحر المالح، ويؤجرهـا سـنويا بأربعـة آلاف نصف فضة.. رمى قطع الذهب في حجر أخته ليل، دهشت: أيعود العمل في صناعة السفن السلطانية بهذا المبلغ الكبير!!

ما صدرت من مدمن أحلام اليقظة ردود فعل لما أبدت أخته اندهاشها، ولولا طبعه الغضوب، سريع الانتقام ما حاز هذا المال.. في عمله كأرزقي ضايقه كثيرا أنه يكـد النهـار بطوله، وما يكسبه لا يطعم طفلا، ترك خدمة المملوك بعـد تسويفه في دفع راتبه ورفضه أن يقـدم مظلمـة للقاضـي ويضيع وقته.. مشى في شوارع المدينة يبيع السمك المقلـي وضحك له الحظ، لكن العسكر العثمانلية باغتوا السوق يومـا

واستولوا. من بين ما سرقوه – على المقطف المليء بالسمك المقلي الساخن.

تعجب عندما ذاع بين الناس أن الزعر هم الذين أغاروا على السوق واستولوا على مال العاطـل والباطـل، وقـال آخرون إن العياق استغلوا تنفيذ العسـكر لأحكـام قضـائية ونهبوا مال تجار الوكالات والصياغ وصـيارفة العمـلات، صاح مستفزا: عيوني التي سـيأكلها الـدود، رأت العسـكر يقومون بذلك ويسحبون الفلاحين الذي يبيعون سلعهم الهزيلة للعمل سخرة، كأنما القرى خلت من الفلاحين.

وهل ينسى العثمانيون أن الزعر والعياق هـم الرجـال الذين وقفوا إلى جانب طومان باي ضدهم. على غير عادتـه تحمل ليث نظرات الشك في عيون الناس بأنه واحد منهم.. إذ لم تمر ساعة حتى انتشر المنادون في الأحيـاء يهيجـون الناس ضدهم ويطالبونهم بإفشاء أية معلومات عنهم وبخاصة أماكن تجمعهم.

من العسير بالطبع أن ينتقم من العسكر، اتجـه لـتعلم « القلفطة » في معمل صناعة السفن، طابت له الدنيا حيـث تلقى أصول حرفته على أيدي معلمين كبار، قدروا موهبتـه

ونفاذ صبره الذي يدفعه لإنجاز عمله بـوتيرة أسـرع مـن رفاقه.

ذات يوم بشره أحدهم أنه مرشح للذهاب إلـى أزميـر ليمارس عمله في البحرية السلطانية.. هناك قسم وقته بـين العمل وحلم يقظته بأن يمتلك مركبا، حتـى أهانـه الـريس الرومي ذات مرة ونعته محتقرا بـ « الفلاح » ولأن ليث لا يعرف من التركية كلمات تسعفه، رد بيديه وملامـح وجهـه وكل أعضاء جسمه: إحنا الفلاحين أهل البلد وأصحابها، لحم أكتافكم من خيرنا: خير زرعنا وصناعتنا ومن ضرائبكم التي أفقرتنا.

عشرون جلدة لن ينساها ليث طوال حياته حتى وهو في أحد أجنحة القصر السلطاني يخطب « أبواز خاتون » وهـي إحدى جواري السلطان وصلت إلى سن التقاعد المحدد مـن قبيل القصر بتسع عشرة سنة.

في ملابسه كثيرة الألوان، بدا منتفخًا مقلدا من هم أرقى منه، في أعين المارة من المساتير وألاضيش حكام وموظفي البلد، لم يقرأ في عيونهم سوى ما يريده: أن هذا الأرزقـي. سابقا. أكثر ثراء منا.

مرت بجواره امرأتان تنضحان فتنة ودعوة. قبقاب عال وخلاخيل ذهبية في أقدامهما تصدر أصواتا مدغدغة، سـار خلفهما ليث الدين، وسأل نفسه هل نسوة البلد زدن جمـالا أم أنه أصبح أكثر إعجابا بأجساد النساء بعد ثلاث سنوات جاب فيها بحر الروم من شرقه حتى مغربه. توترت المرأتان من تعقب ليث لهما مدة طويلة دونما حيـاء، شـوحت أحـداهما بيدها: خليك.

فهم أنهما راضيتان به، وستقودانه إلـى مكـان ملائـم للمتعة، تعب من المشي وراءها ولكنه تجلد: الأمر يسـتحق، وكعادته غضب فجأة: بقالي مدة ماشي وراكو، فـين البيـت اللي ها نقعد فيه؟

ردت الصغرى وهي أشـد غضـبا: قلنـا « خليـك » وأشارت بيدها: أن ابتعد.

برطمت: هو تشوبه نخرج تاني في البلد دي ولا إيه؟!

تلجلج بصوت خافت: خليك يعني: ابعد، تشويه يعنـي: توبة، ابتسمت الصغرى ازدراء لفهمه البطيء: الآن عرفـت أننا يهوديتان.

استدار خائبا خجلا وتساءل: أنّي لي أن أعرف ولبسهما كما المسلمات.

عاد لهما وأزجى نظـرة إعجـاب ولهـى للصـغرى المتحدية.

جذبتها الكبرى: هيا، بيسي

بيسي بنت حاييم السرياقوسي، الفرع الفقير مـن هـذه العائلة أندلسية الأصل، وصلت عائلة "حاييم" قبل سنوات قليلة إلى دمياط بدأت بعد رحلة طويلة مدفوعـة بنجـاح أخيـه «السرياقوسي» الذي يتولى جمرك دمياط، بدأت رحلتهم من المغرب مرورا بالسودان ثم مصر.. خلال هذه الرحلة أتقنت بيسي العديد من الرقصات.

لم تستطع بيسي أن تحدد هوية ليث، كانت لهجته خليطا من: اللكنة الدمياطية والشامية والمغربية مع نغمة مـا للغـة اليونانية.. في الأخير استراحت إلى اعتباره روميا لبيـاض لونه وزرقة عينيه.

ملامح وجه بيسي الغاضب أعاد إليه ذكرى وجه امرأة أخرى غاضبة باكية، ربما كانت في أحد الثغـور، أو مـن ركاب السفن التي...؟ المهم، هيئ له أيضا أنه حكى لغيـاث

عن رعبه من المرأة الباكية، قال لأخيـه: إن امـرأة تبكـي تدعوني أن أصب عليها النفط وأحرقها.

إن امرأة تبكي تثير غضبي، بكاؤها بالنسـبة لـي فـخ صياد، لا أقدر على فك شباكه، أو جب لا يمكننـي النجـاة بالصعود من هاويته.

إن امرأة تبكي تجعلني في حالة دفاع مرير عن النفس.

إنها تدعوني لإيذائها.

ساعتئذ ضحك غياث الـدين: إن امـرأة تبكـي تثيـر شهوتي، أربت عليها، أمسد ظهرها، عنقها، وجنتيها، شفتيها، ألجها وملمس الدمع الندي تحت أناملي، حتى أسكت شهقاتها أو أجفف سيل دموعها، أصرعها نشوة، فتبتسـم بحبـور أو ترتجف ممتنة.

- غيرتك الغربة.. قالتها ليل وهي تتشاغل بطي الملابس التي جفت.

- علمتك الغربة أن تطبخ لنفسك.

- الأكلات الخاصة.

- أكلة خاصة!! ما هذا: مبشور جزر، فصوص برتقـال بلدي، شطة سوداني.. لِم كل هذا؟

- إنها وصفة البحارة.

- ماشي؟ فين؟

- البوظة

وجمت ليل وفهمت تقريبا ما هو مقدم عليه، تذكرت كم كانت شرسة وهي تحمي التوءمين مـن عبـث صـباهما، منعتهما أن يذهبا لأذكار الدراويش والفقراء، أشـيع أن كـل واحد منهم يحتفظ بغلام خلفه، ليحتضن ظهره بشـدة إذا مـا وصل الذروة وهو يغرق إنشادا.

نادت عليه: الأهم من المركب يا ليـث أن تتـزوج... سمعتني!!

منتشيا بكونه يدب على الأرض الصلبة بعـدما أتخمـه مرأى البحر والسير في مياهـه، لـو قابـل أقرانـه الآن، لاستقبلهم مفتوح الذراعين، يقطر أسفا على خشـونته معهـم ومشاكساته في البحر.. تخنقه لحظة الغروب في البحر تدفعه لمعصية لن تتم، الغروب في هذه الحـارة ملـيء بـالوعود الممكنة التحقق، ربما كانت على مرمى حجر.

وعلى مرمى حجر كان الترجمـان قابعـا يتأمـل ذاك الغروب الشجي وبيده رقائق قديمة.

- هيه يا ترجمان، لسه بتلم الأوراق والقراطيس.. ليه؟

- أنا بجمع الورق لأنكم تدمنون عادة النسيان.

- ما أحلى النسيان، بلون الغروب، لون الحزن النبيل.

- غلباوي مثل طلاب الأزهر عندما يقرضون...

دمعت عينا ليث من القهقهة: يقرضون!! طيب، طيـب، لِم تضع الورق تحت طاقيتك، وتبطن بها عمامتك، وتـدرع بها صدرك؟!!

## (٣)

على صفحة ماء ساكن بلا زبـد، ضـربت مجـاديف سفينتنا على غير هدى في الظلام، السمع الرهيف للمجـدفين أيقظهم من سبات الاطمئنان، أبلغوا الربـان.. أمـر بـدوره بإيقاظ الأعور الذي صعد إلى سطح السفينة رغم أن له عينا واحدة، كان ذا قدرة لا توصف على الإبصار في الظلام، إذ ينظر إلى الشيء من جانب عينه مما يعطيه صورة أوضـح من توجيه النظر المباشر للشيء.

نظر الأعور في اتجاه الظلمة البعيـد، وحـرك عينـه المبصرة الوحيدة ذات اليمين وذات اليسار وإلى أعلى وإلـى أسفل، ثم توجه إلى القائد.

- ماذا وجدت؟

- زورق صغير يتسلل باتجاهنا وقد لفت على مجاديفه أربطة كاتمة لصوتها وهي تلاطم المياه.

- ألم تر شيئا آخر على البعد؟

- لا، ربما سفينة للقراصنة أو الأسطول العثماني ينتظر معلومات من الزورق.

تشاءم الربان وأمر بنقل الركاب الناجين والمصابين إلى مكان واحد حيث يمكن علاجهم، وبعيدا عن أصوات المناوشات المحتملة.. أمر بتوزيع التماثيل الخشبية للجنود والمتناثرة على سطح السفينة لخداع القراصنة، كما أمرهم بنشر شباك صيد مهترئة وخشب مشرشر الحواف فوق صهاريج الزيت.

- لكن يا سيدي لون الصهاريج هو نفس لون السفينة.

- وبالرغم من ذلك فهي تعطي ظلا مقوسا في ضوء النهار، مما يرشد القراصنة لنقطة ضعف.

في سفينتنا، يكفي أن يلقوا علينا شعلة نفط ونضيع جميعا، أما بعثرة الشباك المهترئة والخشب المشرشر على سطح سفينتنا، فمن شأنهما تشتيت الظل الهلالي المقوس

لصهاريج الزيت، ومن ثـم إخفـاؤه عـن أعـين الأعـداء والمغيرين.

في الصباح، صاح البحار من أعلى الصاري أن شـيئا أزرق يتحرك في البحر: « بلغوا الربان أن سـفينة زرقـاء هناك ».

- ما مقدار بعد السفينة؟

- بعيدة جدا.

- إذن هي ليست زرقاء، تريث حتى تقترب.

- أرى أنها ترفع بنديرة هلال السلطنة.

- رأيت راية السلطنة!! فما لون السفينة؟

- إنها بلون الماء تماما عجبا تبدو سفينة قراصنة وترفع راية الإسلام!!

ربما كانوا من القراصنة التابعين للباب العالي.

أمر الربان المجدفين أن يبذلوا قصارى طاقتهم للاقتراب من السفينة، لعلها تمدهم ببعض الماء والأدوية.

ما إن اقتربت السفينتان حتى أطلق القراصـنة السـهام على تماثيل الجنود، لوح بحارة سفينتنا بالراية العثمانية، فزاد الهجوم ضراوة، وبدا القراصنة يمدون الألواح لارتياد سطح

السفينة، مع قذف كثيف بالحجارة، لكن السقف فوق المجدفين حماهم من تلك الأسلحة الحربية وانحرفوا بالسـفينة سـريعا للابتعاد عن القراصنة، كانت البنديرة تمويها.

اكتشف قرصان بأعلى صاري سفينته المغيرة أن ظـل الجنود لا يتحرك، وأن بعض السهام رشقت في عـدد مـن الجنود ورغم ذلك ظلوا واقفين، نبه زملاءه إلى أن الفريسـة عزلاء تقريبا من الأسلحة، ابتلع كلامه قبل أن يكملـه حـين رأى رجالا يجرون المدفع ليواجه القراصنة، صاح صـيحة النذير، قذف القراصنة كميةً لا بأس بها من الصابون السائل على سطح سفينتنا، انزلق البعض وفقـد آخـرون تـوازنهم تشبثوا بالمدفع الذي هوى بهم إلى جانب المجدفين، تكسـرت بسبب الهز العنيف أجزاء داخلية من هيكل السفينة.

فكك الضحك أوصال رجال السفينة، المقاتلين والمجدفين والبحارة، ابتعلت رياح الصياح صوت الربـان وأوامـره.. فقدت السفينة توازنها بغتة واقتربت أكثر من القراصنة الذين لوحوا بشعله النفط والسهام الموجهة إلى صهاريج الزيـت، نادوا باللغة الأسبانية: استسلموا وإلا احترقتم.

زاد الرجال من سرعة التجديف كيلا تكون السفينة في مرمى القراصنة، غير أن القذائف انطلقت بسرعة رهيبة لدرجة أن القراصنة أنفسهم لم يروها تمر في الهواء، مما دمر ذيل السفينة.

وجه قرصان قنديله إلى يمين الخن ليتأكد من قيمة الأقمشة والقباطي والسجاجيد ويثمنها، ويفحص إذا كانت النقوش على التوابيت الفرعونية دون مومياواتها قد تجد مشتريا لها في أسواق أوربة أم لا، لكنه وجدها عديمة الفائدة لأن خشب التوابيت قد تشبع بالمياه والرطوبة بعد أن لطمتها أمواج النوة، حمل القراصنة الآخرون مشاعل من النفط وهددوا بها الركاب حتى استخرجوا الذهب والأموال والبضائع الثمينة كلها من السفينة.

كان غياث والخنان والسرياقوسي يرعون المرضى والمصابين، يهدئون من روعهم، رغم معرفتهم أن السفينة لم تدمرها نيران مدفعية القراصنة، فسوف تغرق، تغرق بهم وحدهم حيث سيساق الأصحاء إلى سفينة القراصنة كعبيد، ما بقي سوى الدعاء، أن يبتهل كل إلى ربه، علت أصوات غياث والخنان والسرياقوسي بالابتهالات والتراتيل، سرعان

ما رافقتهم أصوات المرضى في حماس، تضرعت الأصوات بترنيماتها للرب ( لم يأت ذكر النجاة في الابتهالات )، ازداد ارتفاع صوت الجماعة، زمجرت مدفعية القراصنة، تبعثرت أشلاء السفينة، وقبع في قاع الأذن رجع صدى التراتيل فـي جلال الظهيرة.

ظل غياث يسمع الترانيم التي استغرق خفوتهـا عـدة ساعات، ويغفو معها سع غياث لمصارعة الأمواج.

**ترافق صوت الترجمان مع أصداء التراتيل، شأنه شأن معلم.**

يقول: يا ولدي الموج أنواع ثلاثة مثل مواقـف الحيـاة الصعبة، موجة عالية، عالية كجبل تظنها غادرة، تتراجع إلى الوراء فتضربك بعنف، فقـط لـو وقفـت مكانـك، فإنهـا ستتجاوزك، ويتلاشى هياجها وتصبح ساجية حال مرورهـا بك.

حاول غياث الوقوف في الماء شعر كأن دوامة تسـحبه إلى أسفل، ففزع وجدف بطاقة الهلوع.

يا ولدي، ثمة موجة عالية، إذا تراجعت للوراء أكلتـك ولو قذفت بنفسك داخلها، وتركت نفسك للتيار ستنجو حتمـا. اقتحمها واسبح مع التيار، ليس ضده.

فعل غياث ما أوصاه به الترجمان فوجد نفسـه مبتعـدا كثيرا عن سفينة القراصنة والتي تراءت كمنقذ وحيد، ودونها حتف محتوم.

يا ولدي، الموجة الأخيرة صاخبة وعنيفة كالقدر الـذي لا مفر منه، فارم صيدك من السمك وأدوات صيدك، ركـز اهتمامك على الحفاظ بيديك على دماغك ورقبتـك، ستفصـد الموجة العنيفة دمك، ستصدمك بالصخرة ويمتلـئ جسـمك بالجروح والرضوض، لكنها لو تعرف، أقل الخسائر.

يا ولدي لا ترفث في البحر، الرفث إنهاك للطاقة وإهدار لها. وثمن فعل هذا جد باهظ.

تراخت عضلات غيـاث استسـلم لضـربات المـوج والصخور القاسية، لم يفق إلا وهـو علـى مـتن سـفينة القراصنة التي انتشلته.

قال لهم غياث ـ عبر ترجمان – إنه ليس من حقهم أن يبيعوه كعبد بعدما استولوا على أمواله.

استهزأ قرصان: لماذا؟ هل تعدنا بفدية كبيرة، محملقـا في ملابسه التي لا تنم عن ثراء.

- إنه ميثاق شرف البحارة الذي يقضي بأن يدفع أخـي ليث الدين فدية أو يقايضكم.

- نحن قراصنة ولسنا بحارة.

- بإمكان زوج أختي أن يفديني

- من هو؟

- إنه المهتدي « أنطونيو باباس » مصمم السفن.

- آه، تقصد المرتد « أنطونيو ألجريكـو » حقيقـة أنـه أصبح مصمما للسفن بعد ما تاب عن القرصنة، لكنـي لا أظنه يفديك، فهو يعبد الذهب أكثر من أمـه وأبيـه وزوجه وبنيه، لعلمك إن هذا المرتد هو الـذي صـمم وبنى سفينتنا هذه لتكون أرشق وأكثـر قـدرة علـى المباغتة، أما أخوك الريس ليـث فهـو يعمـل مـع القراصنة البربر حينا والقراصنة الصليبيين حينا آخر.

- ليث.. يفعل ذلك!! لا أصدقكم، وهل المهتدي ألجريكو لا يزال على قيد الحياة؟

- لا نعرف، لكن إذا رأيت في البحر تصـميما جديـدا لسفن القراصنة، فاعرف أنه حي.

- سأل بوهن: طيب، لِم تلقب أخي بالريس؟

- لأنه قرصان محترف ومغامراته وصفاقاته لا تبارى.

لم تطاوعه ساقاه على الوقوف، قبع في مكانه مـذهولا يعجب لأخيه ليث الذي ترك العمل في صناعة سفن الأسطول العثماني لمجرد أنهم نعتوه في نبرة تحقير بـ « الفـلاح »، وجعل الباب العالي يتعرض لحرج بالغ من جراء انتقام ليث، الآن لم يعد يهمه كونه فلاحا مصريا أو روميـا، أو حتـى عربيا أو إفرنجيا!!.. تنبه غياث لحاله فهذه المرة الأولى التي يكاد يصدق فيها ما قيل في حق أخيه، ودأبه هـو: تلطيـف الأحداث التي لا تروق لأخلاقه.

( لا، لا.. ليست من شيم ليث توءمي وابن أمي وأبويـا أن يخطئ بهذه الفداحة ).

كان « ليثنا » ضفيرة نحيلة من الهوس واللا مبالاة، كما قالت له عرافة غجرية إبان صباه إن طريقته وسـماته تلـك ستورثه الغنى وتصعد به إلى الأعـالي، ونصـبت إصـبع التحذير أمام عينيه لتبلغه بأن النجـوم تـومئ إلـى حياتـه المستقبلية لكنها لا تقررها، ودهش ليث: لم يكن يحتكم علـى سحتوت واحد يشتري به لحسة عسل أسود.

ارتفع صوت غياث يائسا: طيب ماذا عن ميثاق شـرف القراصنة؟

شرد القرصان بذهنه بحثا عن إجابة.

قبل أن يبرأ جسد ليث الدين من الجلدات العشرين، هجم قراصنة الإفرنج الذين كانت سفنهم تتهادى بالقرب من ميناء أزمير واستولوا على خيرات السفن الراسية هنـاك قبـل أن ينتبه خفر الميناء، واضطر الباب العالي لـدفع تعويضـات لدول تنتمي إليها السفن الراسية، بعدها يختفي ليث من الميناء ولن يعود في انتقام مماثل.

لم يستبشر غياث الدين خيرا بعد أن عاوده ذلك الحلـم في الليلة الأولى التي بات فيها في سفينة القراصنة، بترتيـب الأحداث، المناظر نفسها واللهفة ذاتها: « رأى نفسـه يطفـو على سطح البحر وحيدا، والطريـق إلـى رودس لا يـزال طويلا، طويلا، هل سيقطع المسافة سباحة في هـذا الشـتاء القارس، يرتجف.. ها هو الآن في رودس يبحث عن نـور الدين، النار تلتهم الجزيرة، ما إن تقع عيناه على مبنى حتـى تأكله النيران، يترك الحي المحترق مخلفـا وراءه أسـواره وبوابته وقد ضربتهما الصواعق، يتجه إلى جبال قريبة، إنـه

الطريق إلى بيوت تختبئ وسط تدرجات الجبل، التي لم تسلم أيضا من الاشتعال.

ورأى دارا مقببة السقف باقية على حالها، يقـف ولـد، أشاح غياث بنظره إلى جهة أخرى، ثم صـرخ: كيـف لـم أعرفه، إنه نور الدين.

عاد ولم يجد الدار ولا الولد.

هيئ لغياث أن العالم كله كابي المزاج مثلـه، غيـر أن نشاط القراصنة والهرج والمرج بالسفينة جعله يسـلم بـأن للعالم حقيقتين، إحداهما داخل المرء والأخرى خارجه، تذكر أن يسلم أمره لله، وأن يسلي نفسه كما علمته ليل.

في صغره حينما تتركه وحيدا بالبيت وتذهب لأشغالها، تصحب معها توءمه لأنه أهوج ويحتاج لمن يضبط شـقاوته وحركته الخرقاء، أما سنانية فتتركها لدى الجيران.

- أين قابلت أشباه القراصنة يا غياث؟

تريحه تأملاته المرحة: إنهم هم هؤلاء الزعر والعيـاق الذين يزعمون مثل بعض أبناء عمومتهم من القراصـنة أن شروط الانضمام للطائفة لا بد أن تتضمن أن يأكل النفر منهم قلب أسد لينال شجاعته ونبله، وكبد الثعلب ليكـون محتـالا

ماكرا خفيف الظل، وقرون وعل لقوة الباه، والأفيون لإخماد الشهوة وقت غاراتهم، والزنجبيل لـ... و...

ولأن شروط هذه الطائفة أو تلك تكاد تكون مسـتحيلة، يستحلفهم شيخ الطائفة بالله أن يزمعوا، ويصدقوا النيـة فـي الحصول على مسوغات الانضمام للطائفة أثناء مدة خدمتهم.

## (٤)

سألت معاتبة: أقصدت حقا إهانتي؟

قرأت تعاطفا صادقا في نظرته، قال: يا خبـر أبـيض، وهل أجرؤ، إنما هي طريقتنا لتحويل انتباه المريض عن آلام التجبير القاسية.. ما أخبار الألم الآن؟

- لا زلت أتناول الأفيون لأنام.
- بإمكانك النوم الآن دون الأفيون.. عليك التوقف عنـه فورا.
- كيف.. ولا تزال ساقي تؤلمني حتى بعـد أن أزلـت الجبيرة؟
- سأجرب لبخة أخرى من نواة النبق بعـد أن فرمتهـا وطحنتها.

- ألا تحس بي، لا زلت أتألم وأنت تجبـر سـاقي مـن جديد!!

- سوف أعود بعد أسبوع، خلاله ستدربين نفسك علـى النوم دون الأفيون.

لن تتوقف ليل عن تعاطي الأفيون وقد سبح بهـا إلـى مناطق النشوة الكسيحة، تمرغت في خوائها الشاحب لتبـدلها بمسرة غامضة، حتى غضبها من شيخ الطائفة استحال إلـى حياد زهرة السبات، كلما توغلت في نشـوتها التـي كانـت مجهولة، استطعمت استكشافا جديدا ومسرة مجهولة، ما عاد يهمها الطعام فهي في ذروة الشبع، لا تسأل عما يحدث خارج حجرتها، ضجرت من العالم الخارجي التي كانت من نفسـها به محتمية، الآن هي أنيسة « ليل » ولدت من جديد.

لن تمر هذه الصحوة دون عذابات.

انتشرت البثور على وجهها، وصدرها، وروحها.

بطيئة، شهوة ليل كما الفحم الحجـري، اشـتعاله كمـا انطفائه و"ليل" فحم بطيء الانطفاء إذا تأجج نارا.. سـلحفاة مهيبة قبل النار وبعدها.

انتعش ظمؤها القديم إلى أن تكون غيـر مرئيـة لكـن بحضور رجل يحتويها، وستقايض كل شيء بظمئها.

قبل أن تعرف المجبراتي كانت رغبتها بأن تكون غيـر مرئية تومض في قلبها من آن لآخر، مـا تحلـم بـه كـان مستحيلا لأنها ألزمت نفسـها بتنشـئة أخوتهـا أولا. إلا أن اهتمام الناس وتساؤلاتهم حول امرأة تعمل وتخالط الرجـال في السوق، أثقل روحها الحساسة وبالرغم مـن أن تحـديقا سافرا ووقحا حاصرها حين ارتدت ملابس الغلمان وخرجت لتكسب لقمة عيشها أيام حظر خروج الحريم إلى الشـوارع، فإن انجذاب الرجال لمرآها ومغازلتها لم يؤثر بها، لأنها لـم تكن سوى شخصية أخرى متقمصة غلاما، تتوارى خلفه ليل بخفرها وعشقها المهول لأن تكون « عدما، عـدما »... وإن حدست ليل وأدركت جيدا معنى « عدم »، فلن تعرف التعبير والإفصاح عنه مطلقا.

وكم كان خيال ليل مفصحا ورحيما، يعوضها، فتشـرد فيما شغفت به ولها أن تكون غير مرئية كمخلوق خرافي لـم تتحدث عنه الحكايات، ما رغبت ليل أبدا في أن تصبح مثـل أمنا الغولة أو الجنية الطيبة اللتين تظهران وتختفيـان متـى

أرادتنا، إن أتيح لها الاختيار فسوف تكـون ذلـك المخلـوق الخرافي المحايد، فقط يراقب ويشاهد، لا يلحظه النـاس ولا يمنحونه اهتماما، لأنه تقريبا غير موجود ودائما غير مرئي.

هل تغيرت بمعرفتها المجبراتي؟

قالت لصاحبة غجرية من النّور استقرت عائلتها علـى أطراف دمياط منذ أشهر: أتصدقين، عيناه بنيتـان، وكـذلك شعر ذقنه، أما شعر رأسه فأسـود متمـاوج عنـدما يخلـع عمامته، اشتعل رغبة في أن أمشط شعره بأنـاملي، عنـدما ترينه، أؤكد لك أن قامتك لن تظل مفرودة لثـوان، سـيلفك دوار خفيف، ويفجؤك تنميل بالوركين، ستكونين بحاجة إلـى أن يسندك هو، حتى لا يركد الدم النشوان في عروقك.

للأسف هو لم يرني إلا والطحين يغطي وجهي وجلبابي وأنا أخبز لزوجته... آه، نسيت أن أحكي لك أنه غازلني وأنا بالسوق مع الجارية، وعن تلطفه معي ولهفته، يقول سـأمر عليك بعد أسبوع، ويأتي في اليوم التالي، لـم يتباطـأ فـي رعايتي ويتحدث معي كثيرا.

أصبح الاثنان يقبلان الأرض كيلا يبتعدا عن بعضـهما بعضا.. إن لم يأت إليها تذهب إليه في محله، ما تراءى لهـا

بالأفيون كحلم بنشوة كسيحة خبرته الآن وعرفته، تجلس إليه الآن وقد طوت ساقها السليمة تحت فخذها مائلة برأسها إليه.

أحبته لأنه أغضبها وأهانها، تلهـف عليهـا ورعاهـا، أضحكها وأبكاها.

قالت له: تزوجني.

- تلك أمنيتي، لكن ما باليد حيلة، إنها زوجتي وعائلتهـا القوية كل أموالي يقومون هم بتشغيلها وتتـولى هـي الإشراف على هذا الأمر مع إخوتهـا، إن تزوجتـك ستأخذ أملاكي المسجلة باسمها، وستأخذ الأولاد إلـى رجل آخر يقوم بتربيتهم.

- كيف؟

- أهلها أقوياء سيضطرونني إلى تطليقها.

حاولت إقناعه، كاتمة غضبها بتحاشي التقاء عيونهما مع ذلك الرجل المخاص لزوجته بنصـفه الأسـفل فقـط. هـذا الوصف يعشش في ذهنها كلما فكرت به بعد شهور. وهـي تقاوم رغبة موجعة تواتيها، تشعر أنها ستموت إن لم تـذهب إليه، إن لم تقبله خلف أذنه وفي رقبته، وتلعق باطن كفه.

كان قلب ليل غير مسرج، ضاريا في انطلاقه.

قررت أن تبتعد عنه، لم تكن تعرف أنه بقدر تطـرف قرارها في أمر يتعلق بالقلب، فإن سلوكها يتجه إلى النقيض تماما، لم تستطع ليل الابتعاد عنـه، فاسـتدعت صـاحبتها الغجرية، وأبلغتها رغبتها أن تنال المجبراتي.

سألتها الغجرية: وعذريتك؟

- أنا لا أعرف لمن أصونها حتى الآن.. ولماذا؟

في منتصف ليلة الجمعة، بـدأت الغجريـة طقوسـها السحرية لاستدعاء، المجبراتي، كان بحوزتها كلمة ( بدوح ) مكتوبة مع طلسم خاص ملأتها « لبان دكر » وعندما ألقتها في النار طلبت من ليل أن تذكر اسم من تريده فمـا إن يـتم حرق الورقة إلا ويحضر المطلوب تائها لا يدري أين هـو.. كانت ليل قد أعدت وليمة من ثلاث حمامات سـوداء متبلـة بستين نوع من التوابل الحبشية إلى جانب عرق البلح.

جاء المجبراتي فصرعت ليل نوبة من الضحك، فجرت الدموع من عينيها لم تدر هل تمسح الدمع أم تمسك بطنهـا، منظره غير متوقع بالمرة: مهوش الشعر، وذقنـه كأشـواك صبار وغير مشذبة حجمه الكبير الذي اعتبرته ميـزة فيـه أرعبها، ظهر وكأنه وحش أبله، استنكرت أنه بـدا مسـتعدا

جدا، نظر إليها نظرة رغبة وهيام ثم جلس ليأكل الحمامـات السوداء ويشرب العرقي وحده.

خنقها الضحك القاسي من ضعف هذا المسحور وإرادته المستلبة، كما أعجزها عن لملمة أعضائها وإرادتها هي.

انتقلت عدوى الضحك إلى السـاحرة أيضـا، صـارت تراقبه كمسخ، أو مارد معتوه، شعرتا بالخطر بعد انتهائه من الطعام.

سألتها الغجرية: ماذا أفعل؟

تقهقه: تسأليني!! بالطبع اصرفيه.

تقلبت زوجة المجبراتي في فراشها فشمت رائحة زفـر وعرقي، استغربت وقامت تتشمم زوجها كحيوان.

- اصحى، اصحى، أنت مسحور، هل نمت مع امرأة؟

رد وهو نصف نائم: لا

- وما هذه الرائحة؟

- هل شممت رائحة امرأة غيرك على جلدي؟

- لا، ليست سوى رائحة الزفر والعرقي.

في الصباح تعمدت ليل أن تمر عليه، لتختبر شيئا جديد طرأ عليا، استقبلها بشكل عادي.

- لم تحملقين في وتبتسمين؟

- لا شيء، كنت مارة بك قبل أن أذهب لزوجتك لعمـل الفطير.

عابثته: قل ها. ها.. هوا

- ها!! هوى!! ها!! هو أنا في الكتاب؟

كان ينطق حرف الهاء بشكل لاهث ومثير، يشعر ليـل بأنه حار كزفرة تنهد.

حرف الهاء جعلها أسيرة له.

في تلك الليلة حلمت ليل أنها عطشى للغاية، ومعها كوز ماء فارغ، تبحث عمن يملأه لها، ثمة من يقترح أن تحصـل على ماء القلة البارد في الطابق الثاني، لما وصلت قالوا لهـا إن الماء الساقع في مكان آخر.. تتراجع ليل عن رغبتها في الماء البارد، مجرد ماء عادي من السبيل، وحتى ماء السبيل لم تحصل عليه.

ذهبت ليل إلى زوجة المجبراتي وأثناء إعدادها عجينـه الفطير، قالت لها: انتظري، وناولتها حفنة من الرماد وطلبت إليها أن تذروه على العجين.. ترددت ليل للحظة ثم أطاعـت أمر السيدة.

شكت الزوجة في تعرض المجبراتي لعمل سـحر مـن امرأة ما، ذهبت في الصباح إلى الحمام وطلبت من المدلكـة أن تزيد من حرارة الحمام كي تتعرق بشدة، وقبل أن تـدعك المدلكة جلدها بقشر الرمان، قامت بتجفيف عرقها بحفنة من الدقيق، وجمعته في قطعة من القماش.. فهمت المدلكة غرض السيدة، ونصحتها: عليك أيضـا أن تقلمـي أظفـار اليـدين والقدمين ثم تقصين بعض شعرك، واحرقيهـا جميعـا قبـل خروجك من الحمام، ضعي الرماد مع الدقيق وأضيفي بيضة وقومي بعمل فطيرة لزوجك يظل خاضعا، محبا لك، مقعيـا عند قدميك.

نادت ليل: سيدتي، لقد نسيت البيضة، أضيفيها بيدك.

كان ضحك الليلة الماضية قد حررها إلى حد مـا منـه ومن شهوتها حياله.

في طريق عودتنها، فكرت ليل أنها فقدت رجلا، ويبقى لها عملها وأخوتها وفرشتها وبيتها، البيت الذي تحبه أكثـر من أي شيء آخر، اشترته بمال كدحها، وطهرته من الأتربة والثعابين والمعاصي السابقة.

قبل ذلك البيت، كنت ترى ليـل بثوبهـا الأزرق فـي الصباح الباكر، تطوي حمل البرسيم تحت ذراعيهـا لـتطعم الأرانب، ثم تهرع دائبة بين البيوت الفاخرة والأفران، تلـت وتعجن وتُقرص، أو تفرد بالنشاب رقاقات الفطير أو تضـع المقادير العبقرية للكعك الذي منحها اسمها « ليل الكحكية ».

تنحني على الماجور، وترص في الصاجات، لا تـدير بالا لنظرات الرجال لها، عند المغرب تتذكر فـي رواحهـا للبيت أنها امرأة وعانس.. تجلس على حشـيتها المفضـلة، تستقطر العزلة والأمان يلقي أخوتها ملابسهم لترتقهـا مـرة ومرة، حتى ينضج الطعام على الكـانون، يـأكلون، علـى فرشتها تتمدد عقب صلاة العشاء، ينطفـئ قنـديل شـبابها، يتوارى الإثم وتفر الرغبة بين جفنيها حتى صباح جديد.

بعد أن انتعش الحال بهم قليلا، اشـترت ليـل لنفسـها وأخوتها "ملابس الخليع" التي لبست من قبل من تاجر متسبب يهودي يبيع بالتقسيط، واستأجرت منزلا قـديما مـن شـيخ الحارة، يزيد عمره على مائة عام صـمد فيهـا لأنـه مـن الحجارة، حذرها شيخ الحارة والجيران بأن المنزل مسـكون بالأشباح، كانت متيقنة من صفاء نيتها ورزقها الحلال، قامت

بتنظيفه ومسحه بنبات الشيح، استأجرت مقرئا لقراءة سـورة البقرة، وذبحت بطة كأضحية، ونامت وحـدها فـي الليلـة الأولى.

رأت شبح صبي جميل مرسل الشعر ملابسـه نسـائية ممزقة، الألم باد على وجهه، ويداه مقيدتان بحبال المراكـب الغليظة.. الأسى والتوسل على ملامحه جعلها تشعر باللهفـة لإرضائه، مشى شبح الظلام، نزل سلالم، فتح بابا سريا لـم تفطن لوجوده، كادت ليل تتراجع من الظلام الـدامس ومـن الخوف، عجبت كيف تراه وسط تلك الظلمة ولرائحة العطن والرطوبة، تساءلت عن مصدرهما، فالبيت بني علـى أرض غير جافة، ربما أرض مزارع، واصل الغلام سيره وسط ما يشبه القبو، ووقف بالقرب من شيء ليس بإمكانهـا رؤيتـه، اختفى الغلام.. وكأن إضاءة خافتة أحاطت ذلك الشيء.. كان بئرا.

لا تتذكر الآن كيف خرجت وصعدت ودفعـت البـاب السري، ظلت جالسة على السلم ساعة حتـى هـدأ وجيـب قلبها.. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، وأخذت تقرأ آيات

من القرآن الكريم بصوت مسموع، لـم تـدر إلا والشـمس تضرب وجهها من خلال الكوة.

ذهبت لشيخ الحارة، عاد معها بصحبة رجلين، ركـزوا ضوء القناديل على البئر، لم تكن عميقة، نزل أحدهم بشعلة، شد الحبل ليجذبوه.. وجد كومة من العظـام تحـت قمـيص وشنتيان، موثوقة بالحبال الغليظة في جدار ناتئ بالبئر وتحته بنصف ذراع توجد المياه.

أخرج الرجل كومة العظام والملابس، في بارقة الهـام قالت ليل: فكوا الحبال.

كانت عظام الغلام هي أول من يدفن إلى جانب والديها.

دارت الحكاية في الحارة، جاءتها جارة عجـوز تقـول إنها سمعت من جدتها حكاية ربما تكون حكاية ذلك الشـبح، قيل لها إن رجلا كان يلوط بابن زوجته في تلك الـدار بعـد وفاتها ولا تتذكر بقية الحكاية.

تتجول سنانية الصغيرة بائعة الخمول والدلال في كـل ركن بالمنزل كأنها عروسة المولد، تخاف عليها ليـل مـن درجات السلم المجهدة.. تتحداها سـنانية بـانفراج سـاقيها الصغيرتين على اتساعهما لتبلغ درج السلم التالية، يناوشـها

الفضول فتقف على رأس السلم في الطابق الثـاني وتقـذف بنفسها لتعرف متى ستبدأ في البكاء وما هي حقيقة مشاعرها في الثواني الفاصلة بين أعلى سلمة وبسطة السـلم، ورغـم الإصابات والألم فلم تكن سنانية عازمة على الإقـلاع عـن تجاريبها الغريبة.

ما عادت ليل تسمع خطوات سنانية، هرولـت بقـدميها الحافيتين للبحث عنها، هيئ لها أن أختها تناديهـا وأذهلهـا صوتها ( لعلها غارقة في لجة ألعابها التي تخترعهـا لتوهـا وتمارسها حتى نضوجها ). أصاخت ليـل السـمع: كأنمـا سمعت فحيح خوف سنانية.. مم؟

وجدت سنانية متجمدة من الذعر وثعبانا أسـود علـى الحائط قدامها يفح، اقتربت ببطء منها، ربتت عليها وحملتها بين ذراعيها، ونادت على الجيران أن يأتوا لها بأحد الرفاعية

جاء الرفاعي، أخذ في قراءة التعازيم والثعبان شاخص إليه، يفح في وقفاته بين تعزيمة وأخرى، فقرأ عليه عهدا إن نزل واستسلم له، فسيحمله إلى الخلاء ويطلقه هنـاك، فـح الثعبان من جديد وكاد يغدر بالرفاعي لولا أنه تحرك بخفـة من مكانه.

نظر يائسا إلى ليل: مفيش فايدة.

- ماذا سنفعل نحن؟

- لم يبق لي سوى الاستخارة.

- كم من الوقت سيتجه لك الثعبان لتتلي أدعية الاستخارة أو صلاة الاستخارة؟

- طيب، ما العمل؟

- تسألني أنا!!.. استخر قلبك.

طلب منها بحياء أن تخرج من الحجرة لأنه يسـتعرى أمام هذا الثعبان الغريب، ولما لم يجد من الثعبان اسـتجابة، أخرج الرفاعي من طيات جلبابه سكينا حادة طويلة، غرسها في أرضية الحجرة، ووجه للثعبان إنذارا للمـرة الأخيـرة، وذكره بأنه لا يزال على عهد الأمان إن نزل وسلم نفسه له.

نادى ليل التي كتمت أنفاسها، تراقب الثعبان في زحفـه هابطا، لم يتجه إلى الرفاعي، بل إلى السكين، لـف جسـمه حولها.. شهقت لبشاعة المنظر، هون الرفاعي عليها: احمدي ربك، كان جنيا كافرا.

دلفت ليل إلى النعاس الجميل، كل ليلة تراقـب نفسـها بأنها وضعت يديها تحت رأسها، قد تصحو يوما وقد فـردت

ذراعيها / جناحيها وطارت.. في اللحظـات القليلـة التـي ستعقب يقظتها تود أن تطير، لن تمضي على يقظتها سـاعة واحدة حتى يعاودها الحنين إلى أن تكون غير مرئية.

**امراة التهتك الكعكي، ترغب في أن تكون غير مرئية.**

لم يفهم غياث ما آل إليه حال أخته من الهزال والصفرة وخمود الهمة، مع أنه لم يرها في الفترة الأخيـرة إلا وفـي فمها ما تمضغه أو تستحلبه، استمرأت الجلوس وحدها فـي الدار رافضة العمل، وتسأله أن يزورها بالأفيون والعجـوة، تلوكهما بديلا عن حب ومؤانسة وأليف فقدته.

دبيب خطوات تقترب من فراشها، لم تشأ أن تفتح عينيها تستحلب أحاسيس الرضا والامتلاء من المذاق الحلو والدسـم العجوة، نصف الدبيب تعرفه، والآخر ربما زوجته أو إحدى بناته.

صوت ناعم عطوف يناديها: ليل

- أهلا فين الأفيون؟

- لست بحاجة له من الآن؟

حبست آمونيت « ليل » مدة ثلاثة أيام.

نفس الخطوة إلى الوراء اتخذها المجبراتـي، أن يبتعـد عنها بنعومة فراء السـمور، دون أن يشـعرها بـالهجر أو الإهانة، إن استمر معها بمقدورها أن تفتنه عن دينـه، لـن يتزوجها حتى لو لم تكن بذلك التسـلط.. تـدعمت فكرتـه الأصلية التي يحملها بداخله منذ سنوات صـباه: أن الحـب سخط إلهي، ولأنه – برأيه – حالم للغاية ومثالي فمن العسير أن تحافظ امرأة فانية على اهتمامه دون أن تحبطه.

فقد أضفى نظرة مثالية على ليل ولم يحتمل ما تعـرض له من أوهام وضلالات من جراء تلك النظـرة، فلـم تفهـم حاجته للاقتراب منها وفي الآن ذاته يكـون حـرا منهـا.. وضايقه إدراكه أن ليل تحتفظ بجزء من نفسها بعيد جدا ليس بمقدور أي إنسان كان مشاركتها فيه.

يعتبر المجبراتي نفسه صيادا أريبا لمريضاته الجذابات، يضع قناع المرح لاصـطيادهن، وحـين يقعـن منجـذبات لسطوته الحسية، يستمتع بهن، يتحرك بحرية وسط غابة نساء من معجباته، آمنا، متباهيا، حتى تتطلب إحداهن الوضـوح، فيسارع بارتداء ملامح القناع الخشبي على وجهه، والـدرع على صدره، حتى لا تخترقه النصال الحادة لدموع هجرهن،

ولن تبقيه معها، ولن يفلت المريضة الجديدة الناعمة.. وفـي اللحظة الحرجة يتذكر أن الحب سخط إلهي.. وكفى.

- من أعطاك الحق أن تحبسيني وتمنعي عني الدواء؟..

قولي لي من أية داهية جئت؟ غياث ده أنا اللي ربيته، ولي سلطة عليه يسمع كلامي ويطيعني.

لم ترد عليها آمونيت، تشوشت ليل مـا الـذي تفعلـه بلسانها وجسمها، تشتم، تغضب، وتهرش جلدها، تشد شعرها لتقيس طوله، ترتخي جفونها في حركة ثقيلـة، تتكـوم فـي شحوب، تقلص من مسـاحة جسـدها إزاء فضـاء الغرفـة المرعب.

تسأل آمونيت: لماذا أعطيت اسم ليل؟

لن ترد عليها، ستعاملها بترفع، ولن تقول لها إنها وِلدتْ في الفجر بعد ولادة متعسرة لأمها، كان صوت الشـيخ فـي الجامع المجاور يقرأ: **والضـحى. والليـل إذا سـجى** لحظتها ولدت واطمأن الأب المسكين المتوتر لنجاة زوجته.

لف الداية حرج شديد وهي تهم بإخباره أنه رزق بنتا.

بتسليم قال:- بنت، بنت، كله كويس، أسميها ليل.

- كلي طعامك.

- لست جائعة.

- أريني ساقك المصابة.

- أعطيني الأفيون.

- سأعالجها لك.

- ستحبسين ساقي أيضا!!

مست يد آمونيت ساق ليل في أكثر من موضع كانـت في حالة من التركيز كأنها صلاة.

- بماذا تشعرين؟

- بالدفء في المناطق التي تلمسينها.

- ماذا أيضا؟

- أقل ألما.

- اصبري معي يومين آخـرين، ستسـتردين صـحتك، وتعودين إلى خطواتك النشطة.

- أمهر من المجبراتي أنت!!

- لا، ولكني أكمل علاجه.

- بالحبس!!

- لعلاجك أيضا من آلام الحب.

بغتت ليل.

- ماذا تعنين؟

- منذ أسبوعين رأيتك في السوق تزكين بساقك المصابة و...

- عرفت أني أحب من ساقي المصابة!!

- لا، من لون الهالة التي تحيط جسـمك حينئـذ، ذلـك القرنفلي الشاحب.

- والآن؟

- أرى هالتك سوداء.

- يا ساتر.. ماذا يعني ذلك؟

- إنك تفرطين في تعاطي الأفيون وغير قـادرة علـى الاستغناء عنه.

- إذا شفيت، ماذا سيكون لون الهالة عندئذ؟

- لون شخصيتك الحقيقية وحالتك المزاجية الجديدة.

- أتعرفين مقدما ما هو اللون؟

- لا.

أدمت الحكة جلد ليل وبشرتها، قاومت شـعورا مهلكـا بالغثيان في اليوم الثالث، أعطتها آمونيت قطعة صغيرة مـن الأفيون، تقبلتها ليل شاكرة ممتنة وسـرعان مـا اسـتعادت

مزاجها الطيب وتحمست لرحلة علاج طويلة تطول الجسد والروح.

قالت ليل لمعالجتها: تعرفين عني كل شيء، ولا أعرف عنك شيئا.

- وما غرضك؟

- أن نكون صديقتين.

- إذن استعدي لحكاية طويلة، أرويها لك في سفرنا حتى نصل إلى الأهرامات.

- الأهرامات؟ في مصر المحروسة، أنا حتى لم أغادر دمياط إلى قراها، وأسافر إلى مصر.. لم؟

- لتستعيدي ليل التي تعرفينها.

- ألا يكفي العلاج بلمستك الشافية الطيبة؟

- لا، لا يكفي.

شاغبتها آمونيت: لم تقولي لي لم ترك أهلك الفلاحة؟

- هربا من العفاريت؟

- عفاريت؟

- نعم، الملتزم وأعوانه مثل المشد والصراف، ومن المباشر والشاهد وشيخ البلد والكاشف والخولي.

- كل هؤلاء؟

- من أين لأبي المال الواجب دفعه من: « مال السلطان وعادات الكشاف ونزلة الصراف »، هذا غير العونة، والوجبة من الزفر من لحم وطيور، نحرم أنفسنا منـه ليطفحه هؤلاء، ولم يعش لأبي ولد حتـى يمكـن أن يأخذوه رهينة عندما انكسر مال السلطان على أبي.

- قلبت آمونيت وزن شعيرتين من مسحوق الكافور مـع ماء الخس، سقتها لليل حتى يجلب لهـا نومـا هادئـا ويذهب الصداع.. سألتها: هل تعرضت للسوداوية من قبل؟

- نعم، حصل مرة لدى زواج أخي، وانفصاله عني فـي بيت مستقل.

كانت ليل أشد من حماة، حين كان غياث يعرض عليها أن تبحث له عن عروس، تظهر التعنت والسخرية مع كـل عروس يوشك أن يرضى بها، يهاود ليل ويحايلها، وعنـدما يتعب كلاهما من التلاعب؛ إذ يفهم كل منهما الآخر، ترفض بغطرسة أن تذهب وتخطب له.

في يوم عجب الجيران عندما سـمعوا الخبـر، كيـف استطاع غياث الدين وهو المحب والمطيع لأخته الكبيـرة أن يمرر من تحت ضرسها هذه العروس التي أصبحت أم بناته، رضخت ليل وخطبتها له.

بعد أن أغلقت الباب على العروسـين ألصـقت قطعـة العجين المختمرة عليه تيمنا، سمحت لنفسها أن تستقبل نوبـة السوداوية المؤجلة، لقد خُطف منها أخوها ورجلها.

سمرة وجهها أصبحت كسمرة ساق شجرة، أعمل فيهـا نقار الخشب بهمة، فأصبحت منقـورة بكثيـر مـن الحفـر الصغيرة.

- كم من الوقت استسلمت لهذه الحالة؟

ربما أسبوع أو عشرة أيام.. لم تكن قليلة الحيلـة فقـد خرجت للعالم، لعملها وأصحابها الكثيرين.. تمرر على آذانهم قفشاتها ونكاتها البذيئة عن العوانس والعزباوات.. تموه على نفسها كدحها الداخلي إلى أن تكون غير مرئية تفكـر بآبـاء الدقيق والفراشات أيهما له القدرة أكثـر علـى الاختفـاء.. أنكرت آباء الدقيق على الزهر الأبيض، وأنكرت الفراشـات حين تحط على ورود وأزهار بنفس ألوان أجنحتها.

التمويه؟! ليس ذلك ما ترومه.

بعد شهور أطلقت ثلاث نساء تنهيدة حسـرة وحسـد، يكبرن ليل على جرأتها في وقوفها وتحادثها وضحكها مـع المجبراتي، وينظران لبعضهما بعضا دون عتب أو مرارة.

- يا لقلة حياتها.
- ايا فجرها.
- أليس هو المجبراتي التي داخت زوجته لحمايتـه مـن واحدة تسحر له!!
- نعم.
- ممكن تكون ليل، ألم يسبق له أن عالجها.
- ليل ليست بحاجة إلى المجبراتـي أو لـا زواج لأنهـا مخاوية.
- مخاوية!! دستور يا أسياد
- ماذا تقول له؟ ماذا يقول لها؟ لماذا تمسـك طرطوفـة أذنها؟ انظري السافلة: إنها تقربها إلى وجه المجبراتي.

أوقفت النساء أخت المفزوع فوق السـندرة، الخرسـاء والتي يمكنها قراءة الشفاه.

- قولي لنا يا أختي، نعرفك نبيهة ولماحة، عم يتحدثان؟ قولي لنا بالإشارة سنفهمك.

قالت للنساء إن المجبراتـي يعـدها بزيـارة يتحـدثان ويتمتعان فيها:

اعترضت إحداهن: شفتي الموكوسة!!

وأضافت أخت المفزوع بأنها أمسكت أذنها و...

قاطعتها أخرى: طبعا قالت له: لما تشوف حلمة ودنك..

أشارت أخت المفزوع أن يصبرن حتى تنتهي من قراءة شفاهها، وارتفع إصبع النفـي فـي وجـوههن: قالـت لـه ( عشمتني بالحلق، خرمت أنا وداني ).

- قادرة!!

استدركت أخت المفزوع فأكدت أن ضحك الاثنين يعني أن تعابثهما بريء.

- أية براءة تحكين عنها؟

هزت أخت المفزوع كتفها اندهاشا: ما بينهمـا بسـيط وعميق مثل صداقة رجل لرجل أو امرأة لامرأة.

- كلام غريب!! قصدك تقولي إنهما كالأصدقاء.

أومأت أخت المفزوع بالإيجاب.

## (٥)

حدثان هامان في يوم واحد، أعلن الكشاف وقوع فتنـة طائفية وحذر مناديه من مغبة الفتنة وسوء عواقبهـا علـى الجانبين، زاعما أن القبط أعادوا بناء أجزاء من كنسية بـدلا من ترميمها وأنهم يسعون لضم أراض مجاورة لها وإعـلاء قبة الكنسية كي تطاول المئذنة.

كما أطلق سراح الترجمـان. ازداد هـزالا وشـحوبا، متورمة وزرقاء يده وذراعه اليسرى، رضوض وتقيح حول الرسغ، كادت تتفكك عظامه عندما احتضنه المحبـون لـه، بصوت متحشرج همس في أذن أحدهم: قولوا للناس إن هذه الفتنة مبتدعة لزيادة الضرائب والغرامات علـى المسـلمين والأقباط معا، وغض النظر عن مساوئ الحكـام وأصـحاب الدواوين، والأهم، الحفاظ على مهابتهم.

رد عليه: بـالطبع سـنقول، ومثلمـا تـرى للأسـف، فالمظلومون ينفسون عن مرارتهم وحنقهم بظلم الآخرين.

هز الترجمان رأسه من أسى.

- ماذا حل بك بالسجن؟ واضح أنهم عذبوك.

أشار الترجمان بالإيجاب: كانوا يريدون ألا يحتمل قلبي وأموت ليشيعوا ( هلاك الترجمان ).

اتفق مرافقوه على أن يحظى براحة ورعاية، لا يطلب منه الكلام حتى يستعيد ولو جزءا من عافيته.

- طلب أخير!!

هكذا علا صوت الترجمان.

- اطلب ما تريد.

- غمامة

-لِم الغمامة؟ طيب.. سنحضرها لك، لكن دع عندك هذا القرطاس.

وضع الترجمان يده المتورمة كثقالة ورق تحول دون أخذها أو انتزاعها.

- هون عليك، نحن أصدقاء.

- كتبت فيها كل البلاوي.

- لا شيء جديد بالتركيز سوى بعض ذكرياتك عن التوءمين.

- والصفحات الأخرى؟

- لا بد أنهم صادروها.

- إلى بالغمامة، إلي بالعصابة.

مر شهر والترجمان يتعافى، اعتاد الغمامة فوق عينيه اليسرى، واعتاد زائروه عليها محترمين تجاهله الإجابة عن سبب وضعها وعيناه سليمتان.

بصوت محايد كمن يذيع خبرا لا يخصه: ضفروا أصابع قدمي.

كأنما أدركوا فجأة صعوبة وقوفه أو مشيه، حدقوا في أصابع قدميه التي شوهت.

- ضفروا!! أصابع القدمين.

بالحياد نفسه وصف: ضفروا أصابع القدمين بحبل رفيع، أخذوا يشدون عليه بتؤدة حتى انعقدت الأصابع كما ينعقد الشعر المضفر، أكذب عليكم إن قلت إنني لم أصرخ، أحيانا رحمة الله تأتيني بفقدان الشعور.

من الآن وحتى ينتهي الترجمان من أوصاف تعذيبه وطرقها منوها بتبادل الخبرات المتعاون والمخلص بين زبانية الأتراك الروم ونظرائهم من زبانية محاكم التفتيش الأوربية، لن تسمع همهمة غضب أو سباب، أو ترى تقلصا في عضلات وجوههم دهشة واستنكارا.

لا شيء من ذلك، سوى لون الهالة الجماعية من الأحمر النبيذي على الرؤوس غضبا وكمدا.

واصل الترجمان: بعدها قاموا بتثبيتي على العروسـة / التخشيبة، وغطوا وجهي بقماش سميك، وظلوا يصبون الماء علي حتى كدت ألفظ أنفاسي من الاختناق والقماش المبلـول على وجهي يمنعني من التنفس.

- فظيع.. فظيع.

- هناك ما هو أنكى، ومد يسراه وآثار الـورم لا تـزال باقية بيده، وعلامات محفورة في رسغه.

- ماذا حدث؟

- أخذوا قراطيسي، وأبعدوني عن الزنزانة التي هيـأت نفسي لأن تكون مأوى لي ولقراطيسي، وبعد الركلات وشتى صنوف الإهانة أخـذوني إلـى مكـان آخـر معصوب العينين، وضعوني فـي زنزانـة مسـتطيلة وضيقة أعتقد أنها كانت تستخدم كنيفـا لـيس إلا، لا تكفي إلا للوقوف بها، بها ثقوب لم أعـرف وظيفتهـا حتى نزفت أذني.

في الليل يعلقون يدي اليسرى بأعلى بـاب الزنزانـة، أحاول أن أقف على نحو مريح، وعندما يراودني النعـاس، أفيق على ألم كوقع السوط على رسغي لأني أتسـاقط مـن الإعياء، تكرر الأمر هكذا حتى تورمت يدي ودميت.

- لم الفتحات في جدار الزنزانة؟

- صفير الهواء الذي يمر بها مرعب لأنه يترافـق مـع أصوات متضخمة كأنها لصق أذني عـواء ذئـاب، نباح كلاب، نساء تصرخ، رجال يبكـون، وأصـوات تتوعدني بأن أتراجع عما يسـيء إلـيهم وإلا فـإنهم سينكلون بأسرتي.

كان الحكيم والمجبراتي مـن زوار الترجمـان، نظـرا لبعضهما، وقال الحكيم للترجمان بعدما أمسك رسغ يده: إنك لمحظوظ.

- كيف؟

- لأن دورتك الدموية متباطئة بطبيعتها، لولا ذلك لكنت قد مت في الحال.

- لقد مت عشرات المرات.. يأخذونني صـباحا علـى المحفة، أنزف من أذني وأنفي وأعاني من ألم يدي.

سأل أحدهم: هل توصلوا إلى أسرتك؟

- لا أسرة لي.

استدار في فرشته، معتذرا بحاجته إلى الراحة، مـانحهم ظهرا كاذبا، ألم يبتسم في عز تعذيبه وآلامه عنـدما هـددوه بأسرته.. أنّى لهم أن يصلوا لعائلته التي هربها منذ سـنوات لدى حبسه في المرة الأولى لما رفض التغاضي عن الفسـاد الحاصل في الثغور واستهان بالتهديد بسجنه ومصادرة كل ما لدى أسرته، جدة زوجته السودانية، هربت بزوجته وأطفالـه إلى قبيلتها « البقارة » المجاورة لقبائـل جنـوب السـودان وبعض القبائل المسلمة في شماله، يصل إليه على مدار العام مكتوب أو اثنان، تطمئنه الزوجة على أطفالها، وتتفكه بقولها أن القبيلة وناس الجنوب الوثنيين يطلقون عليها لقب «حلبية» لسمرتها الفاتحة أيضا على أطفالهما وهم فـي لـون أمهـا وجدتها.. تتحدث عن براعة الأطفال في التقاط اللهجات على نحو أسرع منها، لولا ما تتذكره الجدة من كلمات للجنـوبيين من أيام صباها قل أن تتزوج بالتاجر الصعيدي الذي رحـل بها إلى مصر، لكان التعامل سيصبح صعبا عليهم جميعا.

تهيأ الترجمان لمغادرة سرير المرض، ممارسا عادته القديمة في جمع الأوراق، مازحه أحدهم بقسوة: إن لم تقل لنا سبب وضعك هذه العصابة على عينيك، فلن تجد في دمياط كلها قرطاسا أو نحوه يصلح للكتابة عليه.

استسلم الترجمان: لأن العالم لا يستحق أن ينظر إليه بالعينين كلتيهما.

حافظ الترجمان على وضع العصابة على عينه اليسرى حتى لقي حتفه.

## (٦)

**« شيخ طاعن أنا، مررت بكثير من المشاكل، أغلبها لم يحدث قط »**

**حكيم**

بعد أربعين عاما، خرج المفزوع فوق السندرة يسأل الناس عن أخبار طومان باي في عام الرب هذا ١٥٥٧، كما يقول قبط مصر، وإذا ما كان لا يزال يجد في البحث عمن تهاون في الدفاع عن مصر، أو تعاون مع العربان في خيانتهم.

أزجى إليه المكدودون نظرة متعبة ومضوا فـي حـال سبيلهم، وعلق الرائقون المتباسطون: بيمارستان يلمك، أنـت اللي على شكلك.

تقدمت امرأة إلى المتزاحمين حوله وسألته: أين أختك؟

بكى المفزوع: ساعديني في تكفينها ودفنها.

مصمصت شفتيها أطلقت آهة: « إِنـا لِلـهِ وإِنـا إِلَيـهِ راجِعون »، أحرقت قلبه بنظرة عتاب طويلة وحقيقية.

ضرب المفزوع أخته مرارا لأنه شعر بأنه عاجز وقليل الحيلة في إرضائها، توحش في تعاملـه وكسـرها قبـل أن تكسره.. كان مرعوبا للغاية.

كيف يرضيها؟ لا مال سلبه من العثمانلية حتى يرضيها، لا مأوى يشعره بأنه يليق بها، ما اهتمت بصدق بأن تكـون بأحضان رجل، هذا حقه فيها، وهو الذي تنازل طوعا عـن لمس النساء.. لا شيء يرضيها.. كان يعـرف أيـن المـال والجواهر في بيوتات المماليك، وشاهد بنفسه الجنود التـرك يجوسون في جثث المماليك علهم يقعون على ملابس ثمينة أو خاتم من الأحجار الكريمة.. سارع قـبلهم فـي كشـط دور المماليك وأقمشتهم التي تباع بالوزن وليس بالأطوال، وثياب

زوجاتهم وجواريهم التي كانت « كنزا متحركـا » إذ إنهـا مثقلة بالجواهر واللؤلؤ، أين ذهب كل هذا.. تركـه وهـرب بأخته إلى المنفى بدمياط.

صدق لوهلة أن اعتباره من الزعـر سـيكون تقدمـة وعطية لطومان باي للعفو عنه، إذ تآمر مع العريـان ضـد ميثاق شرف الزعار، وما بين إقناع نفسه بالفكرة ورعبه من مغبة تصرفاته، استقر الذعر في معدته وانتشر بطيئا في كل أوصاله وخلاياه ذعر دام أربعين عاما، كيف يسـقطه الآن، كحامل قصعة الملاط والطوب على رأسـه حـين يضـعها أرضا، يجد أن جسده لا يزال متحفزا ومتوترا دائمـا لهـذه الحمولة الزائدة.

مترعة حفيدة الترجمان بالحيرة، منطق المفزوع فـوق السندرة يبدو لها غير متماسك، حيث قال لجدها قرب أفـول القرن السادس عشر أنه رأى التمثيل بالناس وهـم أحيـاء، يرميهم العسكر الأتراك في أحواض كبيـرة تغلـي بزيـت الزيتون، نعم زيت الزيتون تحديدا، يبقرون بطـون النـاس أحياء وبتمهل شديد يذبحون أعضاءهم جزءا إثر جزء، بدءا من أصابع القدم وحتى الرقبة، يستمتعون بمظـاهر الرعـب

والفزع والألم على أبدان أنصار طومان باي قبل أن ينفقـوا، نعم قالوا ينفقون أو يهلكون وكأنهم من البهائم.

مفزوع من اغتصاب هؤلاء الجنود للنساء في الشوارع وداخل البيوت عنوة، ثم تشويه أعضائهن الجنسية.

تجزم حفيدة الترجمان أنها لا تصـدق غالبيـة مـزاعم المفزوع، حائرة تجاه فزعه غير المبرر، وتظن أنه عنـدما رأى أرض المعركة والدمار والجثث، الجرحى والأنين، كان من نسيج خياله الإجرامي أنه هكذا ينبغي أن تكون المعارك، وفزع، فزع من نفسه وليس عليها، هرب من خيالاته القاسية المستلذة.

اقتنى أخته ليصب عليها دوافعه في ألطف أشكالها وهو ضربها، ويحرمها من الزواج، وأن يعجن أفكارها ويصيغها حسب هواه، وأن تكون همزة الوصل بينه وبـين العـالم.. ليعرف الجديد من الأخبار التي يستقبلها متصـلبا ويفسـرها وفقا لرغبته ليؤجج بها فزعه ويؤكده.

حاولت أخت المفزوع أن تهرب منه.. تتأخر في السوق ثم تعود خاضعة، من يحميها؟! وتحاول في الأيام التاليـة أن تتلكأ عند الزوايا والتكايا، وسمعت ـ كان سمعها ضـعيفا لا

يفي بالغرض – عن شيخات الصوفية، أرجأت اللجوء إليهن إلى يوم آخر حين يفيض بها الكيل من إساءات أخيها.

نصحتها شيخة تتجاوب معها بالإشارات: انفدي بجلدك، سألت بيديها وكتفيها: كيف؟

ردت: اتركيها على الله وعلينا.

أبلغت أخاها أن عريسا سيتقدم له لخطبتها، فارتعدت خلاياه وسرى التنميل في أطرافه فتعطل عن الحركة، استعاض عن شلل حركته بالجري فرارا، بصوت هادر فزع وغاضب أتعرفينه؟

- لا.

- عن طريق من؟

- الشيخات.

- إن جاء هنا سأضربك وأضربه.

ذكية أخت المفزوع لكنها قليلة الحيلة في حياتها معه، فعندما يخرج من الرحم الدافئ الآمن، المعتم للسندرة كي يضربها، تدرك الدرس جيدا، توقفت عن إقناعه بأن طومان باي لم يعد يحكم مصر لأنه شنق، وأن العثمانيين يسيطرون على مقدرات مصر منذ زمن، فصارت كل حادثة

تسمع عنها في السوق تهولها لأخيها بأن العسكر لا يزالـون يدمرون مصر قطعة، قطعة « ربما بحثا عنـك، لا بـد أن الزعر قد أفشوا عن مكانك ».

هذا ما يرغبه بالضبط منها.

تتمنى أن تذوب كنسيج تحت جلد أخيها، ويتمنى هو أن يتوحد مع الجزء الأكثر إعتاما من السندرة.

لامت أخت المفزوع نفسها التي سولت لها فـي لحظـة رمادية أن تفكر بالزواج.. فربما لن يقدر على منحها الحماية والأمان اللذين يقدمهما لها أخوها.. وزيادة على ذلك فلـيس لأخيها أحد سواها.

كتبت حفيدة الترجمان: « ما كان المفزوع ليكشف لـي عما يخامره من أفكار، لم يعطني سوى أفعالـه وتصـرفاته الخارجية المموهة، حجـب عنـي حـواره الـداخلي.. وإن توصلت بالصبر إلى كنه ذلك الحوار، فلن يسمح لنفسـه أن تفسح لي عن دوافعها التي لا يدركها هو ذاته.

متكوما في سندرته الكابية، أزجاني نظرة شـك، فـأنّى لرجل من العصور الوسطى أن يثق بعقل امرأة جاءت بعـده بخمسة قرون، حتى لو عرفت القراءة والكتابة مثلي.

أينما توغلت في أحداث ذلك القرن، أجده ماثلا أمـامي مع صديقيه الآخرين: آمونيت القبطية وجدي الترجمان ».

تسبب الترجمان في إيقاف عادة « الدوسة » التي يقيمها الصوفيون كل عام في ليلة المولد، استمر التوقف بضع سنين إذ أحدث الحصان الذي يمر على ظهور ورؤوس المسـتلقين هرجا ومرجا مبهمين أسفرا عن مقتـل خمسـة أشـخاص وإصابة ستة عشر آخرين من بينهم المفزوع الـذي افتـدى الترجمان بجرحه، حيث تزحزح إلى جانبه قليلا مع اقتـراب حافر الحصان فسلم الترجمان.

تم دفن الموتى ومعالجة المصابين سرا تحاشيا لتـواتر شائعات تمس قداسة طقس الدوسة، أو تشكك فـي الكلمـات والأدعية التي يرددها الدراويش لحمايـة أنفسـهم وحمايـة الراغبين في الانبطاح في يوم الدوسة.

أتى جرح المفزوع بكثير من الحظ الطيب لـه، ازدادت ثقته بنفسه، وعرف طعم الصداقة الحقة والدفء في علاقتـه بالترجمان، كلاهما تقبل ـ مثلما يقولون مجـازا ـ تلـف الأبراج المتطايرة في دماغ كل منهما وأحبا الأبراج الأخرى المستقرة في عقلية ونفسية أحدهما الآخر.

أصبح المفزوع مرافقا للترجمان في سيره المتعثر لتشوه أصابع قدميه من جراء التعذيب، كحجر مكـدود يقـدم لـه الرعاية البدنية والصحية، والترجمان يحكي له عن الأقدمين والمحدثين، يقرأ له كمن يستجدي عاصفة من كتب أعـدمت من قبل: تم غسل رقائقها الجلدية بالمـاء فزالـت الكتابـة.. عرف المفزوع في أولى محاولاته لمغازلة الحياة وأسـرارها أن الترجمان لا يقرأ له، إنما يحاور الرقـائق الغفـل مـن الحروف والكلمات.

حكى له عن المغامرين والأبطال والشهداء، عن أنـاس عاديين لم يهدروا طاقة في هزيمة مخاوفهم وهواجسهم، إنما بالرغم منها تقدموا، وحاوروا أفكارهم المخيفة ثم ضـحكوا وهنئوا أنفسهم قائلين بصوت عال: وإيه يعني؟!

يحمل المفزوع ذلك الكتاب متفاخرا بصحبة الترجمـان في القهاوي وفي بحثه المزمن عن أي شيء يصلح للكتابـة عليه.. بعد قليل سيكلفه الترجمان بصنع أنواع من الأحبـار، علمه طريقة صنع حبر الرأس الذي يناسـب الكتابـة علـى رقائق الجلود، وحبر آخر لورق البردي، والحبـر السـفري تحسبا لسفرهما أو فرارهما يوما ما.

برع المفزوع في صناعة الأحبار وتفنن فيها بعد سؤال الوراقين، وفاجأ صديقه بأن وضع في خزانتهما المشتركة: دواة للحبر الذهبي وحبر الباقلاء وحبر الزيتون وحبر العفص وحبر الأرز.

ما كان المفزوع يتوقع ما طرأ عليه من جديد الطباع مثل حدسه بالخطر الذي لم يهرب منه بل افتداؤه صديقه وتلقيه المنفتح والمبدع لعالم الأسرار في أدوات الكتابة، لو طلبت منه ذلك قبل أعوام، كان سيلجأ حتما إلى عتمة السندرة لأسبوع متواصل.

نال المفزوع متعة نادرة بانخراطه في تصنيع الحبر، وأيضا التمويه في ترتيب أشيائهما القليلة في العشة، كانا يخمنان بأنها ستداهم يوما ما.

الإثارة الأكبر أنه اعتبر نفسه من « قامات الفعلة » يتساءل: أكان الفزع الذي ضيع سنين عمري ينطوي على رغبة حارقة في المقامرة؟ « لا، ليس بالضبط فالفزع في درجاته المخففة أمده بحس يقظ وتحفظ وحبك منطقي لحكايات تبرئه وصديقه، مستفيدا في ذلك من غرائبيته التي يعرفها الجميع.

طلب إليه الترجمان أن يشتري رطلين من البصل، ولبن حليب، وبواقي أخشاب صغيرة للمنقد، وأن يمر على العطار لإحضار ماء الزاج الأبيض ومرارة السلحفاة.

علق المفزوع: إيش لم الشامي على المغربي!!

حكى له الترجمان عن الحبر السري الـذي اخترعتـه الحركات الثورية السرية أيام الخلافة الأمويـة، والعباسـية، والفاطمية، كانوا يكتبون به تقاريرهم ورسـائلهم وأخبـارهم ووثائقهم الداخلية، من عصير البصل واللبن الحليـب ومـاء الزاج الأبيض ومرارة السلحفاة.

تسارعت ضربات قلب حفيدة الترجمان، لديها كنـز ولا تعرف له مفتاحا، من تسأل؟ أي المخطوطات المحققة يمكـن أن تمدها بوسائل قراءة الحبر السري المكتوب بين سـطور مخطوطات لجدها تتناول أمورا عادية وتتعلق بحياة بعـض معارفه .

أن تتعلم تحقيق مخطوط ، فلا أقل مـن أربـع سـنين جامعية ، نافذة الصبر هي ، استعانت بالأيسر ، أن تقرأ كل ما يقع تحت يدها من مخطوط محقق يتناول مـن قريـب أو بعيد هذا الموضوع، هذا الاستحواذ شتتها في دروب شتى ،

تتعجب : حتى الاستحواذ بحاجة إلى الصبر ، وهي تخاف أن تستخدم وسائل قد تزيل السطور المكتوبة بالحبر السري .

ولأن آخر الطب الكي ، قررت أن تفعل ما فعله جدها ، كتبت بعصير البصل واللبن الحليب ، لم تجـد مـا يسـمى بمرارة السلحفاة ينظر إليها العطار بشك كأنهـا مشـعوذة أو دجالة .

لِم طلب الجد قطع خشب للمنقد ؟ ربما ليفعل مثلما فعل الخزاف في مخطوطه الثالث ، أن يطلب الخشـب لرمـاده ففعلت ذرت الرماد البارد على الكتابـة بعصـير البصـل ، وباللبن الحليب ، لم يكن ثمة تأثير مـع أيهمـا .. تجلـدت بالصبر : لا بد أن ينفع مع أحدهما على الأقل .

أعادت التجربة ، أشعلت قطع خشب صغيرة في منقـد البخور، وتزجية للوقت أخذت تقرأ بالقرب منه في صفحات تجاربها، بعشوائية ... يا لفرحها ، تكشـفت لهـا السـطور المكتوبة بماء البصل على الصهد الطالع من المنقد ، هنـأت نفسها : هذه واحدة، واظبت بمزيد مـن الترقـب ، تحـول الخشب إلى رماد، التقطته وهو ساخن وذرته فـوق صـفحة

كتبت عليها باللبن الحليب ، ظهرت الأسـطر .. ورقصـت طربا .

يمكنها الآن أن تنام بعمق ، كعادتهـا انتظـرت حتـى الفجر، أطفأت المصباح الكهربي ، ورقدت محتضـنة أحـد مخطوطات جدها ، نزف الظلام نفسه حتى الراقة الأخيرة ، كانت على وشك نعاس آسر ، فرفعت الكتاب لتضعه علـى حشية على الأرض والمخطوط مفتوح في منتصف صفحاته، خايلتها أشكال منمنمات على الأرض ، حـدقت فـي ظـلام الغرفة فقرأت كلاما بأسلوب جدها ، هكذا في الفضاء المحيط بها تقرأ، تلمست الفضاء : كان خط جدها ، المكتوب بمرارة السلحفاة المكرسة للقراءة في الظلام .

يصحو فضول المفزوع : أين هـي تلـك القـراطيس ووثائق التمردات السرية ؟

أجاب الترجمان : لم تصلنا حتـى الآن أي مـن هـذه القراطيس والرسائل ، بالإضافة إلى كتابته بالحبر السـري ، فإن كاتبي حوليات العصور والخلافة المنفذين مـا جـرءوا على الإلماح إليها إلا في حالات الثورات الكبيـرة ، كثـورة الزنج والقرامطة وغيرهما .. واسمع يا صديقي إذا كانوا قد

كتبوا عن مظالم أو في نيتهم الكتابـة عنهـا فـلأن هـؤلاء الظالمين يتبوءون المناصب ثم يفارقهم الحظ والجاه، عندئـذ فقط يكثر ذبحهم وطعانهم ، لأنهم فـي أمـان مـن ترديـد مساوئهم .

ما من استثناء.

- الاستثناء قليل.

عجيب أمر هذا الترجمان، فعلى يد المفـزوع أوصـل تقنية الكتابة السرية لمن يعتقد أن بإمكانهم إحداث تغيير، فلم زعيقه ذاك اليوم في السوق؟

- إلى متى تظلوا منكسرين، اجأروا بالشكوى، تمـردوا، تحدوا، قولوا: لا لا يرد أحد من الناس.

- بإمكانكم أن تقولوا لا، دون أن تودعوا فـي السـجن الشريف أو تمزقكم السياط والخوزقة والتجريس.

- تلهف السامعون ليكمل كلامه.

- افعلوا كما فعلتم من قبل: انشدوا أشعار السخرية مـن العيش ومنهم، أطلقوا النكات، نظموا الأغاني واحكـوا القصص، اكتبوا ليعرف أحفادنا من بعـدنا: أننـا لـم نخضع.

تساءل حالهم: كيف؟ إنها مخاطرة.

- اكتبوا بالأحبار السرية.

هل جن الترجمان، أم أن به بالفعل طرفًا من جنون.

تستدير الرؤوس: عين خارج الدائرة حـول الترجمـان خشية وجود الجند العثمانية والعين الأخرى داخل الدائرة، كل يحاول التكهن بسرائر الآخر تحسـبا مـن أن يكـون مـن البصاصين، ثم ارتسمت على المناكب المولية عنـه علامـة « لا » كبيرة « شجيع » منهم اشتعل حماسه: سلطان غشوم ولا فتنة تدوم.

لا مباليا، كان الترجمان يعرف أن القلة المختـارة قـد حفظت تعاليمه عن ظهر قلب، ما التفت إلى أن بعض الناس توقفوا فلم يعرفوا إذا كان ما قيل للتو خطابا هزليا أم نكتـة جادة، مثلما استهزأ من قبل بشيوخ الصوفية.

سأل شاب: أتعتقد أنهم سيعثرون على ما يكتب؟

- محتمل، والأكيد أن من يكتبون عنا سيتجاهلون هـذه الكتابات طلبا للحظوة عند السلطان أو الوالي، ولهـذا السبب قد يكتبون شـروحا علـى المتـون للشـرطة ونحوها.

- أقدم شخص على إغاظته: - ألا ترى الازدهـار بـأم عينيك؟!

- كل غربال جديد وله شدة.

- الانضباط والصرامة في طوائف المهن خاصة يؤتيان أكلهما.

- وعلى مدى السنين سيخلقان ضعفا وانحلالا.

- لم يا ترجمان؟

- لأنه لن يدع فرصة لذلك. وأشار لدماغه – أن يعمـل ويبتكر حلولا جدية، أن يكون مرنـا بدرجـة كافيـة للتعامل مع ما دهمنا من مستجدات.

- أليس الابتكار بدعة؟

- بالطبع بدعة، لأن معناه أن أولي الأمر أغبياء، وكذلك شيوخ الطوائف، يعني التخلي عما تم تلقينه من معلمي الصنعة، فلا يجب التخلي عما أقره الأجداد. الأمـوات وإلا اعتبر خروجا عن الطاعة.

- ارقص للقرد في دولته، أهذا ما نفعله الآن؟

- نعم.

دأب ذلك الشخص عاما كـاملا علـى التقـرب مـن الترجمان بأسئلته الحاذقة التي استهوت الترجمان فأفاض في توضيح وجهة نظره، ولما شعر أن الترجمان بدأ يـأنس لـه أخذ يغويه للمشاركة في طقس الدوسة التي يقيمها دراويـش السعدية، ليعرف عالما جديدا مفعمـا بالروحانيـة الشـفافة والكرامات النافذة.

يحذره المفزوع من الانغماس فـي هـذه الممارسـات الملائمة لأهل القلب والحدس، لا أهل العقل والفكر، لم يلـح في أبعاد صديقه، كان هو نفسه تواقا لتلك المغامرة.

على سهوة، سأل المفزوع: أتعرف مـا هـي الغنـدرة المخفية؟

- طبعا أيها المفتون بالقوافي: التكـة والطاقيـة، مـاذا تعني.. هيه؟
- هذا الشاب الغندور، ناعس الطرف، حلـو اللسـان.. الذي يحرضك على الدوسة؟!
- استعذ بالله يا صاحبي، إنه رجل تقي ومصل.

خلا المفزوع لنفسه، تذكر رهبة وحلاوة النطق باسم الله تعالى ممدودا بخشوع ووجد من مشاهدي الدوسة، ما ضرر

الدوسة؟! هيه.. ما أسهل أن ينبطح المرء مثـل الـ دراويش، الأرجل ممدودة وأذرعهم تحت جباههم، هامسين على الدوام باسمه سبحانه « الله » ما الخطر في أن يجري اثنا عشر من الدراويش حفاة على ظهور المستلقين المتلاصقين، هل يكمن الخطر في الحصان الذي يعتليه الشيخ الذي ينخس من الخاف كي يندفع في المشي على ظهور المنبطحين.

لا يذكر المفزوع سوى أن أحدا ممن داسه الحصان لـم يصب بسوء، بل هب كل واحد واقفا بعد أن داسه الحصان.. فرحين أنهم احتملوا ثقل الحصان وخطاه دون الإصابة بأذى.

في خلوته بالعشة سمع زعيق الترجمـان ولغطـا مـن الناس حوله، يتساءل بأعلى صوته: نصف خلفـاء الـ دولتين الأموية والعباسية اغتيلوا يا خلق هوه، تفتكروا ليه، فكـروا معايا يا خلايق.

رد أحدهم مستظرفا تعليقه: يا عم هـو أنـت نسـيت المماليك وعمايلهم في بعض«الزقاق ضيق والحمار رفاص».

كوم المفزوع قبضة يده راميا ما بهـا خلـف ظهـره، بأسئلة وقلق الترجمان إلى خارج فضائه الأثيري.. واسترسل في ذكريات يراها للمرة الأولى حلوة وعذبة.

بحنين يستحضر ذكرياته مع أخته، قرأ لروحها الفاتحة كثيرا، إحساس بالذنب يتفتق عن مسامه، يذهب إلى قبرهـا بعيدان الخوص الخضراء، يكاد يسمع حفيف ثوبهـا ووقـع خفها حينما يذهب إلى تكية الشيخات، تصبره الشيخة الكبيرة بحديثها العذب، ويرى في كل شيخة شابة حنان أخته، نـوع من سلام الروح يغشاه، ردد لنفسه: سلام الروح!! لأنه عرف حمى الروح في الممارسات شديدة التعصب، ولا تنتهي هذه الحمى إلا بعد أن يوقع الشخص الأذى بجسده: أن تنـبجس الدماء منه، أن يقترف مع جروحه العنف كله كيلا تلتـئم... أين رآها؟ في أحد الموالد، ربما، ذلـك قبـل ٤٥ عامـا، لا يتذكر منها الآن سوى صهدها وظلالها الباهتة.

سيعرف المفزوع السلام الروحي الذي يروم إليـه فـي جلساته مع آمونيت، سمع عنها الكثيـر الطيـب، وحظـي بصداقتها، خمس وأربعون عاما مـن الصـداقة هـي هبـة المجتمع لهما حين شاخا وبلغا من العمر عتيا، ومع الترجمان يملكون حريات يحسدها عليهم، يكدحون إرضاء أو انفلاتـا من ربقة الجسد، ويحسد الترجمان وآمونيت صـغار السـن على عافيتهم وجمال مباهجها.. غير أنهم لن يسـتبدلوا أبـدا

ذلك الاحترام والتوقير من الناس الذين يلجئون إلـيهم ثقـة برحابة صدورهم وقدرتهم على تفهم مشكلاتهم، لن يستبدلوا أبدا حريـة أن يقولـوا، أن يعنفـوا، أن يتصـرفوا وفـق شخصياتهم وليس وفق رغبات الآخرين.

**ومن أجل السلام الروحي قرر المفزوع أن يكون لصق الترجمان في الدوسة.**

أوحى أحدهم لخادم الشيخ الضرير الذي سيقوم بالدوسة أن يستأذن شيخه ليأخذ الحصان إلى الحداد.

كان الحداد ورئيس الشرطة وحدهما يعرفان ما يجـب فعله، ومعهما قائمة طويلة من الأعداء السـريين للترجمـان الذين عرفوا فقط أنه سيلقى حتفه قريبا: كيف، أيـن، متـى؟ هذه الأسئلة يعرف إجاباتها رئيس الشرطة والحداد الحـاذق الذي قام بتركيب مدية حادة في حدوة الساق اليمنى الأماميـة لحصان الدوسة والشيخ زكريا.

الشيخ زكريا الذي سبق للترجمان أن ذكر اسـمه فـي هجائه الشهير لسوءات الدراويش، يحاول أن يـتخلص مـن رهبة الشيخ الضرير في دوسة العام الحالي، رص أجولة من الرمل، وحمس الشيخ الضرير لـ « بروفة » تمثيل مشـهد

الدوسة، وقال إنه سيصدر له نحنحات متباينة تعني أن يسيطر على سير الحصان في هذا الاتجاه أو ذاك، وخص نحنحة معينة يقوم الشيخ الضرير بمقتضاها بنخس الحصان على نحو يضطره إلى أن يركز ثقل جسمه وثقل فرسه على الساقين الأماميتين، واليمنى بخاصة، حتى يرى الجميع كرامة من كرامات الشيخ الضرير بأم عيونهم.

كان الأداء في البروفة رائعا.

قضى الشيخ زكريا والشيخ الضرير مع الدراويش بقية الليل في صلوات وأدعية خاصة، وبالتناوب استمرت حتى سحابة النهار الأولى.

بعد أن أنهى الحفاة دورهم في السير على ظهور رفاقهم، الذين تم ترتيبهم بصرامة لم تعرف من قبل، دنا الشيخ مترددا، ذلك التردد المعدي لحصانه الذكي، أجفل إلى الوراء، لكن التهليل باسم « الله » سبحانه وتعالى من المشاهدين والمنبطحين، إلى جانب الدفع والحث اللطيف للحصان، شجعه على أن يدوس بخفة على أول المستلقين، وأمسك اللجام شخصان يسبقانه في وطء الأرجل والرؤوس ويليهما الحصان، والمؤثرات الصوتية لنحنحات الشيخ زكريا

تلتقطها أذن الشيخ الضرير الرهيفة السمع، ومن ثم تقوده؛ إذ كان يمسك بلجام الحصان من الناحية اليمنى.

في حالة من قلق مبهم ممزوج بالوجد والنشوة والحب، شعر المفزوع أنه يحب: يحب « العلي القدير » يحب العالم، يحب صديقه الترجمان ومشفق عليه فهو ليس أهلا للدوسـة، فلم يكن يوما ولن يكون من جماعة الصوفية الذي يـؤثرون الباطن على الظاهر والترجمان يمنح عقله القول الفصل فـي أمور لا تتطلب إلا الإذعان، عبـر لا شـعوريا عـن حبـه للترجمان بأن تزحزح قليلا حتى أصبح لصقه تماما، فطاشت ضربة المدية المقصود بها طعن صديقه، إلى الكتف الأيمـن للمفزوع، افتداه، ولم يمسس الترجمان ضرر.

# الفصل الثالث

**« الوهم أشد رسوخا من الحقيقة، بل إنه متجذر فيهـا بالدرجة التي يضحى متطابقا معها ومطابقا لها تماما ».**

**جاك دريدا**

- مبروك!! مبروك!! ابنك شيطان.
- فال الله ولا فالك.. كيف تقول ذلك عـن طفـل فـي الخامسة؟!
- ألم تر أصنامه، إنه يعرضـها لـلأولاد فـي الـدرب الأصفر بالجمالية.

استغفر « مبروك » الله العظيم ثلاثا، تأجج الغضب في فروة رأسه، سأل زوجته فلم تنكر.

- متى حصل؟
- أنت تعرف ابنك، يدس يده وأنفه في كل ما أفعله فـي البيت، وذات يوم كان جالسا القرفصاء أمام نار الفرن مستغربا من مشهد قرص العجين الذي ينتفخ رغيفـا أسوانيا أو في رقاقات العيش البتاو، ولما كنت أرفض

أن يضع يده في الماجور، خرج إلى الحوش المبتلـة أرضه من المطر، وكبش في يده قطعة طين وسـواها مثلما أسوي العجين، وبكى ليجبرني أن أضـعها فـي الفرن.. غلبه النعاس، ولدى استيقاظه طالبني برغيفه، كنت قد نسيته، أخرجته من الفرن وفرح به، كان يبدو كالفخار.

ظل خائفا من نار جهنم خمس سنوات أخرى، حتى قرر أن يكون مشعلا للحرائق، يتجول هو والصبية لجمـع بقايـا الخشب ونشارته لدى نجاري المشربيات والأبواب بالجمالية، وسرق بعضهم أعواد الحلفا من بيوتهم ووفروا الكثيـر مـن عيدان الخشب الممصوصة، أتحفهم صـبي جـريء بهديـة رائعة: كمية لا بأس بها من الفحم الحجري.

في حوش بيت متهدم ومهجور بدءوا تجاربهم مفتـونين بصوت طقطقة الاشتعال، مترقبين هسـيس ألسـنة اللهـب، والصمت المتوهج.. عاد الطفل إلى لعبته الطينية، أصـابعه هي هبة الله إليه إذ جمعت بين القوة والليونـة معـا، بـدت أشكاله الجديدة أقرب إلى الواقع، حذا حذوه الصبية الآخرون.

النار والطين كانا سرهم الدفين.

* * *

هاهو الآن قد غادر القاهرة خفية بعدما أبلغه شيخ طائفة الخزافين أن الاختيار وقع عليه ليسافر مع السلطان سليم الأول إلى إسلامبول.

-لِم أنا بالذات؟

- لأنك من أمهر الخزافين في الفسطاط.

كيلا تقلق والدته أخبرها صادقا أنه سيقوم برحلة إلى مدن أخرى لاختبار « طينتها » أملا في الحصول على طينة أجود لأوانيه الخزفية.

- إلى أين ستقودك قدماك؟

- إلى الجيزة وربما إلى الصحراء باتجاه بحر القلزم.

جاءها من يسأل عنه ليكون في معية السلطان كواحد من أمهر الحرفيين، بحدس الأم عرفت أن ابنها قرر الفرار من وجه السلطان الغشوم، الفرار من السفر والغربة عن الوطن واللغة، بسفر أقل وطأة.. هل سيعود؟

في رشيد، لم يشغل نفسه بالتدقيق في كفاءة الطين، لا يصلح سوى للفخار هز كتفيه، وانصاع لحاله المأخوذ بجمال

المدينة ومعمارها وحدائقها، حدث نفسه: ( لم يتوفر لي وقت حتى أرى جمالا غير جمال مصر المحروسة ).

أنت الملوم، كرست نفسك طفلا في جمع شقفات الخزف من أطلال المدينة الكبيرة، والعبث الصبياني فـي فـاخورة الفسطاط، كانوا معلمين عظاما، تركوني ألهو بالطين واللون والنار قبل أن يظهروا الصرامة الواجبة لتعليمي ).

زفر الخزاف أسفا وواصل حواره الجواني: ( إن قيمـة طبق أو مزهرية أو سلطانية أو أي آنية أخرى من الخـزف عندنا لا تساوي شروى نقير دون الرسومات والألوان عليها، فكلها مصنوعة من مادة هشة غير جيدة قد تقرب من فخـار القلل والمواجير والأزيار ).

لا أعرف اسما لذلك الخزاف الشاب الذي ظل شابا إلى الأبد، ففي المخطوط لم يمنحه الترجمان اسما.

وقفت قليلا عند خط الترجمان، كان متماوجا كالديـدان، أو كنبش الفراخ، مائلا في الغالب، أيفصح هذا عن اضطرابه وتدهوره النفسي والعقلي بعد تعذيبه فـي السـجن؟ ربمـا، الغريب أن جدي نقل في مخطوطه ما يقوله عنه الآخـرون بأنه دائما يتحدث إلى شخص ما أمامه ( يراه هـو وحـده )

يمازحه ويهدده، ويقولون عنه إن الترجمان واحد من اثنـين: أن يكون عقله قد خف أو أنه مخاو ويحادث قرينه.

من ناحيتي أعتقد أن جدي قد أصيب بشلل رعـاش أو برعشة دائمة في يده ومن ثم كان خطه مهتزا.

وعودة للخزاف، أخمن أن الترجمان اكتفى بلقبه المهني كتعبير عن يبس روح الخزاف وتبلد مشاعره، وهذا ما أورده مرات بشكل عابر.

قلت لنفسي: ربما يكون جدي قاسيا، فمن المحتمـل أن الخزاف لم يكن يجيد التعبير عن انفعالاته، إلا أن خوضـي في السطور المترنحة لجدي ولأغوار هذا الشـاب، حملنـي على التسليم بأن الترجمان يعرف الطباع البشرية جيدا.

طاف الخزاف بالمدينة فائقة الجمال، يملي عينيـه مـن نظافة وبراح شوارعها ومبانيها: مسجد برسـباي، مسـجد فيروز الصلاحي، السوق والوكالات وزجاج المرايا، نخيلهـا وحدائقها، السواتر الممتدة على جدران البيوت من الخشـب البغدادلي في الواجهة الشرقية من المنازل، صهاريج الميـاه المبنية من الحجر الكدان والطوب الآجر: الفنادق المخصصة لتجار أوربة.

قادته قدماه إلى بحري رشيد، وسكن لعدة أشهر في بيت تحته طابونة وعلى بعد خطوات منها يقع معمـل نوشـادر يستفيد من قرب الطابونة ومن ثم سهولة نقل ما يتكاثف على سقفها وجدرانها من سناج لإنتاج النوشادر.

في بحري رشيد أيضا أحصى الخزاف ما لا يقل عـن عشرين معملا لإنتاج الطوب الأسود الذي طالما سمع عـن صلابته وقوته وحرص الأغنياء في كافة مدن مصر علـى استجلابه من رشيد.

مدفوعا بفضوله، سلم الخزاف رأسه إلى الحلاق الـذي أطلق عليه وابلا من الحكايات غير المكتملة، يقفز من حكاية إلى أخرى.

قاطعة الخزاف: أرغب في العمل في معمـل للطـوب الأسود.

- ما حرفتك؟

كاد يكذب ويقول فاخوري فاسـتدرك بكذبـة أخـرى: أرزقي.

وتذكر المعلم سعد الفاخوري الذي أنقذه من لبس البنات كعقاب له حين لا يرضى أبوه عنـه فيـأمر أمـه بتحقيـره

بذلك... لطالما توعده أبوه بأنه سيكون من أهل الجحيم إذا ما اقترف أقل هفوة لا يستسيغها، تخذله أمـه ولا تحميـه مـن انفجارات أبيه وغضبه، ظل يعتقد أنه كان بإمكانها حمايتـه، ألم تحمه وترع صحته الضعيفة حتـى لا يمـوت كإخوتـه السابقين، فعلت هذا استعانة بالحكماء تارة والخزعبلات تارة أخرى، لقد حمت حياته في حين لم تدفع عنه قسوة وإهانـات أبيه.. وحده المعلم سعد الفاخوري الذي اطلع على موهبتـه الكامنة، ورآه موضع سخرية أقرانه لأنه يلبس كالبنات.

استأذن المعلم أباه، رعاه وقدمه لمعلمي خـزف كبـار، تركوه يلهو بتأمل الشقفات والجلوس إلى الدولاب حتى تقوى أعصاب يديه وقدميه ويتأقلم وئيدا مع متطلبات المهنة شديدة الدقة.

أفاق من تأملاته على صوت الحلاق: وآدي يا سـيدي الحكاية كلها.

- أية حكاية منها؟

- الطوب الأسود وسر سوقه الرائجة

- نعم، ولماذا لونه الأسود.

- ليست لديك أدنى فكرة؟! إنهم يضعون الطـوب فـي أفران، ذات مداخل للنـار، دون مخـارج للهـواء أو الدخان فيتكاثف السناج على الحيطان والسقف ويتساقط على الطوب، طبقة فوق طبقة، فيكتسب اللون الأسود.

ستة أشهر قضاها كـ« فواعلي » يحمل الطـوب مـن وإلى الأفران، حتى وجد لقيته، الحقيقة كانت لقيتين، اللقيـة الأولى: مقدار درجة حرارة الأفران، مدتها، والمـدة التـي يغلق فيها الفرن ليبرد.. والثانية: رماد الأفران، هذا الرمـاد الذي حمله مرة وخلطه بالطين، قام خفية وبعيدا عن الأنظار، بوضع العجين المشكل كرغيف طفولته داخل الفرن، فاقـت النتيجة كل توقعاته مما سيشجعه حتما على التشـبث بفكـرة سيكون فيها مجده وحتفه معا.

خلافا لما قاله لوالدته، اتجه الخزاف غربا، كالمـأخوذ من نفسه، كالشريد، وجد جسده فوق جمل في قافلة تتجه من مرسى مطروح إلى واحة آمون / سيوه.

نبهته الصحراء إلى أنه توغل بعيدا عن السلطان التركي وعن إسلامبول وعن أمه وعن أية امرأة.

المرأة: إنه يخشاها، يخشى أن تشفطه، تلتهمه، بارعـا كان في الهروب اللبق من عروض الزواج، إنه شيء أقرب إلى الاغتصاب بالنسبة إليه، يعتقد أنه يستخدم ذكاءه لتلافـي ذلك، كلما ازداد هروبه من المرأة، كلما اسـتحكم الهـوس برأسه، فيرسم جسدها على الأطباق والزهريات، جسـد دون رأس أو وجه، وإن كان ثمة وجه، فهو يموه في تحريفه حيث تتداخل ملامح امرأة مع ملامح مخلوقات خرافية.

الوجه الأنثوي الذي رسمه، كان وجه امـرأة عجـوز ردمته التجاعيد، جدة كبرى تجـاوزت الـزمن، لا تفاجئـه بالأنوثة أو عبقها، قدم لها بأصابعه الفنانة أو هي قدمت: لـه العيون العارفة.

عيون عارفة!! أحبها وأخافته، يهلوس بأنها قـد تقـدر على استنطاقه عن شهر ميلاده، أو عام ميلاده، عـن اسـمه واسم أمه، ربما درست الأبراج والأعداد ووفق الحـروف.. وتضمر له الشر.. وتؤذيه بعيونها العارفة.

على قلة كلامه مع رفاق القافلة، كان يؤكد ما قال فـي نهاية جملته بصوت أنفي / أخنف واهن: هِئ... اعتقد الرفاق أنه يضحك عند نهاية كل مقطع من كلامـه، تشـديدا علـى

آرائه.. وحده قائد القافلة عرف أن ( هِئ ) الأنفيـة كانـت تأكيدا لذاته التي لا يثق بها غالبا.

رائقو المزاج، كان حال أفراد القافلة، فهذا العام المطير، أبدع لهم طبيعة خلابة في نهاية مارس فـي الطريـق مـن الإسكندرية إلى مرسى مطروح، ألوان بديعة علـى جـانبي الطريق، وحقول الشعير تخالطها زهور الخشخاش الحمـراء والأقحوانات البرية: الصفراء والبرتقالية والبيضاء.

لم يعجب الجدب الصحراوي الأصفر أحد المسـافرين: ما من نبتة صحراوية واحدة، ألم تمطر بالأمس؟!

رد قائد القافلة: غالبية بذور الحشائش الصحراوية غالبا ما يشوبها الحذر.

- الحذر؟!

- نعم إنها لا تنبت إلا بعد عدة أيام من سقوط المطـر، تتريث حتى تتيقن من أن الماء باق حيثما نزل، وليس كما الزائر العابر يطل وسرعان ما يمضي.

سلسلة من الكثبان الهلالية، لفتت أنظار الخزاف، ظهـر الهلال المقوس يواجه الريح، وقرنا الهلال يشيران إلى اتجاه الريح، واحد من تلك الكثبان تشكل هـلالا وثـديا فـي الآن

نفسه.. أقصى ارتفاع الهلال في وسطه اتخذ شـكل حلمـة الثدي.

خلب لبه هذا المنظر المثير في غرابته وجماله، فترجى قائد القافلة أن يستريحوا قليلا، رد: لحسن الحـظ سنسـتريح بعض الوقت إلى جانب هذه البئر هناك.

- بئر.. أين؟ لا أرى سوى أوان فخارية متراكمة.
- هذا هو الجانب الظاهر، فهما جداران يحيطان بالبئر، يحميانها من الرمال، وصدارة هذه الجدران المواجهة للريح يرص عليها أوان فخارية كي تجتذب فيها سـفا الرمال الناعمة.
- بقي الخزاف ساعات يتأمل المشهد، مستغرقا، ملتـذا، ومنتعشا بالنسيم غير المرئي وهو يعمل نعومته علـى تطهير وإزالة الرمال الدقيقة من على سطح الكثبـان، فلم يعول « المسحور» أهمية على التلاشـي البطـيء للمشهد، فقد تمثله داخله وتوحد بـه. ولمـا ارتفعـت صيحة بأن يعودوا إلى ركائبهم، لم يعد ثمة ثـدي، أو هلال، أو حتى الكثبان.. مجرد أرض مستوية بياضها

غافل عن الصورة الفنية التي احتلـت مقامهـا قبـل ساعات.

**ولن يترك لورثته سوى آنية خزفية بهذا الشكل.**

فزعت خيالات الخزاف على إثر الصوت الآمر لقائـد القافلة: باقٍ أربعة أيام ونصل إلى الواحة، عليكم بالصمت ما أمكن، فهو يقلل من الظمأ مما يوفر بعـض المـاء ليكفـي الجميع.

فكر الخزاف: كثبان، هلال، ثدي، ظمأ؟!

استغرقت رحلة القافلة تسعة أيام من شـاطئ مرسـى مطروح، حتى وصولها إلى مـنخفض، تزامنـت نظـرتهم الأولى إليه مع صيحة ابتهاج: ها هي حـدائق النخيـل فـي الواحة، ها هي عيون الماء الجارية أخيرا، ها هـي واحـة آمون.

خلفت القافلة وراءها صحراء قاحلة.

مر الخزاف بعدة قرى وبحيرات مالحة حتى وصل إلى « شالي » المدينة التي أنشئت قبل ثلاثة قرون لتأمين أهلهـا من غزوات البدو والعرب، التحق بالعمل مـع الفاخوريـة، اعتبروه شخصا غريب الأطوار، عادة ما كـانوا يتبـادلون

النكات عليه، إذ يثير تشاؤمهم أن يقطن بينهم غريب حتى يألفوه.

لم يعرف الخزاف ذاك حتى ارتفعت مكانته في الواحة واستضافه علية القوم ليشاركهم في مجالس الأجواد، وهو مجلس كبار عائلات الواحة، يتحدث معهم بلغتهم الثانية: العربية، ويعمل ذهنه على لغتهم الأقرب إلى اللغة البربرية.

في الواحة أضفى الخزاف أسلوبه الراقي ولمساته الفنية على آواني الفخار، متيحا للناس الاستمتاع بشرب ماء القلال في الشتاء دون برودة تصطك من لسعتها الأسنان وسائر الفم، فقد أصقل الجدار الخارجي للقلال بطبقة شفافة، لا تسمح بتبخر الماء. وأنتج أشكالا دقيقة لا تحصى من شبابيك القلال التي توضع في نهاية عنق القلة لحماية الماء من التراب والشوائب، شبابيك أو مصاف داخل العنق، من يتأملها يدرك مفارقة في جمالها الداخلي مقابل بدن القلة الخارجي الخالي تماما من الزخرف.

اعترض رجل من الواحة: لِم هذه المصفاة البديعة؟! إنني أضع فوهة القلة على فمي وأشرب، ما فكرت مرة أن أنظر إلى هذه التخريمات وأشكالها الجميلة في المصفاة.

رد الخزاف: المرة القادمة، متع عينيك بجمال الشـباك قبل أن تشرب منه.

ومن أجل خاطر الأجواد وحدهم، أبدع الخـزاف حـلا لمشكلة طالما أرقت أهل الواحة؛ إذ توصـل إلـى تغطيـة « الكرشيف » بطبقة غير مسامية، أبقت على منازل الأجواد / الأثرياء صامدة في وجه الهطول الغزير للمطر.

... أما العامة فقد هجروا منـازلهم التـي بنيـت مـن الكرشيف العادي المصنوع من طين يؤخذ من أراضٍ مشبعة بالملح، وحين تجف تصبح شديدة الصلابة وتبقى على حالها طالما ظل المناخ جافا. تشارك أجواد الواحـة لبنـاء فـرن يخصص لإنتاج الخزف كما اقترح الخزاف، يباع إنتاجه إلى القوافل الإفريقية التي تمر بالواحة في طريقها إلـى حـج أو تجارة.

بات الخزاف يشارك في مجالس الأجواد، يتبادلون الملح والنوادر على أولاد البلد القادمين من مرسى مطروح، حتـى قوافل الأفارقة والبربر العابرين لا تسلم من ألسنتهم، أصـبح مثلهم ينظر للآخرين كأغراب.

سألهم يوما عن لغة أهل الواحة التي لها الجرس نفسه للغة قوافل البربر.

قال أحد الأجواد: ربما اكتسبنا ذلك من المرور الدائم لقبائل البربر بالواحة.

- لو صدق ذلك، فلم لا يبدو أن لسانكم قد تأثر بلهجات بالقبائل الإفريقية؟

- صلة نسبنا ومصاهرتنا للبربر ضاربة في القدم.

من المحظور أن تمر النساء أمام مجالس الأجواد في طريقهن إلى السوق أو غيره، عليهن أن يتخذن طرقا ملتوية أخرى للوصول إلى ما يبغين، غير أن عددا من النسوة واتتهن الجرأة للمرور أمام المجالس، ضاربات بعرض الحائط التقريع الذي سيتعرضن له، مخبولات كن بالخزاف، يترقبن أن تفتر شفتاه عن ضحكة أندر من العنبر، وأن يبين عن صفي أسنانه، بياضهما، ونَظْمهما الجميل، ولا ينسين أن يزجين نظرة ولهى لرقة أصابع يديه، أصابع منسابة لينة، مسترخية برشاقة كأنها بلا عظام.

لم يجرؤ أن يتعشق إحداهن، وحذا حذو الزقالـة مـن حرس وبستانيي الأجواد في الذهاب إلى الخـواطي خـارج المدينة.

بصفافة قال أحد الزقالة: هذا حقنا.

باندهاش سأل الخزاف: أليس الزواج أفضل لكم؟

- نعم، لكنه يمنعوننا من الزواج حتى نبلغ الأربعين.

للخزاف قدرة كبيرة على الإغواء، هذه وسـيلته التـي اهتدى إليها في طفولته ليحظى بالحماية والعطاء، يسـتخدمها الآن كبيرا لنيل أغراضه ولاجتذاب محبة أهل الواحة وقبوله بينهم.. مع المرأة يبدي ظرفا وإلحاحا طفوليين، يوحي بـأن له قدرة على العطاء وجسديا.

نساء مجربات كالخواطي عرفن جوهره.

جرب الخواطي كلهن، الواحدة إثر الأخرى، لم يشـعر بحنين أو ارتباط بإحداهن.. كلمة حنين غائبة عـن قـاموس مشاعره، فلا شعر بها حيال أمه، ولـن يشـعر بهـا تجـاه زوجته.

من فرط استغراقه في العمل يدهمـه التـوتر، يفسـره باحتياجه لامرأة، تزيل توتره، رغب أن يعيـد الكـرة مـع

الخواطي واحدة فواحدة، لا بد أن يتسربل بإغوائه كي تتقبله المرشحة من الخواطي تقول واحدة منهن: غيـر مسـتعدة، اذهب إلى أخرى.

رفضنه الواحدة بعد الأخرى.

قالت أحداهن لرفيقاتها وقد خانها التعبير: بخيل.. بخيل، بخله يجرحني.

- إنه يدفع مثل غيره.

- أقصد ما من دفء أو وداد.

- تريدين ودادا مصطنعا؟!

- أقصد دفء طبعه، ليس في جبلته أن يهتم بالآخرين.

قالت أخرى: برودته زمهرير قارس، أنا الثرثارة، سيدة الحواديت، أجد نفسي معه خرساء، لا أدري ما أقوله لشـق جبل الثلج هذا.

- جبل الثلج، وهل رأيت في حياتك جبلا للثلج؟

- إنه في الصحراء البيضاء، ألا تتذكرين؟

- آه، تقصدين جبل البنور.

حسمت ثالثة النقاش: يا ستات هو مذهول عـن نفسـه، بعشق نفسه.

كانت المسألة التي بدأت تشغل بـال الخـزاف: كيـف يستغني الإنسان عن العالم ويعـيش مرتاحـا؟ الخـواطي، الأجواد، القوافل المارة تحرمه مما يبدع من خـزف مقابـل نقود لا تعني شيئا بالنسبة له حتى لو قبض وزن خزفه ذهبا، يظل الشيء الثمين له والذي لا يقدر هو خزفه، وقرر: لـن أتخلى عن خزفي بعد الآن، كلهم.. كلهم.. محروق أبوهم.

يطلبه الأجواد للجلوس معهم، يعتذر بحجة مراقبة درجة حرارة الفرن، أو بدء تشكيل طينة جديدة.

- لا نرى منك الكثير من الخزف.

- اكسر تسعا وأبقي على العاشر.

- ما معنى هذا؟

- أحاول على الأقل تسع مرات حتى أرضى عن الخامة واللون.

بمجرد أن ينطق بلسان المعتذر على الدعوات الموجهة له.

يرد الناس: لولا الكاسورة ما كانت الفاخورة.

تركه الناس لحاله.

بلغ هوسه بعمله أنه كان لا يخرج من محترفه أسبوعا، تهيمن عليه طقوس « القلق اللاإرادية » حتى تخمد حـرارة الفرن، ويرى بعيني خياله الأواني قطعا حمراء ملتهبة، تبرد تدريجيا، فتبدأ الألوان في الإشعاع حسب ألوانها البـاردة أو الدافئة، أو ألوان معدنية: برونزيـة وفضـية ونحاسـية، أو الفيروزي والأحمر المعدني معا.

ويخشى أن تزيد حرارة الفرن رغما عنه فتحول اللون الأزرق إلى أسود، أثناء ذلك يسد جوعـه بطعـام جـاف.. علاقته الحميمة الوحيدة تزدهر مع أطباقه وأوانيه ونغمـات الخط العربي التـي تؤطرهـا، ورسـومه للحيـاة اليوميـة والحكايات الشعبية.. ويضطر آسفا إلى مقايضتها بأنواع من رماد احتراق أخشاب أشجار استوائية ومدارية توفرهـا لـه قوافل عابرة.. يجري تجارب بخلطها مع الطفلة، ليسـتطلع مدى صلابة الخزف المنتج ورنينه الخلاب.

يتناول حشيشة « البلادونـا / سـت الحسـن » سـت التهيؤات والهذيان، ويدخل الخزاف في حالة من توهان العقل يوسع الطريق حتى يتربع « لا وعيه » على عرش الخلـق والابتكار: يرى نساء مبهرات الجمال، مخلوقات أسـطورية،

تستدير رؤوس خزافي مصر الذين اقتيدوا إلى إسـلامبول، يومئون إليه، يضعون حملا على كاهلـة: أن يكمـل وحـده مشوار الخزف الإسلامي هنا في مصر، يقولون له: لا جديد إلا من يديك، ابتدع جميلا، ابتدع جليلا.

سيطوي نفسه داخل صمته طويلا، هادئا وعاكفا علـى التجريب. ما يؤرقه أن جمال الآنية التي يبدعها فـي خيالـه يصل حد الكمال الصافي ويراها تعيش بعده مئات السـنين، غير أن يده لا تجني سوى ما هو أقل بكثير من خياله، يحفز حاله: من أجل خزف يهزم الأيام، اهزم نفسك وألجمها إلـى الفرن دون العالم.

في غضب كتوم زلزل نواحيه، انتهى إلـى أن يتـرك الأمر كله، أن يذهب بعيدا، أن يحصل على رمـاد مختلـف وطفلة متميزة، رماد مثل؟ ربما خشب البلوط!! ( حقا أنـي أحمل نفسي الكثير من التوتر والتحسب والخشية، في حـين أن الرسومات والزخارف البديعة والألوان الأخاذة، تأتي فقط مع خلو البال وراحته ).

رحل الخزاف عن الواحة بذريعة البحث عن جديد مختلف، في قرارة نفسه، كان يجرب مع نفسه غير المطواعة لعبة أخرى قد تريحه وتسد ثقوب روحه، ألا يهتم.

## (٢)

في اليوم الأول لوصوله دمياط، لاحظ أن الكل ساخط، حقيقة أن السخط ليس جديدا على المصريين، إلا أنه هذه المرة يوشك على الانفجار، عندما تواترت شائعات أن القيامة ستقوم الأسبوع المقبل، رنت في أذنيه الكلمة الأثيرة لدى الكل: لا رحمة، لا راحة، لا عدل إلا في الآخرة، فهي عزاؤنا.

تمتم لحاله: إنهم يصنعون قيامتهم.

هل يشتري أخشابه، الأسواق والشوارع مكتظة بوجوه قلقة، وأخرى مفزوعة، وثالثة تبتسم دون واعز، ما توقف الناس عن العمل، حيث كانت الخطبة المقررة في جميع مساجد دمياط: « حتى لو قامت القيامة غدا وليس السبت القادم، فليسارع كل منا بغرس فسيلة، إعمار الأرض حق واجب إلى اللحظة الأخيرة ».

الكل ينتظر يوم القيامة: يوم العزاء والسلوى، والمغـانم اللذية، وغيـاب الفقـر والجـوع وشـتى صـنوف القمـع والاضطهاد.

يتشوق الفلاح: لا كرباج، لا خراب، لا مال السلطان.

والفقراء: الفوز على الأغنياء ألن يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا، ألم يقل سيدنا محمـد ﷺ: « **أطولكم حزنا في الدنيا أطولكم فرحا فـي الآخـرة، وإن أكثركم شبعا في الدنيا أكثركم جوعا في الآخرة** ».

والقبطي: لا ضرائب مزدوجـة، لا لـبس الغيـار، لا ركوب الحمار بعرض الأكف من جانب واحد.

اليهودي: يحتمي بالقيامة درءا للحسد إن كان مـن ذوي المال أو النفوذ، لا طرطور أسود يعتمره كلما ازداد التشديد على زي أهل الذمة لدى كل اشتعال حقيقي أو مزيف لفتنـة طائفية، بوقوع القيامة لن تنصب لهم محاكم تفتيش وطرد.

انطلق خبر الآخرة من كنيس يهودي، زعم رجالـه أن الدراسة العددية لحروف الكلمات في العهد القديم، تبـين أن كارثة محققة، كارثة قاضية ماحقة ستحدث الأسبوع المقبـل، والأرجح هو يوم السبت.

ولأن التنجيم عن طريق « وفق الحروف والأعـداد » إضافة عربية أصيلة لعلم الفلك والتنجيم، أعلن بعض الشيوخ أن كارثة القيامة واقعة.. لم يتأخر القساوسـة كثيـرا فـي الانضمام لركب المروجين لقيام القيامة.

أصبحت القيامة هيستيريا جماعية، أججهـا متعـالمون قرءوا أحداث القحط والمجاعة والأمراض والأوبئة وفسـاد الحكام، على أنها علامات اقتراب الساعة.. بقيـت علامـة واحدة لم تظهر، قد تتجلى في بحر أسبوع من الآن، يقصدون ظهور « الدجال الأعور » واحتدام المعركة الفاصـلة التـي ستستخدم فيها الخيل والسيوف والحراب فقط.

سأل صبي بريء: ماذا عن مدافع العثمانيين؟ السـيوف والحراب لا تكفي، إن مدفعا واحدا قد يبيد جندا ومدائن فـي وقت أقصر كثيرا مما تحتاجه أسلحة القيامة، لماذا لم تتضمن نبوءة الدجال الأعور استخدام المدافع كسلاح فـي المعركـة الفاصلة؟

رد غياث الصباغ: كل علوم الحسابات التـي لا تخـدم العبادة، تعد شركا بالله تعالى.

احتار الناس: هل يوافق الصباغ أم يعـارض التنجـيم بوفق الحروف والأعداد؟

لم يغير ما قيل عن قيام القيامة من مسلك ليل وطقـوس عملها اليومي.

في خوف وعشق تترقب سنانية اليوم المشـهود، قلـق طفيف خيم على مزاجها.. تحلم أحلاما كثيـرة ولا تتـذكر منها سوى حلم واحد يتكرر يوميا: أنـاس أغـراب تتغيـر ملامحهم من حلم ليلة إلى أخرى يجذبونها إلى الرقص.

زارت تكية الشيخات لتفسير الحلم: سوف تنجـين يـا صبية من شدة وتهمة، هذا ما قالته لها شيخة مسنة.

صويحبات سنانية أوصين بعضهن بعضـا: احضـري شالك المخرم / الشفتشي، احضري طرحتك الشفافة، سنجتمع في الخرابة البحرية مع الأنس والمرح الطرب.

لاحظ الناس قبل توجههم إلـى الخرابـة حالـة تـوتر وركض للفئران والقطط مع أصوات مكتومة لعواء ومـواء وخوار وصهيل، اندفعت حيات من باطن الأرض إلى الحقول والبساتين.

لم يتعجبوا، فأخبار قيام الساعة في هذا اليوم بالتحديد قد سمع بها القاصي والداني، لا مفر إذن من التصـديق وتلـك أولى العلامات.

لما استوى القمر بدرا ليلة السبت، وعلى نغمات الجنك، قامت راقصة لا ترتدي سوى طرحة شـفافة مسـدلة علـى جسدها، تتلوى ذراعها اليمنى موجهة يـدها مثـل كـوبرا مصرية، فيبين الثدي الأيسر والردف الأيسر، كانت الطرحة تتماوج مدا وجزرا على قامتها الهيفاء..

ضج المكان بأصوات ضحايا غوايتها، يتصايحون مادين أيديهم تستجدي لمسها، وإن لم يكن فسوف يمسـون الهـواء بالقرب من جسدها.

أنهت « بيسـي » الرقصـة واحتجبـت، تصـاعدت استنكارات الحضور، نساء ورجالا، عادت مغناجة، دعـت بإصبع آمرة الفتيات للانضمام إليها، عقدت الفتياتات الشالات والطرح على جنوبهن، هنا تحلقت سنانية وصويحباتها تحت ضوء القمر، بدت أجسادهن اللدنة وكأن لاسمك لها، مـع أن القناديل والشموع قد ضخمت ظلالهن الساقطة علـى حلبـة الرقص.

في هوس النشوة انضم الرجال والشباب، فكوا العمـائم من على رؤوسهم قذفوا الطواقي إلـى الجالسـين، رقصـوا بالعصي، رقصوا كالدراويش، ذابوا مـع مناديـل الشـوام الملوحة بأيديهم في رقصة الدبكة.

انتشر تجار نبات القرض من الغجر وزوجاتهم البلانات في الخرابة لبيع الحشيش الذي صحنوه صباحا، وأبي النوم / الأفيون والبوظة وخمور سالونيك.

بعد أن نفدت بضـاعتهم، جلسـوا للراحـة، أحصـوا أرباحهم: كانت كبيرة، سألت غجرية: ماذا نفعل بالمال وقت وقوع الواقعة؟

دارت ألسنتهم في أفواههم المفتوحة زهوا وانتصارا، لم يصرحوا: سنلتذ بدفء الماس في أحضـاننا، نحـن الـذين ضربتنا الفاقة وأذلنا العوز.

قسموا الأرباح بينهم بالعدل والقسطاس.

حاضرة بقوة كانت الأجساد: حرة، منطلقة، ثمة أجسـاد لم تكن بحاجة إلى تسميات لبقة ومرائية « ذوو الاحتياجـات الخاصة / المعوقون » أو « عينه كريمة، أو بصير/ كفيف» أو « سالم / مريض » أو « حلو / قبيح ومشوه »... إلخ.

ففي لحظة إنسانية وساخرة، لم تبعث هذه الأجساد فـي الآخرين خجلا من قبحها وتعوقها كأنما ينظرون إلى عـورة شائهة، قد تجرح أنظارهم المنعمة والرهيفة، ولم تثـر هـذه الأجساد نفسها أي إحساس بالافتخار لدى المشاهدين لأنهـم وهبوا أجسادا جميلة أو فتية وقامات عادية أو أخـرى تـدير الرؤوس، تناغم العارضون في إحسـاس بالسواسـية مـع الجمهور « السوي » - الشكل بـالطبع –، الأسـوياء الآن يضحكون بقوة لمن يستعرض حدبته، كرشه، فمه الواسـع، فمه الأهتم، أو صلعته اللامعة، ضـحكوا مـن تشـوهاتهم، تشوهات النطق والجسد، ومن الأصوات القبيحة الخارجة من فتحات الجسم كلها.

نال كل عارض التقدير والإعجـاب والقبـول، فقبلـوا أنفسهم، كلٌ شعر أنه لا يمتلك جسدا منفردا ومتفردا، بل هو جزء يعتد به، ليس مهمشا أو منبوذا، في جسد العـالم مـن أرض ونهر وحقول ونخيل وخلايق.

تخلى الجميع عن الرصانة واللياقة الاجتماعية، أظهروا صلفا تجاه السلوك المنضبط، لا يعرفون هـل سـيحررون مكبوتاتهم لبضع ساعات ويعاودون حياتهم؟ أم أنـه مشـهد

ختامي لحياة تشـدقوا فيهـا بـأخلاقهم الحميـدة وإيمـانهم واستقامتهم.

صمت الجميع دهشة، حـين دخلـت السـاحة مارقـة وبرشاقة مدربة، امرأة ذات عجز ضخم نافر، قياسـا إلـى حجمها الضئيل.. قهقهوا مع كل خطوة رشيقة لها في حلبـة المشوهين، أحس المشاهدون بتوتر اهتزازات فـي بـدنها، أصيبوا بهزات عذوبة ونشوة من ذبذباتها الغامضة وأمـواج الفرح في جسمها، شاركوها حركاتها، تتشخلع وتلعلع برنين الترتر والحليات المعدنية في أطراف ضـفائرها وحواشـي ثوبها.

ظهرت مستاءة نقيضها تماما، امرأة غاية في النحافـة دون أي ملمح أنثوي على الإطلاق، وأهدتها خلعا من فـرو السمور الذي خلعه السلطان فقط على الولاة.

أمطرتها ألسنة الرجال بسؤال: من أين جئت بهـذا يـا أخينا؟

بوقار شديد استردت المرأة خلعتها، لكنها خلعت علـى رأس الراقصة، ليس تاج الجزيرة؛ بل تاجـا مـن شـمعدان مضيئة شموعه.

رقصت الأخرى بتوازن مبهر، والشمع المنصهر يسيل على أردافها. لا تبدو أنها تحس بأية لسعة من شدة اندماجها، باعدت بين ساقيها، أرجعت رأسها إلى الوراء، وقفزت في حركات بهلوانية.

من فرط انفعال الجمهور، لم يلحظوا شيئا عرفته سنانية، دقيقة الملاحظة، أن هذه الراقصة تشبه راقصة الطرحة.. ربما كانت أختا لها؟!

انتهت الرقصة بتهليل خليع من جمهور نصف مسطول، نصف سكران. أطرب الراقصة هتاف الجمهور، مدت يدها خلف ثوبها، أفلتت – قاصدة - شيئا ما، سقط شيئان متكوران، ألقت بيسي إلى الجموع وسائدها أو أردافها الصناعية التي تحميها من الشمع المنصهر.

في الجهة الأخرى من الخرابة، قامت كودية الزار بطقوس سحرية أمام عدد من الخراف قبل نحرها، وإعدادها شهية لآخر حفل شواء يشهده العالم.

لينعم كل بمتعته الأخيرة مؤملا في أن تمطر السماء الكواعب الأتراب.

في بيت بصل، يتلو غياث الدين القرآن بعد أن تعلم تجويده أخيرا في دروس جماعة اليقين والتقوى.

ليث الدين الذي كان في إجازة – اعتقدتها عائلته من عمله في ثغر أزمير – أعلن بينه وبين الله توبة نصوحا عن عمليات السطو والقرصنة في عرض البحر.

سنانية تسحبت من البيت سرا لقضاء ليلتها الأخيرة على الأرض لاهية في فوضى الخرابة المطلة على النيل.

ليل بعد أنهت صلواتها، تراقب نضوج البامية في الطاجن الذي رفعته على نار هادئة بالكانون في حوش البيت، تتأمل: حتى قبل لحظات على القيامة، إذا صدقت النبوءات، ألا يفرض البدن إشباع حاجاته من جوع أو عطش، أو يستجيب لإلحاح بالتبول.

أشاحت هذه « الدنيوية » التي تفتقر إلى الروحانية بيدها، كان حوارها الجواني لا يعجبها، وفكرت: « لماذا نقلق؟ هل سيغير الله سبحانه وتعالى من خط قدرنا، لأننا أفرطنا في قلقنا، وأخلصنا فيه، وكأن هذا القلق له مفعول حجاب أو تعويذة يرتديها المرء منا قد تمنع عنا الأذى!! ».

تكلم نفسها بصوت مسموع: الناس بقت مـش طايقـة بعضها، علطول يهبوا في وش بعض زي زعابيب أمشير.

قبل أدائها صلاة العشاء، كانت قد وصلت للتو من بيت بائعة الخضار، تلك البائعة التي حولت ملابس الزبونة التـي كانت تقلب كوم الطماطم لانتقاء أفضله، إلى شرائط ملونـة تفضح عريها، وجنود الانكشارية بالسوق تتلمظ عيونهم لهذا المرأى، في خيالهم سبحوا وتمرغوا في ملاءات مخملية مع الضحية، ولن يتدخلوا حتى تستنفد الواقعة متعتهـا الحسـية بالنسبة لهم.

بالمصادفة كانت ليل قد اشترت قماشـا مـن الكتـان، صحيح أن البائع طفف في الميزان وهو يزن لهـا القمـاش، لكنه أكرمها بخصم في السعر، لما رأت ليل الحادث اخترقت مسامها الرائحة الحريفة لفضيحة امرأة سيحكي عنهـا أهـل دمياط النمامون أسابيع طويلة، فسارعت برمي ثوب الكتـان على شبه العارية.

لأنها استفزت استلات بائعة الخضار من تحـت لسـانها شفرة حادة، وانتقمت من هذه الزبونة التي تجادلها في سـعر

الطماطم، وأثارت غصة المرارة في حلقها لطريقتها المتعالية في الكلام.

في عز المعمعة النسائية نادت ليـل بائعـة الخضـار ضاحكة: يوه، يا وليه!!

- عايزة إيه يا عرة الخوندات؟

- وشك كان منور لما عديت عليك الصبح!!

- زي ما أنت شايفة..

إثر تنهيدة وزفرة، وضعت الشفرة تحت لسانها مجـددا، فاردة راحتي يديها متسائلة، مستنكرة، وارتفع كتفاها كقطـة غضوب تقبب ظهرها.

فكت ليل منديلها وناولتها كعكة محشوة بعـين الجمـل، مدت يدها الأخرى لتستر المرأة الأخرى بالقماش.

- خذي يا ختي يرجعلك الورد في وشك، يلعن أبو الشقا اللي احنا فيه.

انصرفت رقابة الانكشارية تبحث عن موضوع آخـر، بعد أن سترت الضحية من شعر رأسها حتى أخمص قدميها.

برطمت الضحية باكية ومنصرفة.

- استني شوية، ها وصلك لبيتك في سكتي، ما تمشـيش لوحدك.

وجلست إلى جانب البائعة تأكل كعكة بيد، وتنقي حبات البامية وتسأل عن الحجم المطلوب لطبخه في الطاجن، وفي ساعة المغرب كان النسوة الثلاث يتسامرن ويتضاحكن فـي بيت الضحية شحنتهما ليل بنكاتها المكشوفة.. سـألت بائعـة الخضار نفسها: لِم لا أعتبرها قليلة الحياء؟ تلقي هذه النكات وهي عانس غير متزوجة، ما سمعت أن رجلا أو امرأة قـد عيروها بعنوستها.. ما السبب؟

واستراحت لتفسير أن ليل بنت بسـيطة، لكـن النـاس تقدرها ولها هيبة.. استدركت: امرأة ولها هيبة!!

في هذا اليوم، حدث تداخل بين برج العقـرب الحسـي وكوكب المحبة فينوس / الزهرة، مما جعل الناس مفـرطين في عاطفتهم وحسيتهم وانفعاليتهم.

في الخرابة، ساد الوجوم وجوه الناس، إذ ظهرت بيسي بثوب يضج بألوان الجحيم، ألوان نارية من الأحمر والأصفر والبرتقالي. دارت حول نفسـها باسـطة ذراعيهـا لأعلـى كالدراويش، تطايرت أطراف الثوب، لتحدث صدمة وروعا،

الأطراف تتطاير لهبا، جسدها اكتسب لونا ذهبيا، مع خـداع الإضاءة، ولم تكن ذهبية بشرتها هي الخداع الوحيد، قليل من اكتشف أنها ترتدي عدة أثواب، همس كل إلى جاره، أثلجت صدورهم.

بدت مظاهر فزع وألم على وجه بيسي، كادت تصرخ، قلق مشاهد غرير، كاد يهب لنجدتها، المطلعون سابقا علـى الحيلة طمأنوه: لا شيء خطير، فقط تمتع.

شرعت يدا الراقصة تجوسان جسدها، مع ثبات سـاقيها في المكان ترتجفان من القدمين وحتى البطن، محبطة لم تجد ما يعذبها، فخلعت الثوب الأول، ولم تجد..

- عم تبحث؟

بصوت هامس: النحلة.

سترت بيسي الأجزاء التي عرتها حين لم تجد النحلـة التي تواصل بعناد قرصها وإيلامها.

يتذبذب خصر بيسي في اهتـزازات يتصـاعد عنفهـا وتلاحقها، كأنها تطارد النحلة في دائرة سـحرية مرسـومة حول قدميها، لا تتجاوزها مطلقا، تلك هي مساحة وقفتها على الأرض، إلا أن الفضاء وحده يتسع لانحناءاتهـا، تشوشـها،

لخلعها، وتسترها، وصفاء خاطف أحاط ذهنها، إلى أن نضت عن جسدها، المعذِب والمعذَب، كل ألوان النـار، ولدهشـة الجمهور لم تكن بشرتها ذهبية أبدا، كانت مـثلهم ذات ألـق فضي لقمر في تمامه، جم التردد.

لحظة سكون سبقت دوي أجـراس الكنـائس الـثلاث: القبطية، الكاثوليكية، والسريانية.. تعجب ناس الخرابة، هـل تدق الأجراس مخالفة لفرمانات السلطان؟

هل تدق الأجراس ليوم القيامة لأنه ما من سلطان الآن؟

تميد الأرض بهم، وعلى البعد تراقصت البيوت: إنهـا زلزلة القيامة، أليس كذلك؟

من أعياه ترقب القيامة داخل البيـوت والمبـاني، لـن يعرف ما حدث في الخرابة لأنهم ناموا إلى الأبد.

تساقطت الجدران بعضها على بعض وكأنها مصـنوعة من الخشب المضغوط، أما المناطق السـكنية المبنيـة مـن الطوب اللبن أو الحجارة غير المتينة فقد تحولت إلى أنقاض.

كادت الأرض تتخلّع، فهوى سقف خشبي علـى رؤوس أصحابه، وتداعت الجدران نحو الخارج، لم يكن الرجل البنّاء أمينا بدرجة كافية ليحكم تعشيق السقف بالجدران.

وتمثلت الحارات الضيقة والبيوت المتلاصـقة رغبـة سكانها في الأمن والتعاضد ضد سلطة ما جائرة.. فلم يتمكن الزلزال من إحداث أية أضرار بتلك المباني الضعيفة، ففـي التصاقها، دعم كل بيت جاره.

ومن توابع الزلـزال، كـان انخسـاف الأرض حـول الخرابة التي ستُسمى من صبيحة الغد بـ « خرابة الفـل » وعلى مرأى ناس الخرابة، تدفقت الميـاه الباطنيـة حاملـة الخبث من الرمال والأوساخ حول الخرابة.

انجدلت مشاعر هجين من الانتشاء والافتتان بمشـاعر الخوف والفزع مع شعور بالراحة لأن ضررا لـم يصـبهم، مثل عقارب ساعة مهووسة بالـدوران دون هـاد، ارتبـك الجميع في لحظة الإحساس بخطر سيطول كل شيء.

الخزاف كان مشغولا بأمر آخر، صوت فتاة أو امـرأة، بحث عن مصدر الصوت مثله مثل جمهور الخرابة المنـوم بفعل الخوف المنتشي بالقيامة، مدفوعا للبحث عـن نصـفه الآخر لتغرقهما النشوة ويأمنا من الخـوف.. بـين الأزواج اللاهثة ترجل عن وحدانيته وبرودة قلبه، حدق باحثـا فـي الظلام، طافيا كالشموع الهزيلة، يعرف جيدا أن صوتها لـم

يكن ناعما رقيقا، بل عميقا موشًى بشجن ينطوي على عربدة ما، لا تتسربل بالدلال، بل الرغبة في جوهرها: رغبة تشي، تنفض الرماد المتراكم فوق الجذوة، لتشتعل بضـياء قـوس قزحي.. إنها امرأة الشهوة الخالصة.

تردد صوتها من جديد متقطعا خائفا لما حدث.. وجدها قدامه، اتجه إليها بطوله الفارع وصدره العريض وابتسـامته شهية، سد منافذ قد تتفلت منها، فاستندت إلى حائط وطـيء مستسلمة أمام فتوته .

في هذا الوقت، كانت الشيخات فـي زاويـتهن يقـرأن الأوراد ويتناقلن أخبار الصوفيات العظام، عن مريم البصرية التي قيل إنها حضرت في مجالس بعض الواعظين، فتكلم في المحبة، فانشقت مرارتها فماتت في مجلسها.. وعـن حسـنا بنت فيروز، كانت تقول: إلهي، حتى متى تدع أولياءك تحت التراب والثرى؟ ألا تُقيم القيامة حتى تنجِز لهم ما وعدتهم.

أشرقت شمس اليوم الأول بعد القيامـة علـى عيـون جوعى للمزيد من النوم، تلفت ناس الخرابة حـولهم برضـا حيي: « هذا ما أردناه بالضبط » ثم خجلوا من سـيئات مـا أرادوه وفعلوه.. وجدوا الخرابة وقد أحيطت بماء النيل الذي

تجاوز ضفافه من جراء الزلزال، لحسن الحظ كانت الميـاه ضحلة، انسل الناس بهدوء، يخوضون في الماء ليصلوا إلـى شوارع دمياط، وحدها سنانية كانت تخوض بأربع سيقان؛ إذ كانت تجذب ذلك الشاب صاحب الأصـابع العبقريـة الـذي اضطجعت معه ليلة البارحة.

ليلة عقيم كانت، تنمو التويجات دون أن تصـبح وردة، وينتشر عبق الفل ولا تتفتح كأساته، ليلة لم تلد سوى الصمت والتجاهل اللذين أصيبا بأرق لأن أريج الفل اسـتراح علـى مهاد العناق والقبل في أرض الخرابة، التي أسماها الأطفـال « جزيرة الفل »، ظلت رائحة الفل تفـوح بـالجوار لشـهر كامل.

ازداد عمق المياه حول خرابة الفـل، تجاهلهـا الكبـار ونسيها الأطفال، وفيضان عفي إثر فيضان آخر عارم، عاما بعد عام، حتى غمرت الجزيرة تماما، واختفت إلى الأبد.

احتفظت سنانية بمنديل الخزاف، لترسي بذلك عادة لـن تتركها طوال حياتها: الاحتفاظ بأشياء صغيرة من رجالها.

قدمت أثر الخزاف إلى عرافة غجرية سألتها: وليف؟

- يعني، ربما.

- اسمعي يا ابنتي، هذا الوليف لا يستطيع أن يعبر عـن نفسه ورغباته لوليفه، متحفظ وقليل الكلام، لكنه يملك خيالا جامحا وممتعا.

بالرغم من أنه قد يتصرف بلياقـة كالمهـذبين، يوجـد بداخله عتمة ما لن يتكلم عنها، هو يا ابنتي كثيـر الطلبـات والاحتياجات، وإذا لم تشبع الوليفة رغباتـه، سـيبحث عـن أخرى.

باستطاعته أن يدير رأسك بسهولة، وسيأخذ منـك مـا يريده، يقودك إلى مجاهل، يصعد بك للسماء ويعيـدك إلـى الأرض، فقط عليك أن تكوني هادئة ورائقة.

لم تلطم ليل أو تبك على الشرف المهدور، جلست إلـى الخزاف الذي لم يمانع في عقد قرانه بسنانية، على أن يعـود بها إلى واحة آمون، رافضا الإقامة بينهم.. صـاغرة قبلـت الأخت الكبرى هذا الشرط المؤلم، يتوجس قلبهـا خشـية ألا ترى أختها مرة أخرى.

لما سأله غيث الدين عن مبلغ مـا يدفعـه مـن مهـر للعروس، وضع الخزاف ظفره على سـنته ليحكهمـا معـا، يشهر بذلك إفلاسه، كرر بهدوء: أنا لا احتكم على اللضى.

كاد ينشب عراك بين الرجلين اللذين لم يشعرا بالراحة لبعضهما قط، الجزء الكبير من حنق غياث الدين على الخزاف هو ملاحظته أنه مهمل في صلواته، أبدى ملاحظته برقة، رد الخزاف دون أن يبالي: الإيمان بالقلب هو الأهم، غضب غياث أشد الغضب: لا، أداء الشعائر والمواظبة على الفروض والطاعة أهم من الإيمان بالقلب.

تعنت الخزاف فوق احتمال غياث، هنا عرضت ليل على أخيها أن تتدخل، فالسوق علمها أن تعرف من أين تؤكل الكتف.

أخرسها الخزاف بجملة: صحيح أختك كانت بكرا فيما بين ساقيها، لكن جسدها لم يكن كذلك.

تذكرت ليل أن مهمة سنانية لكسب الرزق هي طحن الحبوب للجارات، وتقشير الفول السوداني النيئ قبل تحميصه.. كالعادة يحضر لها صبي أجولة الفول السوداني ثم يعود ليأخذ الفول السوداني مقشورا، مرة رجعت ليل البيت بعد أن أنهت عملها مبكرا، وجدت سنانية كأنما وقعت على قشور الفول.

ولما رأت أختها الكبيرة ارتبكت، قامت تلملـم ثوبهـا، لاحظت ليل أن كمية القشور بشعرها أكثر بكثير من أن تعلق بها نتيجة أنها قد وقعت.

- وايه سبب وقوعك؟
- تزحلقت.

في طريق سفر العروسين على واحة آمون مر برأسـه كيف تلاحقت الأحداث والمناقشات، كيف تزوج؟ وقع تحـت سطوة امرأتين، الصـغرى بصـوتها العربيـد، والأخـرى بسطوتها الحريرية.

قال الخزاف لزوجته متعجبا :لِم لم تحصل أختك على زوج طوال هذه السنين مع طبعهـا الطيـب فـي الحنـان والإحسان؟

- ليست طيبة، إنها متسلطة.
- متسلطة!! معقول!!
- نعم، إنها تخفي رغبتها بالتسلط علينا جميعا بسـلوكها المحسن والمضحي.. ألم تر كيف أنها قـادرة علـى تحريكنا وفق رغبتها، دون أن يتخذ صوتها نبرة الأمر قط.. ألم تقل لك عني شيئا؟

- لم تقل شيئا، فقط: « احفظها في نني عينك ».
- سأكمل لك جملتها: « واحذر منها فهي غيور منتقمة».
رثي الخزاف لحاله: « هكذا بداية الزواج تهديد!! ».

طافت في ذهن سنانية – أيام طفولتهـا، وبـائع اللـبن شاغبها مرة وهي في سن التاسعة بتعليق يسخر منها: « زي عود القصب الممصوص، لا حتة لحمة، ولا حتى شفت ».. لعامين كاملين لم تنس تعليقه، الذي حال بينها والانتقـام أن شكل الرجل بدا كأنما يكلم نفسه، ليس موجها إليهـا الكـلام مباشرة.

حسم ترددها بعد عامين عندما رأته قادما على بغلتـه، وسطلا اللبن الكبيران متدليان على جانبي بطن البغلة، ابتسم بخبث وقال بصوت عال: « لبس البوصة تبقى عروسة ».. انتقمت سنانية لأنوثتها المتبرعمة، أمسكت كالصبيان بالنبلة، وأصابت بدقة بالغة حدقة البغلة التي فزعت وجرت مهتاجـة من فرط الألم، فاندلق اللبن من السطلين، وعندما رجع اللبان من تسليم اللبن لأحد البيوت. المجاورة، لم يجـد اللـبن ولا البغلة.

انتفخت أوداج غياث الصباغ عندما أقبل عليه معارفـه للتهنئة بزواج أخته، يعتبون عليه أنه لم يمكنهم من المجاملة في زفاف سنانية السريع.. قال إن عائلة العريس تقدمت إليه واختاروا أخته الصغرى لابنهم لأنهم سمعوا خيرا عن عائلة بصل وعن حسن تربية بناتها وطيبـتهن، وأنهـم أمهـروا العروس مهرا كبيرا، ولظروف عمل العـريس وارتباطاتـه بإنجاز أعماله قبل أن تفد قوافل الحج من الأفارقة والبربـر، لذا كان الزواج سريعا وحفل الزفاف ضيق النطاق.

رد المذنبون المتواطئون في جزيرة الفل: أنعم وأكرم.

لم يشارك خلي البال ليث الدين فيما حصل لعائلة بصل أخيرا، ففي اليوم الأول بعد القيامة، كـان علـى مـتن أول مركب غادر ثغر دمياط، دون وجهة معينة، مبتغاه: العـودة للقرصنة التي تاب عنها لأيام قلائل قضاها على البر، ولـم يتوب والقرصنة الإسلامية ما شرعت إلا ردا على ضـياع الأندلس، ويردد.

لنفسه: « لولا ذلك لقمت بتطويق رقبتي بالنعال، أديرها حول رقبتي وأضرب بها أذني تأكيدا للتوبة وأدعو بأن تجز رقبتي إذا ما حنثت عن توبتي ».

**( ولد « جارجانتوا » بعد وفاة والده بأحد عشر شهرا )**

رابيليه

بتصرف من رواية « جارجانتوا وبانتاجرويل ».
نشرت لرابيليه في القرن السادس عشر.

لم يستغرق الأمر كثيرا حتى تدرك سنانية أن الخـزاف يتعامل مع الغياب أكثر مما يتعامل مع الحضور.. عبر حائط وطيء بين حجرتها وحوش الفرن الذي يعمل به، قد يحدثها طويلا يتواصلان بالصوت، وحينما يؤوب إلى سكنه يكـون الخرس ثالثهما.

يجزئ الخزاف الشريك والصديق ولا يتعامـل إلا فـي الجانب الحلو من شخصيته، مع سنانية فعـل ذلـك وزيـادة تجاهل آلامها في مكافحة مستنقع حياتها الجديـدة: الغربـة والوحدة.

وقتها كانت سنانية تحب أن تحظى برجل هو الكل فـي واحد: أخ، صديق، معشوق، وزوج، بالنسبة لها كل شيء أو لا شيء على الإطلاق، من يضطجع معها هو مـن يمسـح دمعتها ويفرد جناحيه ليدفئها ويطرد وحدتها وخواءها.

والخزاف يرى أن الإبداع والحب لحظة توهج، يتخلص فيها من التوتر ثم يعود ذلك التمثال الشمعي الجليدي.

تعجب سنانية بأوانيه الخزفية حتى يبدأ في الرسم فتشعر بما يروعها ويبكيها ويشعرها بالفقد، لا تعرف أن تصوغ كل ذلك في كلمات.. كان الغياب على السطح المرسوم لأوانيـه الخزفية ينفي الحضور، لكن ها هو يا سنانية يجازف ويرسم آدميين رغم التحريم، لا يقتنع عقل سنانية، مشاعرها تقودها: أرى تلك المرأة البعيدة في الطرف القصي من الطبق، وحتى إن كانت في عمقه، فهي امرأة نائية، لا مبالية، تكاد تعتـذر عن وجودها.

الحب عندها احتشاد متواصل، ليس تخلصا مـن تـوتر لحظة، بل التوحد والتماهي مع المحبوب والكون.. لكن كيـف والخزاف يتعالى على الحضور البشري.

عندما رسمها على تلك الآنية الغريبة التي تشـبه تـلا، وثدي امرأة تفحصت ما رسمه، المرأة على الآنية أجمل من سنانية الحقيقية، لم تتعرف على نفسها بسبب ذلك، بل للصقيع الذي يهيله هذا الشكل على بقية مساحة الآنية، وعلى المشاهد نفسه.

لغفلتها لم تعط اهتماما لتوقفه عن تقبيلهـا فـي فمهـا، استشاطت فضولا لما لاحظت أنه يرسم نساء بشفاه جميلـة، شفتان على وشك أن ينطقا، أو يفترا عـن ابتسـامة، شـفاه نصف مفتوحة، أو مغلقة باللون الأحمر القرنفلـي، وبينهمـا خط أسود عميق.. هل أن شفتيها في نظره غير جميلتين؟

سألته بخبث: ما أجمل شيء ترسمه في وجه المرأة؟

- الأنف ثم الشفاه.

يتماص من استحواذها عليه، فينقل عن الإمام الغزالـي قوله أن أياما معينة من الشهر قد حددت للجماع، لما فيها من ثواب أكبر وقهر للشيطان أكثر: ( يكره الجماع فـي ثـلاث ليال من الشهر: الأول والآخر والنصف، ويقال إن الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي، ويقال إن الشياطين يجامعون فيها ).

ومن بنات أفكاره، بدا يخترع أياما أخرى، بل وأسـابيع يكره فيها الجماع، وانتهى إلى كراهة الجماع في أيام الشهر القمري كله، إلا لحظات توتره الشخصي ورغبته فيها.

قالت له سنانية يوما: ألا ترى أنك أصبحت غريبا عـن الناس وغريبا عني؟!

- الناس!! الناس سيحبونني إذ يفتقدونني.

بين الخزاف وأعماله نوع من التواصل الذي يحـس لا يفهم، تواصل هو في جوهره انعزال، عزلة تغلف النفس في تأملاتها وأوهامها السرية، تواصل منكفئ غير منفتح علـى العالم الخارجي والآخرين.

نصف طاقته يبددها في إفزاع العفاريت والتمويه عليهم، حتى يتركوه لحاله، يبدع ويرضى عن إبداعه، يصنع أقنعـة مرعبة من الجص، أشد إفزاعا من تلك الأقنعة الأبنوسية التي يجلبها الحجاج الأفارقة حين يمرون بالواحة، أو يلون وجهه راسما تكشيرة كبيرة، وفما يزيد، ولسانًا يتدلّى... ربما تتـيح شعوذاته تلك قليلا من الوقت وصفاء الذهن، ليخبـز الطـين ويجففه ثم يلونه ويرسمه ويحدد درجة حرارة الفرن خـارج الصندوق الذي يخبئ أوانيه، أو يقرر إذا ما كان من الأفضل لها أن تستحم بألسنة اللهب مباشرة، ومتى يخرج الخبيز بعد أن يخمد الحريق، ربما يطول انتظاره ثلاثة أيام، قابعا بجوار الفرن، لا يفارقه، فقد تحتاج الآنيـة للتلـوين مـرة أخـرى ويدخلها للحريق مرة ثانية أو ثالثة.

يراوغ مؤامرات زوجته وأعمالها السحرية التي يعتقـد أنها أطلقت عليه العفاريت، تعكر صفوه، فلا يعمـل ويظـل برفقة هذه المرأة المستحوذة.

سنانية تفكر في شيء آخر تماما، أن تحثه علـى بيـع بعض إنتاجه ليعيشها من عائده، لم تفهم أية هواجس ستعتريه حين يبيع عملا: أن خزانة أفكاره ستنضب ولن ينتج المزيد.

تمارس ضغوطها عليه، فيريها أن ما تعتبـره جـديرا بالبيع، هو دون المستوى ولدهشتها، يكسره.

تتسحب في ساعات نومه القليلة والقلقة، وتخفي بثوبهـا آنية أو مزهرية، تدفع بها إلى « شوشان » مرقوقتها الحبشية الفلاشية لتبيعها إلى ركاب القوافل، لتنفق على البيـت، هـو أيضا لم يسألها كيف تتصرف في المال القليل الذي يعطيهـا إياه، حيث كان كثير النسيان.

فرك الخزاف راحتي يديه، شاعرا بالرضـا والراحـة، ليس عن عمله، بل لنبأ سمعه عن وصول قادمات جدد مـن الخواطي خارج الواحة، لم يعد استسلام وصـمت زوجتـه المخاتلين يذكرانه برجولته وشهوته، يدرك الآن مـا يغلـي بداخلها ويخاف عنفوانها.

بكى مرة لأن مزهرية جاءت مقاربة حد الكمـال فـي خياله، تمكن من حل مشكلة تخامر أذهان خزافي إسـلامبول وأزنيك، وهي تقشر وزوال الطبقة المذهبة من الطـلاء دون بقية الزخارف والألوان، سهر الخزاف ليالي يراجع طريقـة هؤلاء الخزافين ومكمن النقص فيها، كانوا يرسمون بـاللون الذهبي بعد إتمام الزخارف الملونة جميعهـا، وأيضـا بعـد طلائها باللون الزجاجي الشفاف.. ومن الطبيعي بالتـالي أن تتقشر بعد وقت لأن النقوش المذهبة لم يتم حرقها.

امتلأ محترف الخزاف بكثير من الآنية غير المرضـي عنها.. طوال الوقت يجرب ليصل إلى درجة حرارة الفـرن الملائمة ليحتفظ بالبطانة البيضاء فوق الطينة مباشرة والرسم والزخارف، والأهم من هذا، الألوان ذات البريـق المعـدني والمذهبة، نجح في المزهرية التي يحتضنها إلى صدره الآن في تحقيق مراميه، وزادها أن غلفتهـا بـالطلاء الزجـاجي الشفاف.

رضي عن المزهرية وعن نفسه، لم تفهم سنانية سـوى أن بكاءه هزيمة وفقدان، توقعت أن يكسـر المزهريـة، لـم

يفعل، واصل بكاءه المشحون شجنا وعذابا وفرحا بإنجـازه الذي استعصى وتأبى عليه زمنا.

الخزف الذي سربته سنانية للبيع فتح شهية تجار الخزف والعاديات لطلب المزيد، طرق التجار وبعض الأجواد بـاب الخزاف يوما، أبلغته سنانية: لديك ضيوف.

- ضيوف؟
- بعض التجار والأجواد، اجلس معهم قليلا.
- لا وقت لدي.

استنكرت: وقت!!

- إن جلست معهم فمتى أجلس مع نفسي، أجـد الراحـة لديها، ليس عندي ما أعطيه لهـم، وجـودي معهـم بجسدي لن يفيد، روحي لن تصافح مقدمهم، وعقلـي سيكون شاردا هناك.
- حاول.
- إن الناس عبء لا يمكنني احتماله.

دست سنانية يدها في جيبها وأخرجت سلطانية بلون لم يره الخزاف من قبل، التقف السلطانية وكانت تهم بأن تقذفها

إليه: اللون الأخضر المائل إلى الزرقـة وبـين الزخـارف خطوط رفيعة محزوزة في بدن الإناء للفصل بين الألوان.

قلب السلطانية وأمعن النظر، وقال: طريقة الزخـارف تومئ إلى أن خزافها مسلم، لكن هذا اللون فريد، فهو لـيس بالأزرق الباهت المعروف.

ردت سنانية: إنه من خزف رودس.

تمتم: رودس!!

في محاولة جديدة لإقناعه: هؤلاء التجار لديهم أنـواع من الخزف، وهم بحاجة إلى المزيـد منـه لأجـل النـاس الموسرين في هذه القبائل المسلمة، فهم كمـا فهمـت مـن الشوشان يبدون طاعة كبيرة فـي تحـريم أوانـي الـذهب والفضة.. أتفهم ما أعنيه؟

- سأكون في استقبالهم.

- يريدون بلاطات قاشاني أيضا.

- طلباتك كثيرة. أليس كذلك!!

يمضي الوقت بينهما، ترعبه رغبتها في إنجاب طفـل، يهرب منها إلى الخواطي.. لم تشعر بالغيرة، وإن أيقنت أنـه يتركها ويخذلها، وركنت إلى حياد غريب.

خطر لها أن تتعرف على الخواطي خارج سور المدينة وعلى عالمهن الغامض، كل ما سمعته عنهن حتى ذلك الوقت أنهن يلبسن الملاءات والطرح وفي أرجلهن سرافيل من أديم أحمر، ستسألهن عن خبراتهن في العلاقة بين المرأة والرجل، وعن طريق الحمل المضمونة، وعن أسباب عـدم تعـرض الناس لهن بأذى، ضحكت الخواطي مـن سـذاجة سـنانية، فعلاقتهن بالرجال، التعامل معهم، إغواؤهم.. كن يمارسـنها فقط ولا يجول بخاطرهن أن يتحدثن عن هـذه الأشـياء أو يشرحنها، وذكرن لها أن الواحدة منهن تذهب إلى « ضامنة المغاني » تسجل اسمها عندها، مقابل حماية الوالي.

- أهكذا فقط، تسجلين اسمك ويحميك الوالي لأجل خاطر العيون؟

- بالطبع، ليس لأجـل خـاطر عيوننـا، نحـن نـدفع الضرائب، مثلنا مثل أي حرفي.

- اعتقدن للوهلة أنها ترغب في الانضمام إلـيهن، ثـم شعرن بالاستياء حيالها فلم تبد أيـة رغبـة فـي أن تخوض فيما يخضن.

ألمحن لها غير مرة أن شباب الزقالة معجبون بها، وتعرف هي جيدا أنهم لن يتعرضوا لها بمعاكسة أو أذى فهم يحترمون زوجها.

شكت لهن أن قلبها يتحرق لإنجاب طفل، ولم تترك وصفة بلدية أو سحرية إلا وفعلتها، رق قلب الخواطي لها كثيرا: ليس عليك سوى أن تستحمي في عين الماء هذه لدى شروق شمس الغد.

- ماذا بعد؟
- لا شيء.
- هل اضطجع مع زوجي في اليوم نفسه أو اليوم التالي؟
- لا يهم، كما ترغبين.

لدى شروق الشمس، خلعت سنانية ملابسها ونزلت إلى عين الماء، لاحظت أن القميص الذي خلعته به عبق لطيف، وأن بشرتها افتح لونا، وثديها أكثر استدارة بحدس غريزي شعرت أنها ستكون أُما اليوم، أو لن تصبح كذلك لمدة طويلة.

اليوم تبدأ سنانية طريقا طويلا، لعبيا ومجهدا، مثيرا وغير مفرح، محتقنًا بالأحداث، غير أنه في النهاية طريق مقفر.

قبل ساعات قليلة طلبت الخواطي من الزقالة أن يقـذفوا بمنيهم في العين.

في المساء أعدت سنانية لزوجها خلطـة مـن صـفار البيض والزنجبيل إلى جانب البوظة، بعد نوم عميق شـاغبته في الصباح التالي: كنت رائعا.

- حقا، أنا لا أتذكر شيئا، لا، أتذكر أمرا.
- ما هو؟
- أن بشرتك أكثر نعومة.
- طبيعي.
- ما هو الطبيعي؟
- لأني خصبة الآن.

لانت ملامحه في سخرية، ثم طرد عن دماغه هذا النوع من ثرثرة النساء.

معتمدة على نسيانه، وشغفه بتهشـيم خزفـه، التقطـت سنانية ما أمكنها من الأواني والمزهريات صـغيرة الحجـم، لتبيعها لتجار جاءوا من القاهرة خصيصا بناء علـى سـمعة زوجها وبراعته وغرابة أعماله، يصدرونها إلى نظائرهم في إسلامبول الذين يلحفون في طلب المزيد.

تنقل له أن الناس معجبون بفنه، ينظر لها شاكا، يبتسم، ويتركها إلى محترفه وفرنه.. ثم يسألها فجـأة عـن بعـض الأواني.

- ربما قايضتها برماد أو طفلة من القوافل العابرة.

هل كونت ثروة؟

صغيرة، نعم.

مبتهجة سنانية اليوم لأن زوجها مريض، سيكون طفلها الذي تعتني به، أن يظهر تشبثا بها ولو مرة واحدة في حياته، أن تهتك أستار تحفظه وغموضه، ولمـا خابـت توقعاتهـا، عمدت إلى الانتظار حتى يستغرق في النوم ثم أتت بمشـابك الغسيل وزرعتها في أصابع قدميه، يتململ كأن به كابوسا ثم يقوم فزعا، يهم بصفعها، تهرب منه.

تناوبت على بدنه نوبات من الحرارة والبرودة، طلب أن تلفه بأغطية ثقيلة والطقس دافئ، وما إن اقترب منه النعاس، حتى سحبت الأغطية كلها وخبأتها.

قبل أن يتعافى تماما، تشوق لعزلة مجيدة، حـرد فـي البقاع المهجورة، ليصبح جزءا محضا من هاويـة يحفرهـا بنفسه.

قادته جولاته إلى الصحراء البيضاء في ليلـة مقمـرة وجبل الكريستال يتألق حولها بالصفاء والألوان الناعمة، تلقى زادا من الإلهام في رقدته على تلك الرمال أنعشـت روحـه وحررتها من سأم: الضوء المخملي.

لعدة أشهر بعدها وقبل أن يصل القمر إلى تمامه، يتجه إلى الواحات البحرية، متجاوزا منطقة الجبال السـوداء إلـى مبتغاه حيث جبل الكريستال المحيط بالصحراء البيضاء فـي ليلة البدر، يستطعم التحدي في حلقه، أن يصل لدرجات لونية رهيفة دون استعمال الفضة.

برطم لنفسه بصوت مسموع: بالله، كيف امتلأ جسم هذه المرأة بين عشية وضحاها؟

ساخرة ردت زوجته: دقيق الملاحظة.. هيه!!

**شك أن زوجته حامل، شعر بألم مبرح، قضـى وقتـا عصيبا ليعرف إذا ما كان الألم فـي رأسـه، أو معدتـه أو ظهره، ما استطاع أن يحدد كنه هذا الألم: عذاب المقهـور نفسيا، دخل فرنه وحطم كل ما فيه.**

تشتت ذهن سنانية من غموض تصرف زوجها، أرسلت مرقوقتها " شوشان " للاستنجاد بالتـاجر القـاهري المقـيم بالواحة لبضعة أيام.. وصل التاجر برفقة بعض الأجواد من أصدقاء الخزاف، جلسوا معه في فرنه بين حطام آنيته، كان التاجر على دراية طيبة بشخصية الخزاف من كلام أصدقائه من الأجواد وزوجته.

لما خرجوا، جذبت سنانية جزءا من طرحة رأسها على وجهها، قال لها كبير الأجواد: أعدي لزوجك العـدة للحـج، لتغتسل روحه وتصفو، وليعرف معرفة اليقين أنه خـزاف لا يبارى.

سألت سنانية باستحياء: كيف؟

رد التاجر: بعد شعائر الحج، سنرتب له لقاء مع كبـار خزافي العالم الإسلامي الذين يحجون هذا العام.

اختلت سنانية بزوجها في الفرن، استبشـرت بحمـرة الحيوية في وجهه قال: سأحصل على الطين الأرميني، إنـه يعطي ظلالا مختلفة مـن الأحمـر: ابتـداء مـن الأحمـر الطماطمي إلى الأحمر الشمعي إلى البني الفاتح، وبهذه الطفلة يمكنني أيضا القيام بالصقل الشفاف للآنية بعد حرقها.

انقبض قلب سنانية فقد يفعل ما هرب منه مرة، أن يسافر لبلد لا يعرف لغتها ويتركها هنا وحدها.

بحثا عن نسمة أمان نادت مرقوقتها: شوشان: اجلسي هنا بجانبي.

ستعبر المرقوقة شوشان بسيدتها أهوال سجن النبذ لما يزيد على أربعة أشهر.

## (٣)

« داميتا »

خفق قلب غياث الصباغ أملا، مثلما يأمل طفل تاه في مولد أن تجده أمه.

« داميتا »: دمياط!!

مد الخطو في ثغر مرسيليا ليصل إلى متجادلين يرد اسم بلدته على لسانيهما، مر بأصوات تتلجلج في صفقات ومقايضات، وقف أمام تاجرين يتفاوضان حول السعر الأمثل، والجودة الأعلى للحرير الدمياطي الذي يبيعه أحدهما.

وضع غياث يده على ثوب الحريـر الأجـود، قـائلا للمشتري: إنه هذا.

- كيف عرفت؟ سأله « سان كلود شوفالييه ».

- أنا صباغ حرير، رد غياث بلغة يونانية ركيكة.

عام كامل يسمع لغات مختلفة في سفينة القراصنة، لمـا يئس القراصنة من وصول الفدية أو الريس ليـث، أطلقـوا سراحه في ثغر مرسيليا، لم يبيعوه التزاما بميثـاق شـرف القراصنة، صفقة خاسرة بالنسبة لهم، ما مـن فائـدة تـذكر لغياث، فقيدوه إلى سطح السفينة، متخذا مكانه بين المجدفين، طعامه خبز جاف وماء مضاف إليه الخل وزيت الزيتـون، يضربه الملاحظون بالكرابيج إذا ما توانى في عملـه حتـى أصيب بالوهن الشديد.

في التوقيت عينه تقريبا، جـاب الـريس ليـث الـدين القرصان المحترف العديد من موانئ بحر الروم، مبحرا في الممرات الملاحية للقراصنة المسيحيين علـه يعثـر علـى مختطفي أخيه، ولما وصل إلى مرسيليا فقد أثر أخيه تماما.

الريس ليث الدين، الغضوب والمنتقم، أنجز خطة بحرية غير مسبوقة، إذ قطرت سفنه بعد معركة رهيبة رتـلا مـن

سفن القراصنة المسيحيين، اتجه بهم إلى أزميـر، وأهـدى السفن بما عليها من بشر وكنوز إلـى العتبـة السـنية فـي إسلامبول، وعرض خدماته وروحه فداء للقراصنة التركيـة في البحر الذي أصبح بحيرة للسلطنة العثمانية الزاهرة.

بعد أن أصبح مقربا من الباب العالي كتب لأخيه الـذي عرف استقراره بمرسيليا: « بسبب والـدنا الفـلاح تركـت أزمير متمردا، وبسببك أنت عدت إلى أزمير متطوعا ».

على رأس زوارق عثمانية، أغار الريس ليث الدين على مخابئ القراصنة المعادين في أكواخ وخصاص مختفية بـين الصخور، اختارها هؤلاء القراصنة بحذق، فعندما يضـرب البحر فجواتها الغائرة، تصدر أصواتا كالنحيب تتشكى، ممـا يثير إحساسا بالتطهير لدى البحارة، يحملهم علـى الابتعـاد عنها.

أصبح غياث الدين مساعدا للتاجر الفرنسي « سان كلود شوفالييه » الذي ورث عن أبيـه تجـارة صـغيرة، لكنهـا متشعبة، ومنها تجارة الحرير الذي لم يكن على كبير درايـة بها، كان غياث الدين خير معين له في هذا الأمر، لدرجة أن

شوفاليه أوفده في مهمات تجارية في أنحاء أوربا، وخولـه حق إبرام صفقات.

في بيت شوفاليه تقام حفلات العشاء يحضرها أصدقاء له متعددو الجنسيات، يتحدثون في أمور شتى منها فخـرهم باقتناء أول نسخة مطبوعة للإنجيل، وعن عجائب المطبعـة وإسهام مخترعها « يوحنا جوتنبرج » في رواج التجارة.

تتباين آراؤهم حول كتاب «مقال في العبودية المختارة» وفي كتاب « الأمير » لميكيافيللي،و « يوتوبيـا » لتومـاس مور.

نغمة ارتياح في أصواتهم لتراجع دور الكنيسة، ونددوا بهمهمات ما سمعوا به عن قيام الجزويت في إيطاليا بتسـفيه كتب ميكيافيللي وحرق تمثال صنعوه على صورته، فقد توفي قبل سنين.

لم ترق للغالبية ما أسموه بـ « بذاءة وتفكه » رابيليـه في روايته، وحسدوه على الحماية الرسمية التي تمتع بها في مواجهة الكنيسة، ويستغربون أيضا من الحماية التي يسـبغها البابا نفسه على « ميشيل دو نوستراداام » أو حسـب الاسـم

الشائع له « نوستراداموس » وعلى كتابه المروع بـ التنبؤات « القرون ».

ولما ذكروا المسرح الإنجليزي وعبقرية شكسبير، أخـذ غياث الدين في الاستغفار سرا، وخبثا لـئلا يفهـم غيـاث ومراعاة أيضا، تحدث أحدهم باللاتينية سـاخرا مـن إقـدام الإمبراطورية العثمانية على استحداث منصب شيخ الإسـلام في الأزهر، كمقابل لمنصب البابا في مستعمراتهم المسيحية.

يرى غياث الدين ويسمع، لم يقدر على استيعاب وفهـم ما تموج به الأراضي الأوربية غير الخاضعة للحكم العثماني من تطورات متلاحقة، كانت في رأيه تبعدهم عـن طريـق الإيمان ويتصرفون وكأنهم سادة مصيرهم، غيـر مطيعـين لأحكام الدين.

اعتبره ناقوس خطر، دعا الله أن يخرجه من « دارة » الشر هذه حيث يخضعون كل شيء للعقل، متغـافلين عـن حقيقة أن كل شيء مكتوب ومقدر سلفا.. من هـؤلاء الـذين زعموا أنهم اكتشفوا أرضا فيما وراء بحر الظلمات؟ لولا أن كشفها لهم الله ما توصلوا إليها قط.

هذه المرة رافقه شوفاليبه في جولة لهما بمناطق شـرق أوربا لإبرام عدد من الصفقات، ادهشته لم يصدق مـا رآه، وأن جمعا غفيرا من الناس منخرطون في هذه الممارسـات الكافرة، شاهد كرنفالات شـبيهة بتلـك الحفـلات الماجنـة والطقوس الوثنية الغامضة التي كان يقيمها المطـراوي فـي قصره.

أغمض غياث الدين عينيه.

- سأله شوفاليبه: ألا تريد مشاهدة الكرنفال؟
- لا، حتى لا يفتنني في ديني.
- لو كان إيمانك صحيحا، ما خفت من الافتتان، لا ضير من معرفة ما هو حادث في العالم من حولك.

رفض غياث الدين، وعاد إلى الفندق وحيدا.

لن يتغير غياث الدين قط، كان يمارس تغييـر المنكـر بأضعف الإيمان: بقلبه، أو خياله الذي يصدقه فيما بعد ليعيش في حالة من التوافق مع نفسه ومع العالم، وهو أن كل حدث بالنسبة إليه حدثان، أحدهما وقع بالفعل وينطوي على شـره، والأخر هو تعديل للحدث وفق ما يتمناه، ويصدق في النهاية تعديله « التصالحي » الذي يكفل له راحة البال والضمير.

تصله مراسيل من الريس ليث يطمئنه على ابن اختهما « نور الدين »، وهو في رعاية آمونيت حتى يعـود أبـوه، ألمح إلى أنه يعرف رأيه في أنه ليس من المحبب ترك الطفل في رعاية قبطية، وتعهد أن يقوم بنفسه بتوصيله إلى دميـاط بأسرع ما يمكن، حالما ينتهي من تنفيذ بعض الخطط التـي أقرها السلطان للقضاء على القراصنة الصليبيين.

يحكي له طرفة من طرائف الصبي نور الدين: تسـلل هذا الشقي في أحد الأيام إلى إحدى سفن القراصـنة، كانـت راسية على بعد معقول من الشاطئ انتظارا لنتـائج غـارة انتقامية على البيوت غير المرئية على تلال رودس والمؤدية إلى بلدة ليندوس، ففي المرة الفائتة تمكن أحد السـكان مـن إطلاق تحذير واستغاثة عبر إشارات دخانية من برج أعلـى التل.

طلب الطفل بمنتهى البراءة أن يأخذوه إلى خاله الريس ليث سأله أحدهم بالعربية: ما اسمك؟

رد: نور.

- أتحبه؟

- نعم، إنه يلعب معي، كما أنه يشـبهني فهـو أصـفر الشعر، أزرق العينين.

ترجم لهم الزميل، فضحكوا، لكنه عرف من تعبيـرات وجوههم أنه وخاله مختلفان عنهم، فسارع بطلب أن يأخـذوه إلى أبيه الجريكو، احتاروا، سألوه باليونانية: ما اسمك؟

قال: اسمي « دين ».

من غير أن يقصد كان نور الدين نسمة الضحك لـدى القراصنة المتوترين انتظارا لأقرانهم على التلال.

- أتقطن بالمدينة العتيقة إذن؟

- لا، مع آمونيت.

آمونيت، آه، الساحرة المصرية؟!

رد بغضب: لا، الراهبة المصرية.

ذكر ليث لأخيه، ما كانت تقوله أختهمـا الكبـرى لـدى زيارته لها بالمدينة العتيقة في رودس: قال لي وقبلت!!

منهمكا في مشاغبة الصغير نور: ماذا تقولين؟

ـ أعلمني قبل الزواج بأنه يعشق في حياتـه أمـرين: الذهب والبحر، لم يكذب علي، قال لي وقبلت.

- لا تلومي نفسك، سأحادثه ألا يغيب عنكما كثيرا.

- هذه المرة لن يعود.

وعلق الريس ليث بمرارة في خطابه لأخيه: كانت أختنا على حق يا غيث، ربما وصلك أن وضع مهارته في تصميم السفن تحت إمرة القراصنة المسيحيين، يصمم سـفنا لـديها قدرة عالية على التمويه والمناورة، ومنها ذات الجسد الطويل الانسيابي، ومقدمة السفينة مرتفعة لتسـهل الملاحـة خـلال الأمواج العالية.

تساءل غياث قبل أن يفض رسائل جاءته مـن رفاقـه بجماعة « اليقين والتقوى » لماذا يراسلونني؟ ألم أعرب لهم عن شكوكي؟ وواجهتهم بالأقوال التي تؤكد أنهم أنفسهم كانوا يتلقون المال من الخواجة المطـراوي ذاتـه؟ مقابـل عـدم التعرض للنساء في الطرقات، وسلب ملابسهن وما عليها من جوهر وذهب لتمويل نشاطهم ومد نطاق دعوتهم في محاربة الممارسات التي تجمع بين مذهبي السنة والشيعة، ألم يكونوا وراء الهجمات على الصاغة المسيحيين وصرافي العملة من اليهود، ولما قرروا إهدار دم المطـراوي لشـركه وتهتكـه ووثنيته، ألم أخبرهم أنني سأقتله وحدي ودونهم بسبب ثـأر شخصي بيني وبينه ولا يخفى على أحد في دمياط، ألم أقـل

لهم بوضوح: لا تعتمدوا علي، لم أعد منكم، أنتم أنفسكم منقسمون بشأنه ولا تنسون أوقافه وإحسانه الواسع على الفقراء.

هم غياث الدين بفض الرسالة، مر عليه ذلك الرجل الذي تحدث باللاتينية في حفل العشاء الأخير بمنزل شوفالييه، ألقى عليه تحية سريعة ثم مضى إلى مكتب شوفالييه، استوقفه غياث وقال له: سمعتك ذاك اليوم تتحدث ولم أفهم غير كلمتين: إسلام وأزهر، إذا كنت تعيب علينا في أمر ما فاعلم أن المسيحيين واليهود في بلادنا يتمتعون بالمعاملة الحسنة.

رد الرجل: تقصد التسامح، تسامح العثمانيين تجاه أهل الذمة ومن الأوربيين خاصة، ألا تعني ذلك؟

- اعلم يا صاحبي أن نصف دماء العثمانيين مسيحية، اسأل ولا تعجب حين تعرف أن جدة واحد من هؤلاء الخلفاء مسيحية، وأمه مسيحية، وزوجته كذلك مسيحية.. هؤلاء الخلفاء بعيدو النظر، فعلاقات التحالف تلك تمنع الاضطرابات في الأراضي الأوربية الواقعة تحت حكمهم.

علق غياث في سره: « كم هي الأمور متداخلة » وشعر برضا مفاجئ عن نفسه، ألم يكن هو الرافض الوحيد بأن يبدأ أعضاء الجماعة في ارتداء زي خاص بهم، يميـزهم عـن الناس التي لا تراعي الدين وتدخل عليه الكثير من البدع.

- لا تنفصلوا عن الناس، بـل ذوبـوا فـي تجمعـاتهم، ناشرين الدعوة للأصول.

لكنهم أصروا على الانغلاق على أنفسهم، يستحضرون طول الوقت سماتهم التي تفصلهم وتعزلهم وتميـزهم عـن الكفرة أصحاب البدع: الذين يشـربون الخمـر، ويسـلكون طريق المواخير والدعارة، وحتـى الـذين يقترفـون ذنـب ممارسة الفنون من غناء وعزف موسيقي والرقص والشـعر الرخيص كغزل وأزجال ومواويل وحتـى الإنشـاد الـديني الصوفي.

يعود إلى الرسائل يفضها واحدة فواحدة.

الأولى تبلغه بما عرفه سلفا من أخيه بأن قاضي الحسبة أمر بتسمير حانوته، ووضعه تحت إشـراف شـيخ طائفـة صباغي الحرير حتى يصدر القاضي حكما بشأنه في قضـية المطراوي.

يبلغونه أيضا أنهم يقدمون الرعايـة الممكنـة لزوجـه وبناته وابن أخته سنانية « سعد الدين ».

الرسالة الثانية والمؤرخة بعد شهور من الرسالة الأولى يقولون فيها إن القاضي آخذ بتبرئة المتهمـين مـن تجـار منافسين وموظفين في دواوين الجمارك والثغور وغيـرهم، ومن شيوخ متصوفة ومن جماعتهم « بالطبع » وكذلك مـن البدو الأعراب.

يرون أن القاضي يتمادى في تبرئة المتهمين، إرضـاء واستجابة لرغبة الناس الذين سمعوا أن الخواجة المطـراوي كان مشركا، حتى يكون أمثولة وعبرة لغيره.

الرسالة الثالثة تقول إنهم تقدموا بالتماس إلى القاضـي، حتى يعود الغائب وتتم محاكمته، بأن يفتح الحانوت، فوافـق القاضي، ويقوم بأعمال الصباغة فيـه علـى خيـر وجـه « سعد الدين » وأشادوا في الرسالة بهـذا الفتـى المـؤمن والمطيع، ويطالبونه، بأن يوافق على أن تُخطب لـه إحـدى بناته.

غضب غياث: « إنهم يديرون بيتي؟! لولا المطـراوي اللعين، ما قام أناس اختلف معهـم برعايـة بيتـي لتصـبح معروفا، علي أن أرده، أو أذعن لهم وأطيعهم ».

انشغل غياث بلغـزين لـم يسـتطع حلهمـا: علاقـة المطراوي، بالكرنفالات في شرق أوربا، وتبرئـة القاضـي لعدد كبير من المتهمين حتى الآن. استعلم غياث عن وجـود كرنفالات مماثلة في البندقية، فمن المفترض أن المطـراوي الأب قد تزوج من إيطالية مسيحية، لكن قيـل لـه إن هـذه الممارسات لم تعد تقام في البندقية منذ زمن بعيـد.. وعـن القاضي قلبه يحدثه أن وراء أحكام التبرئة أمورا أخرى ليس من بينها مشاعر الناس وضغوط رأيهم.

## (٤)

ذلك الوجه يعرفني

في نوبة حمى شديدة كاد يفقد المطراوي حياتـه فيهـا، حاول التركيز، لماذا يعرفه هذا الوجه البيضـاوي الأشـقر، رأى نفسه يقود أخوته الصـغار عبـر الغابـة، مسـتمتعين بالطرق الجليدية.

وجد فرسانا أمام داره، إنها صاحبة الوجه تؤكد دامعـة وباكية وصارخة بأن يعودوا بعد حولين كاملين، فابنها البكر وأشارت إليه في العاشرة فقط من عمره، وأن طوله وهيئتـه الرياضية تخدعهم.

- ماثياس ولدي؟! ماثياس ولدي.

افتكر اسمه القديم، كما افتكروا أوامر وتقريـع ( يايـا باشي ) ضابط الانكشارية بقوله: أيها السلافي.

« صاحبة الوجه الأمومي تدعوه أن يأتي إليها » يايـا باشي المسئول في « نظام الدفشرمة » عن اختيار الأقـوى والأذكى والأجمل، من صبية العائلات الأوربية المسـيحية، للالتحاق بالعسكرية العثمانية، على أن يمنح اسـما جديـدا، ودينا جديدا.

كان ماثياس الأصغر بين أقرانه، كلهم في الثانية عشرة من عمرهم، توقع أن يذهب مثلهم للتدريب العسكري، وتعلم الدين الإسلامي وقراءة القرآن، تضاعف عنـده الإحسـاس بالخذلان، عندما فُرق عن صبية آخرين يعرفهم بالقرية.. لقد جمع ضابط الانكشارية أكبر من العـدد المطلـوب توريـده للجيش العثماني، وقام ببيع ماثياس وغيره كعبيـد لحسـابه

متواطئا مع القضاة المحليين والسباهية الذين جمعوا أمـوالا طائلة من تجارة العبيد هذه.

تنقل ماثياس بين عدد من اليسارجية المختصـين فـي تجارة العبيد بيض البشرة، حتى وصل إلى البندقيـة حيـث اشتراه المطراوي / الأب المفترض لغرض في نفسه.

أقام المطراوي الأب طويلا في البندقية موكلا من جانب عائلته الثرية للغاية لتسهيل الأمور التجاريـة بـين دميـاط والبندقية لصالح العائلة بالطبع لتفوز بأكبر الصفقات.

يعرف أن البندقية تعد بشكل ما نفيا له، للابتعـاد عـن المطالبة بنصيبه من الميراث والأرباح الفعلية، على الدوام لم يكن ناسيا غضبه الكظيم تجاه أخوته الذين بخسوه حقه فـي الميراث لأنه ابن الجارية، وحزينا يتذكر وفاة زوجته وابنـه بسبب وباء الطاعون الذي اجتاح بعض بلدان أوربا، لم يخبر أخوته لأنه في قرارة نفسه يشعر أنهم غير مبالين بحاله.

سنون قليلة، استوعب فيها محمد المطـراوي / الابـن ( ماثياس ) سابقا، فنون الحيلة والتجارة وبلاغة عصره بأن يخاطب كل امرئ حسب جنسيته ومعتقداته ونفسيته.

قدم المطراوي الأب، محمدا إلى أهله وأخوته، حسـدوه على هذا الشاب الصغير البارع، الكيس، المتحدث بعدة لغات والجميل أيضا.

رغب الآن أخوته في مصاهرته، عارضين دون خجل، وبمنافسة شديدة أن يتزوج محمد المطراوي من إحدى بناتهم. وقد حدث.

التمت غالبية خيوط تجارة العائلة في يـد المطـراوي الابن، وشيئا فشيئا، أصبح رأس العائلة، وكبير تجار دمياط، لم يقدر له أن ينجب من بنت عمه، أو زوجته اليونانيـة، ولا من جواريه.

في هذيانه، يدفع المطراوي عن نفسه ثقـل الـذكريات، شيئا لطيفا محببا إلى نفسه ويدمنه بلا حيلة: الكرنفالات.

من أجل الكرنفالات، فكر في إمكانية أن يعود إلى بلـده الأم، أن يبحث عن عائلته الحقيقية، لكن صـديقه الجـوال، الذي أطلق عليه اسم: عاشق الفنادق حتـى أصـبحت كنيـة حقيقية له، أخبره بأن تجواله في منـاطق أوربـا الشـرقية الواقعة تحت الحكم العثماني، وتناوب الإقامة في كثير مـن

فنادقها ـ قد أظهرا له أن الناس أصبحوا يؤدون أعمالهم ثـم يعودون إلى منازلهم الصغيرة، ويدلفون إلى النـوم مبكـرا، يجترون في فراشهم ذكرى الماضي غير البعيد، حيث كانوا يمارسون الصيد في الغابات والأنهار وتنظيم المواكب الدينية الكرنفالات أيضا، هذه المتع كلها منعها الباب العالي، ومـا من متنفس لهم الآن سوى مناسبات وأعياد المسلمين الـذين يزدادون عددا في أوربا إذ وجدت جماعات الهراطقة التـي أعيتها ملاحقة الكنيسة ومحاكم التفتـيش، راحـة باعتنـاق الإسلام.

أضاف عاشق الفنادق أن المسيحية والإسلام فـي تلـك المناطق قد اختلطت بممارسات غامضة تعد من الخرافـات أحيانا ومن الأساطير الوثنية والتقاليد أحيانًا آخر.

تغيم ذاكرة المطـراوي بمشـاهد مـن طفولتـه قبـل الدفشرمة، تتضبب المشاهد، غير أنه يستحلب متعتهما التـي تبدو له الآن صافية.. أعمل عقلـه فـي شـبابه فـي تلـك الممارسات وأدرك أنها تشوش على إيمانه وصـحيح دينـه، غير أنه لم ينفلت أبدا من سحر طاغ لها وشعوذات تضـعه على مدارج نشوة روحية أحيانا.

في مرضه الأخير، أصبحت لحظـات صـحوه قليلـة، ينتهزها مساعده لإبلاغه بأخبار صفقة أو غيرهـا، بـوهن ينطق المطراوي Esta Bena استا بينا التـي تعـد خاتمـا مدفوعا لمرور الصفقة وإبرامها، مرتكنا في ذلك علـى مـا يربو من خمسين عاما من ممارسة وذكاء، عملي وحساسـية مكنته من التقاط الرسائل الضمنية أو ما بين السـطور فـي عالم التجارة.

ذات صباح استيقظ المطراوي شاعرا بالعافية، لم يخدع نفسه، نظر لوجهه في المرآة: إنها حلاوة الروح علـى مـا يبدو، استعد للنزول إلى مكتبه بالوكالة التـي بناهـا خلـف قصره، دأب المطراوي طوال سني حياته على تنمية قدرتـه على تجزئة نفسه بين دوره العام فـي السـوق، ومشـارك، ضمنيا، في صناعة القرار المحلي بوصفه كبير تجار دمياط، واحتفظ في الوقت عينه بذاته الداخلية بعيدة عن أي تماس مع العالم الخارجي: مشاعره، روحانياته، عباداتـه الغامضـة.. كلها استقرت في خزانة خاصة لا تطلع عليهـا إلا جوقتـه السرية، يفعل هذا بيقين وزهو فهو وحده المنـوط بإشـباع احتياجاته العامة والخاصة.

في الحقيقة لم يأبه لفكـرة أن تتسـرب أخبـار متعتـه الخاصة إلى الناس، لأنه ببساطة لا يهمه في شيء ما الـذي يظنه الآخرون فيه، حتى لو عرفوا أنه يلبس ملابس النسـاء في طقوسه الغريبة، معتقدا أن هذه الملابـس سـتمكنه مـن الاتصال بالقوى الخفية في الكون.. حتى وإن كان صحيحا ما تتقول به بعض نساء بيته وبيوت أعمامـه مـن أنـه: ابـن الحيض.

ترجل المطراوي عن فراشه، موهوما وضائعا تمامـا، ليتجاوز الوهم والضياع المزمنين في ذهنه، كانـت مسـيرة حياته: الصعود واختراق المتع بأشكالها كافة فقد بنى أركـان قصره بأحجار الحبش السوداء من اليمن أو كمـا يسـمونه البازلت الإسفنجي، واستقدم لتبطين جـدران حجـرة نومـه أحجارا ملونة أصبحت أعجوبة زمانها بألوانها الطاووسـية وما تشعه من إضاءات ملونة في صحو الشمس أو المسـاء المقمر، كم من الوقت يمضي المطراوي في الحجرة خاصة؟ يقضي مالا يقل عن عشر ساعات يوميا ما بـين سـويعات يخصصها لإحدى زوجتيه أو جارية من جواريه، بالإضـافة إلى الساعات الطويلة لنومه.

عشر ساعات في عشرين عاما، يتلقى ما تصدره هـذه الحجارة من إشعاعات ضارة، أصابت المطراوي بـأمراض خطيرة لم تحدد أسماءها في ذلك القرن، إلا أنها ناجمة عـن التدهور التدريجي لجهاز المناعة في جسده، مشى خطـوتين في حجرته، طلب من مساعده أن يدعو أصدقاءه الليلة فـي الإيوان الشمالي بالطابق الأول.

جاءته آمونيت وصيفة زوجته اليونانية « ماريا » تفكر: أي عذاب أو كشف روحي عرفته هذه التقية، ومـن أجلـه تركت دعة حياة الرهبنة في دير سانت دميانة إلـى الغابـة ووحوش الحياة اليومية، وفي إغماضة عين حـدث لـه مـا اعتقده رؤيا أو حدسا بأنهما متشابهان في كدحهما في سـبيل عالم روحي، يختلف سبيله حسب طبيعة المرتاد نفسه.

- السيدة ماريا تريد الاطمئنان عليك، سيدي.

- لا داعي أنا أفضل حالا، سأنزل إلى الوكالة، ومسـاء سأكون مع الأصدقاء، قولي لها إني سأمر عليها ليلا.

الآن، تعرف آمونيت أنه من المحظور أن يقترب أحـد من الإيوان الشمالي حين يحضره الضيوف، كان جهلها بهذا الأمر في بداية قيامها بمعالجة ماريا قد كشف عن أشياء ربما

فضلات في جزء من نفسها لا تعرفها على الإطلاق لأنها جد صادمة، لكن ألم تدرك آمونيت فـي نفسـها أنهـا غريبـة ومتعطشة للبحث عن غرائب الناس، وغرائـب سـلوكهم.. حينئذ تكون في أفضل حالاتها، تحتشد فيها الإثـارة العقليـة لفهم ما يجري، وإذا خذلها العقل، تسـتنجد بحـدس دربتـه العزلة والصلوات والتأمل والإيمان.

في إحدى الليالي تاهت في مجازات القصر، اسـتمعت دون قصد إلى همهمات ضارعة:

**أيا سيدة الليل والغيبوبة.**

**أيا واهبة الحياة**

**أيا مدمرة الحياة**

كان فزع آمونيت أكبر من فضـولها حينمـا زلزلتهـا تراتيل مثل:

أيتها الحية الكونية، التي خصبت نفسها بنفسها.

رسمت علامة الصليب، خلعت البـابوج مـن قـدميها ووضعته تحت إبطها، انسلت حافية إلى مجاز آخر بالقصـر بعد أن عرفت بدقة موقع الإيوان الشـمالي، بتلـك الأبيـات

الشعرية الغزلية، مكتوبة على الضلع الشرقي للإيوان على إزار السقف.

شائعات تترى على ألسنة العبيد والجواري، تدور في غرف القصر، وتتدلى على قناديل الدرقاعة والممرات، بأن المطراوي وأصدقاءه من الخاصة يمارسون طقوسا عربيدية، ما كانت تستهدف المتعة المحضة فقط بل والسعي للغيبوبة التي تطلق طاقات معطلة في وعيهم من أجل فهم باطني واستشراق النبوءات، وتلاقي كل من الأرواح الهائمة من الأحياء والعارفين من الأموات.

برغبة قهرية تخلت آمونيت عن حرصها وتحفظها، وتوجهت غير مرة إلى الإيوان الشمالي نهارا، تجول بعينيها مستطلعة، ومنصتة لأصوات انفضت قبل ساعات، ولروائح آخذة في التلاشي، مقتفية أثر الكدح الضال إلى هتك أسرار الماوراء.

تحت أحد مقاعد الإيوان وجدت دمية من الطين المحروق لأنثى أبي الهول، بشفاه مكتنزة، أنف عريض، عيون نجلاء واسعة وشعر مفلفل، يعلو رأس الدمية قرص الشمس وقرنا إيزيس.

عرفت آمونيت أن لدى المطراوي العديد مـن تماثيـل الإلهات الأمهات، احتفظت بها، وسوف تسوقها يومـا إلـى الجحيم.

هل عجل كشف آمونيت لعالم المطراوي السري بتلاحق الأحداث المفضية إلى قتله؟

لا، لم تفش آمونيت ما عرفته عن هذه الجوقـة، فقـط أبدت بعفوية إعجابها ودهشتها من التصميم المفرط في جماله وغموضه للقصر حتى يكاد يكون قلعة حصينة.

## (٥)

- ستستريح القافلة في محطة الأزلام قبل الوصـول إلـى ثغرنا في بحر القلزم.
- كم تبقى من الزمن لنصل؟

بعد ثلاث صلوات: الضحى والظهر والعصر. ردد صـوت جماعي: يا مهون.

مجهدة كانت دروب قافلة الحج في الصحراء الشـرقية، فأقصى آمالهم الراحة قليلا بالأزلام.

لاحظ بعض الحجاج أن فئرانا في حالة قلقة تركض في جماعات إلى أعلى جبل حاملـة صـغارها فـي أفواههـا.. تشاءموا وتناقلوا الخبر، طأطأ الرجال رؤوسهم ودعـوا الله، ليس رد القضاء بل اللطف فيه.

الخزاف متفائل، ففي حالته الروحية الجديدة بدت أموره تسير نحو الأفضل، ألم يحضر زلزلة في دمياط ونجا منهـا بعون الله وفضله؟

اقتربت الجمال من الأزلـم، فحـدث لهـا اضـطراب وأصدرت أصواتا غريبة مما أقلق حجيج قافلة الحج الإفريقية من مصر والمغرب، وأيضا من وادي حلفا ودارفـور ومـا تحتهما.

صوت انفجار بعيد عن الأفق لم يحـددوا كنهـه، وإذا بشلال هادر من السـيول المحملـة بالأشـجار والحجـارة والحيوانات النافقة تغرق المكان، ترتفع المياه وتكـاد تصـل إلى أعناق الجمال التي تعثرت وغرقت بحمولتها الثقيلة..ولما كانت الجمال الحاملة للمسافرين أخف حمـلا فقـد قاومـت ارتفاع منسوب مياه السيل إلى حـين، لـم يمهلهـا الهـدير والتخبط والأصوات المستغيثة، فغارت سيقانها فـي رمـال

فتحت تجاويفها الشرقانة الظامئة، فغرقـت بعـض الجمـال بركابها.

السيل كله لم يكن شرا، بعد أن قذف بخبثه ومنقولاتـه المثيرة للغثيان، صفت المياه وهبط منسوبها، انتهزها الناجون فرصة لملء القرب بالماء، هذا الأمر الـذي سـينقذهم مـن الموت عطشا قبل أن يبلغـوا المحطـة التاليـة، فـالهجير، والجفاف، والآبار الناضبة تحالفت ضد هؤلاء المؤمنين الذين يبغون وجه الله تعالى.

في هذه اللحظة، أصدر أمير الحج أمرا لخفـر القافلـة بحصر الخسائر مادية أو بشرية.

كان الخزاف من بينها.

في هذه الأثناء، استجابت سنانية، فـي شـهر حملهـا الأخير، لدعوات وجهت لها، أن تقوم ببذر القمح والشعير في الحقول وشتلات الزهور والخضراوات في البساتين، تيمنـا من أهل الواحة بأن تثمر الأرض، مثلما ستلد سـنانية فـي غضون أسابيع، وبينما كانت لا تزال فـي أحـد البسـاتين أمطرت السماء باعتدال، غمرتها النساء بالحـب والقـبلات

لأنها بشير خير في نظرهن، لطالما سمعت عن قوس قـزح، رأته هذه المرة، فتنها، تاركا إياها منقوعة في ألغازه.

ستراه فوق حاجبيها، وفي عين فؤادها. فرحت وأتاهـا حدس بأنها ستكون امرأة الألوان جميعها.

اطمأنت أنها تميزت حقا عـن « ليـل » ذات الثـوب الوحيد بلون النيلة الزرقاء إلى أيام عوزهم القاسية، تستغرب هذا اللون الكالح، فقد كان بنظر النـاس اللـون المحتـرم، المتقشف، الصابر، المتحمل، والمضحي.. لون أصحابه الذي يحبه الناس لأنه يشبههم.

ما رغبت سنانية في هذا اللون قـط، سـتود دائمـا أن تصبح امرأة ألوان قوس قزح جميعها.

بعد قليل، ولا تعرف السبب، تنتابها حالة فرح وامـتلاء مؤلمة، أقرب إلى الاحتقان، تضحك بشدة، ولا تندهش لحقيقة أن دموعا مريرة حارة تلهب دائرة عينيهـا دون أن تـراق، وأن قلقا بالغا يرقد تحت جفنيها.

ما كاد أسبوع ينصرم، إلا وأصـبحت سـنانية غولـة تستحق الحجر والاحتجاب لأربعة أشهر قمرية وعشرة أيام.

وصل الواحة خبر وفاة الخزاف وهو في طريقه إلى الحج، ولأن الزوجين غريبان بالواحة، تبرعت الجارات بإقامة الطقوس الخاصة بأرملته.

صرخت فيهن سنانية: هل هذه هي المساندة والرحمة لامرأة أصبحت وحيدة فجأة وتعاني آلام الحمل وقلق ولادة طفل يتيم، تلقبونني بالغولة!! هل أكلت آدميا من قبل؟

- إننا نحميك من روح زوجك الهائمة، ونحمي رجالنا وزرعنا وضرعنا من الروح الشريرة التي حلت فيك.
- روح شريرة!!
- نعم، إنها تسكن عينيك الآن وستصيب بالخراب كل ما تقع عليه عيناك.
- أرجوكم أرسلوا إلى أهلي، ليحضر أحد إخوتي، ويعيدني إلى دمياط.

ولأن جثة الخزاف قد دفنت في موضع وفاتها بالقرب من الأزلام، أخذت النساء على عاتقهن حماية الواحة من سنانية.. فعندما أعلن رجل بصوت جهوري أن « الغولة سنانية طالعة » تم إخلاء الطريق على الفور ليتحرك موكب

الأرملة إلى « عين طاموسة » وفي الطريق انخرطت النساء في البكاء والنحيب لوفاة الزوج.

مسحن دموعهن لدى الوصول إلى العين، ففي انتظارهن مهمة لا بد أن يقمن بها على خير وجه دون إغفال أصـغر التفاصيل، نزعن عن سنانية حليها وأدوات زينتها وأحجبتها، وخلعن ملابسها كلها، أنزلنها إلـى ميـاه العـين، ترافقهـا وتساعدها مرقوقتها الحبشية.

حين خرجت من العين ألبستها وصيفة، اختيرت لها من الجارات، ملابس الحداد من قميص أبيض طويل فضـفاض، ألقت وصيفتها على شعرها ووجهها طرحة بيضاء كبيـرة، عاودت النساء التحلق حولها، واصلن البكاء، وحذرنها مـن مغبة أن تنظر إلى أية ناحية، عليهـا، أن تطـأطئ رأسـها وعينيها إلى الأرض.

أعدت المرقوقة التي يطلقون عليها فـي الواحـة اسـم « شوشان » غرفة للحجر على الغولة، لا تتصل بأي أحـد من العالم عداها هي؛ إذ ستدخل عليها الطعام الخـالي مـن اللحم بظهرها ولا تتبادل معها إلا أقل الكلمات، وجدت سنانية ـ التي كانت كثيرة الخروج ـ نفسها معزولة، لا ترى أحدا،

لا تكلم أحدا، ألحفت في طلب أحد أخويها، أو "ليـل" إن لـم تكن قد سافرت مع زوجها، تتمنى الآن أن تأتي ليل، موحشة هي ولن تجد الأنس والأمان إلا في حضن وحنان ورعايـة أختها، تتذكر أنها لم تضربها قط، بل غالبا ما تبـدي فرحـا وفخرا بنصاحة الصغيرة « سنانية ».

استنزف الانتظار جل طاقتها، تقضي الأيام فـي بكـاء وصراخ هستيري مطلقة الشتائم والسباب بأن أهل الواحة في الحقيقة هم الغيلان وأنهم يبغون القضاء عليها وعلى جنينها.. خروجا على القاعدة دأبت شوشان على تهـدئتها.. وصـل غياث الدين، ألحوا عليه ألا يراها وأن يحدثها من وراء الباب المغلاق، لكن هذا الطقس البسيط لم يتم، فقد جاءها المخـاض وقامت الشوشان بتوليدها.

ترجت سنانية أخاها أن ترحل وطفلها معه في الحـال، ولأنه رجل عملي أمهلها حتى « سبوع » الوليد، وسأل عـن ميراث أخته وطفلها، أخذوه ليرى بنفسه الفرن المغلاق وآنيته التي كسرها الخزاف في سورة غضب، وللأمانـة أعطـوه أثمان بضع قطع باعوها للقوافل لحساب سنانية أخته.

سألهم غياث أن يسمحوا له باصطحاب أخته للعودة إلى دمياط، كشروا عن أنيابهم: أتريد الخراب للواحة!!

- على الأقل استبدلوا بالشهور الأربعة أربعـين يومـا حسب عاداتنا.

أجابوه بالرفض، وأكدوا له أنهم سيعكفون على رعايـة أخته والطفل، كأنها واحدة منهم، وبعد انقضاء المدة سيعدون لها سفرة آمنة في المكان الذي يحددونـه، ليتسـلم الأرملـة والطفل والمرقوقة. لم ير غياث داعيا لإقناعهم لما شعر بـه من أمانة هؤلاء الرجال.

لو كانت ليل التي جاءت لقامت ـ كما تعتقد سـنانية ـ بحمايتها على خير وجه، ولكانت خرجت بها من الواحة، هي على يقين بأن أختها قادرة على إقناع الرجال، وإن أعيتهـا الحيل، ستبلغهم للعلم فقط، أنها سترحل بأختها ووليدها، وأن الشيء الوحيد المطلوب منهم هو إخلاء الطرقات التي ستمر بها، ستقول هذا لتبعث الاطمئنان في نفوسهم، ولأنها لبقـة، ستتعهد أن تظل الأرملة معصوبة العينين في قافلة السفر ولن ترى سوى ثلاثة: ليل والوليد والمرقوقة.

بعد انقضاء مدة الحجر، خرج مناد بصحبة غلام يقرع طبلة صغيرة، منبهين الأهالي إلى أن الغولة ستخرج صبيحة اليوم التالي، في الصباح يتوجه رجال الواحة كل إلى عمله أو بستانه، وتغلق النساء أبواب دورهن على أنفسهن وصغارهن.. يفلت بعض الصبية من مراقبة أمهاتهن، ليجروا في الطرقات يهتفون « الغولة جايلكم، خبوا عيالكم » وتبدأ كوكبة النساء المحيطة بسنانية في البكاء والنحيب كأن الزوج قد توفي لتوه.

عدن إلى « عين طاموسة » مرة أخرى لتغتسل وتخلع ثوب حدادها، لكن اغتسال سنانية هذه المرة لا يعفيها برأيهم من قدرتها على إلحاق الأذى والدمار، لذا لجئوا إلى طريقة عملية، فاقترحوا أن تتربص سنانية وهي واقفة على سطح دارها بأحد المارة من ذوي الحظ السيئ، بإمكانها تأجيره من الفقراء، وتلقي عليه قطعة من الجريد، عندئذ تبرأ من لعنتها.. إذ يفتدي هذا الفقير الواحة ورخاءها معا.

عرض بعض الرجال الزواج بسنانية، رفضت بإصرار وطلبت من الأجواد الوفاء بوعد أن تصل آمنة إلى حيث ينتظرها أخوها في الإسكندرية.

كالمستجير من الرمضاء بالنار، كان حال سنانية.

أركبها الأجواد مع قافلة تكرورية فـي طريقهـا إلـى الإسكندرية، أوصوا بها خيرا لدى أحد نـبلاء التكـروريين. صحراء جرداء على مدى الشوف، لكنها أكثـر أمانـا مـن الواحة وأهلها، يرطن المسافرون وتتلبد ملامحهم، ولم تتمكن الشوشان من معرفة ما يجري، لاحظت المرأتان أن الرجال أقبلوا على ربط عمائمهم إلى رقابهم.

- حاولي أن تعرفي.

بعد قليل عادت الشوشان وأخبرتهـا بـأنهم يربطـون العمائم خوفا من أن يخطفها أحد اثنين: العسكر أو العربان.

قبل أن تخرج القافلة من الواحة نقلـت لهـا الشوشـان ثرثرة الرجال حول عدد من قبائل البدو امتنعوا عـن دفـع أموال الخراج وأن معارك العسكر العثمانيين معهم لم تحسم.

- لماذا يرفضون دفع الخراج؟

- يعتبرون أنفسهم أصحاب البلاد هنا.

- إذا كانوا هم أصحاب البلاد. فمـن يكـون الفلاحـون والأقباط؟! قولي لي: هل تمكنت فـرق الـوالي مـن الانتصار عليهم؟

- لا.

- كيف وأسلحة العثمانيين أقوى؟

- يقال لأن نساء وأطفال العربان يركبون خلف فرسانهم وهم ينشدون الأشعار والأغاني ويضـربون الـدفوف لإثارة حمية الفرسان للدفاع عنهم.

- هكذا؟!

كانت بلا جدوى، كل التدابير التي اتخذتها القافلة لحماية نفسها أو تغيير خط سيرها للتمويه.. حيث وقع عليهم العربان كالجراد بأعداد كبيرة وسرعة خاطفة.. ووسـط الفوضـى، والصراخ والدمار وخسائر فادحة مني بها كل مسـافر، رأت سنانية بالمقارنة أن خسارتها محتملة: خطفوا مرقوقتها.

حاولت أن تجري في اللا اتجاه، مدفوعـة بغريـزة أن تحمي نفسها وطفلها وثروتها الصغيرة.. أمامها خياران: أن تظهر نفسها أمام العربان، أو تستنجد بهؤلاء الغجر العابرين هناك..

ولم يكونوا أكثر رحمة من العربان.

سلبوا مالها وهددوها بأخذ الرضيع وبيعه إذا لم تلتـزم الهدوء حتى يصلوا إلى العمران حيث يمكنهـا أن تمضـي،

مروا بالكثير من العمران: مدن وقرى، قضوا مصالح وأحيوا موالد، وما تركوها لترحل، فهي وابنها أثمن مـن تركهمـا لحال سبيلهما.

فهمت سنانية، بدأت في التكيف معهم، سجنت نفسها في حاضر أبدي، أفرغت فيه المشاعر، غلقـت منافـذ عالمهـا الداخلي على أفكار وذاكرة قديمتين خشية أن تُفـتح بغتـة، يحدث ما تهرب منه: أن يصعد هذان الأمران المروعـان - أفكارها وذاكرتها - ويقتحمان وعيها. لأنه من المحتم أنهـا ستفقد توازنا مصطنعا.

هذا التوازن المصطنع يجعلها تحيا بأقل قدر من البؤس.

في كلماتها وإيماءاتها تترك الباب مواربا لثلاثـة مـن رجال الفجر، تغذى ولعها بأن تكون موضـع إعجـاب، أن يتنافس الثلاثة على نيل رضـاها وقبولهـا، ورد الاعتبـار لشفتيها إذ سألتهم واحدا فواحدا.

- ما الذي لفت نظرك في ؟

كأنما تبغي في كل واحد منهم تفرده الخاص، وما جنت سوى معرفة الجنون الذي يميز أحدهم عن الآخرين، وطـأة

الجنون لثلاثة رجال أثقلت كاهلها، تستنزفها الغرابة، وتقلقها رغبة تتضارب بين شبق متوقد لا ينصب على رجل بعينـه وندم يملي عليها أن تتوب عن اثنين منهم.

عجوز بخيش الغجر الذي نصب خلف سـاحة المولـد، نادتها:

- تبدين الآن وكأنك واحدة منا.
- أحقا؟!
- اعتدت على طباعنا وتعلمت فنون الرقص.
- وسأتعلم منك التبصير.
- قبل أن تبدئي بقراءة البخت والتبصير، اعرفـي مـن أنت.
- كيف؟
- هات كفك.

نحت العجوز كف سنانية بعد نظرة عابرة وقالت: هناك شيئان لا بد لك أن تعرفيهما أولا.

- ما هما؟
- أن المرأة لا تبحث بل تجذب، وأن الإبرة اللـي فيهـا خيطين ما تخيطش.

- لا أفهم!!

- ربما غدا تفهمين.

أمسكت بكفها مرة أخرى وتكلمت بلهجة خليط بين العامية المصرية والسيم الغجري، أعادت حفيدة الترجمان كتابتها بالفصحى الأقرب للفهم.

قالت العجوز: ( علاقاتك الشخصية سيكون مآلها الأسف والخسران ما لم تتوخي الأمانة والصراحة، يفضل أن تستشيري النجوم قبل أن تلاحقي رجلا يثير اهتمامك.

عدوانية جدا في علاقاتك، تجتذبين الرجال الأقوياء وقد تتعرضين للعنف إذا تركت المشاكل تتفاقم.

تفتقرين إلى إدراك واضح لنفسك وحياتك، وتميلين إلى قطع وعود فارغة.

تميلين إلى المخاطرة من أجل قليل من الإثارة، ستعرفين الحب والفقدان والحزن تجاه أحبابك من الرجال سوف تتلقين هدايا وأموالا منهم.

لديك الكثير من الأعداء السريين، تنبهي لمن تبـوحين لهم بأسرارك، تتلفعين بالسرية في تعاملاتك وتدافعين عـن نفسك حتى وأنت مدركة أنك أخطأت.

تجتذبين عشاقا عاطفيين وعمليين، لكـنهم لا يضـعون مصلحتك في اعتبارهم.. أنت صانعة مآسـيك، ردود فعلـك تجاه المواقف يمليها مزاج اللحظة.. التنـوع هـو التوابـل لحياتك، تضجرين بسرعة، لا بد أن تكوني في حركة دائمة، تتململين في تعاملك مع الأشياء في الوقت الذي تحرصين فيه على اقتناء تلك الأشياء ).

هل فات على العرافة أن توفر نصائحها وتحذيراتها، أو لم تدرك أن سنانية تجد صمام أمنها في عز معمعة التهديـد الدائم؟! وتتقلب العاطفة لديها بنفس سرعة تغير أزياء النساء.

على كل، قالت لها العجوز إنها بحاجة إلى جلد أفعـى، تجففه وتشده عليها، فيحميها من السحر.

تزوج واحد من رجال سنانية بواحـدة مـن جمـيلات الغجر، وبعد أسابيع قليلة حاول أن يعود إلى براح يأمله فـي

علاقته بسنانية، وقد نسي أو تناسى ما أبعده عنها: شـعوره بأن توهجها الخارجي، ما كان ليخفي أبدا جدبها الداخلي.

إلا أن سناينة رفضت عرضه، فلا يزال بدنها يقشـعر من فكرة هجره لها من جديد، تمتمت: بعد ساعة سيكون عند أخرى بالعرض نفسه، يغويها من أجل أن يرضى عن نفسـه أكثر من أن يتمتع بجسدها.

ولأنها تخاف الهجران، ستبادر مـن الآن فصـاعدا أن تكون هي المبادرة بالهجر.

في دأبها للبحث عن رجلها الخرافي، كانـت تـروم أن تصدح ذاتها البكماء، وتشتعل عواطفها المتبلدة في كل رجل تعرفه، من عادتها أن تتوغل، مع رجل تصادف أنه يعجبها، في الحكي عن نفسـها، ماضـيها، حاضـرها، خسـرانها، وأفراحها.. تفعل هذا كله قبل أن تكون مستعدة حقا لأن تقطع وعدا له.. تعرف أنها تتورط في علاقة لا تـتكهن مـداها، وحينما يطلب منها الزواج تصبح مشوشة.

تسأل نفسها: لِم تقدمين على هذا الأمر؟

تطرد الفكرة عن رأسها وتبرر: حتى لا يقتلني الضجر والوحدة، نصف العمى أرحم من العمى كله.

تتشنج معدة سنانية وتدمع دما طلبا للحب والمسـاعدة، معدة تنزف لأنها لا تستطيع البتة ابتلاع مغامرات محبطـة خلافا لصاحبتها، المولعة بالتجاريـب، وهـي الآن منتشـية بلعبتها الجديدة: تكوين ثالوث، امرأتين ورجـل أو رجلـين وامرأة.

تعرف الآن أن الحب ميدان قتال، وهـي علـى أهبـة الاستعداد دائما للغزو.

خلافا لنساء عصرها، تتباهى سنانية بأنوثتها وفنونهـا الحسية، تجتذب الرجل إلى عالم فانتازي، تلعب بعقله حتـى يفقد القدرة على الإفلات من أسرها، تمرح معه إلى أعمـاق مجهولة بلا مكبوتات وفي الوقت الذي تبـدي فيهـا شـغفها بإسعاد رجلها قبل أن يهمس بأمنيته، فهي سريعا ما تهجـره، استعدادا لنوبة من السوداوية ما بين أفول علاقة والبدء فـي أخرى، وأشد ما يكدرها في هذه النوبة أن الناس يجلون ليـل ويقدرونها في أحاديثهم، ولن تنال ما حازته أختها الكبيرة.

استوضح الجلاب ما تفوه به الغجري قبـل هنيهـة:- تقصد أن تقول لقد بلغ السيل الزبى.

- لهذا نبيعها لك.
- إنه بيع محاط بالمشاكل والريبة، فعلي أن أوفر صـكا مزورا، ولكن كيف أبيعها وهي مسلمة؟
- تصرف.
- سأدفع عشرين نصف فضة.
- إنها امرأة شابة ومعها طفل.
- تكفي العشرون لكليهما.

حملت سنانية وطفلها « سـعد الـدين » البـالغ عامـا ونصف العام إلى قصر على النيل، أخبرها الرجـل الـذي اشتراها أنها ستمثل حالا، بين يدي سيدها صاحب القصر.

- ومن أنت؟
- أنا وكليه.
- ما اسم سيدي؟
- الخواجة المطراوي.
- الخواجة المطراوي!! أين نحن الآن؟
- في المنصورة.

- سمعت أن ذلك السيد يقيم بدمياط.

- صحيح، هذا القصر معد لعزلته واعتكافه.

- اعتكافه؟

- أقصد طلبا للراحة والهدوء.

أهذا هو المطراوي الذي ساعدهم في طفولتهم؟! إذ واظب على أن يدفع عنهم أجر القناديلي عشرة بارات شهريا، ليظل القنديل مضاء على باب بيتهم ليلا، وكان السقا يذهب لوكالة المطراوي أسبوعيا ليتقاضى أجره حسب عدد القرب التي يخطها بالطباشير على باب دارهم؟!.

أهذا هو المطراوي الذي يتصدق على الفقراء، ويعول الأسر التي يكون عائلها مريضا أو عاجزا، وينفق على البيمارستانات، والكُتّاب، وعلى طالبي العلم من شباب الشيوخ؟!.

سمعت أنه يتبرع سرا لكنائس الأقباط والسريان لاستكمال خدمات أو ترميم أجزاء من الكنسية، وسمعت أقوالا أخرى تصف ما يتواتر على ألسنة الناس بهذا الصدد وهو محض افتراء ونميمة حاقدة ترمي إلى الانتقاص من قدر الرجل، غير أنهم لم يتمكنوا من نفي حقيقة أن

المطراوي يذبح الأضاحي في الموالد الإسـلامية والقبطيـة على السواء، لأن عامة الناس يذهبون للتبرك في هذه الموالد بغض النظر عن الديانة.

صدقاته الجارية منثورة في أحياء دميـاط مـن أسـبلة وتكايا، بل ويستجلب الأطباء من القاهرة والإسكندرية لعلاج المرضى.

أهذا هو المطراوي الذي يقول عنه الزعر إنـه يسـرق الناس ويهرب خبزهم وقمحهم، ليعيدها إليهم منة وصدقة؟!

سيدة التجاريب تحظى في قصر المطراوي بصداقة العم مع « بيسي » اليهودية.

تسدي لها النصح: بيسي، إذا كان ولا بد لك أن تملكـي ضمانا بأن كل الأمور ستكون على ما يرام قبل أن تقـدمي على المخاطرة، فلن تتحركي قيد أنملة لأن المستقبل لا يعـد بشيء.

- سنانية، تذكري أنهم أهلي.

بيسي تقف على الحافة الفاصلة بين قبولها واحتضـانها من جديد أو نبذها، من قبل عائلتها وقومها ومن أهل دميـاط أيضا.

تشعر الراقصة « بيسي » أنها مثل جرذ فـي متاهـة تحيطها جدران نارية وممرات جليدية، طويلة ضيقة، تفضي إلى زوايا بها مداخل غامضة.

ما من علامة تخبرها إذا مـا كانـت علـى الطريـق الصحيح، أم أنها تضرب على غير هدى، تخـاف أن تقـف فتلمسها ألسنة اللهب أو تجلس فتصاب بحروق الجليد، لم تجد بديلا عن الدوران حول نفسها، سوى أن تقعي على ركبتيها.

سألتها سنانية: هل صرخت طالبة العـون؟ ربمـا لـم يلحظك أحد.

تحلم بيسي بعرق غزير بارد يخضل وجهها، وغصـة تعوق أنفاسها، رفعت وجهها، كأنهـا رأت طيـورا بيضـاء رابضة على الحيطان، راغبة في إعانتها، غردت لها: « حبة مودة وحبتان استكانة وخضوع ».

ستجدين الفلاح في كلمة « يمكنني » ويلازمك الفشـل في كلمة « لا أستطيع ».

عائلة بيسي غاضبة منها لأنها لم تلتزم بالشريعة وقبلت أن ترقص في حفل يقام ليلة سبت لم يتصارحوا في الكشـف عن سبب اضطرارها للقيام بهذه الفعلة، فلم يسـألها أخوهـا الأصغر الذي سيرث نصيبين من ثروة أبيهم باعتباره « فاتح الرحم » إذا ما كانت بحاجة إلى مال لرعاية ابنتها.. أيضـا أختها الكبرى « راشيل » ذات الزوج الثري، خرس لسـانها عندما طاف بذهنها ضرورة أن تسألها عمـا ينقصـها فـي معيشتها لتكمله.. وأبوها المسافر دائما لا يعلم عن ابنته شيئا تاركا الأمر لذكر العائلة.

ولم يكن يرحب بها أهل دمياط، أطلقوا على أبيها لقـب « نباش القبور » لما يشاع عن تهريبه لجثث قديمة محنطة، وهو انتهاك فظ لحرمة الموتى حتى ولو كانوا فراعين كفارا، ولأن القاضي لم يحكم بإدانتـه، قـرر النـاس أن يـدينوه بطريقتهم.

تعرف بيسي بنت السرياقوسي أيضا ما يتقولون به على عمها مدير ديوان جمرك دمياط وعلاقته المالية المشبوهة مع الخواجة المطراوي.

لو كانت بسيي ثرية لتملقها الناس، وما كانت يوما ثرية أو امرأة ولودا.

قام والداها، النازحان من الأندلس، بتزويجها وهي فـي الخامسة عشرة من عمرها مـن يهـودي أندلسـي مـثلهم، واستقروا في مدينة فاس بالمغرب، لم تنجب بيسي وعاشـت مع زوجها عشرة أعوام، ثم أجبره أهله على تطليقهـا، لأن المرأة التي لا تنجب في هذه المدة، وجب دينيا تطليقها.

ارتحلت أسرتها إلى مصـر متشـجعة بنجـاح عمهـا السرياقوسي في دمياط، وتزوجت مرة أخرى مـن يهـودي مغربي مستقر بدمياط، أنجبت بنتا، وظلـت تكـافح لأربـع سنوات حتى حصلت على الطلاق. عرفت بيسي من تجربتي زواجها أن يهود المغرب مثل يهـود الأنـدلس، يترقبـون الانعتاق بظهور المسيح المنتظر، ليقودهم من حيـاتهم فـي الشتات ويعود إليه الاعتبار بكونه شعبا مقدسا.

تستغرق بيسي في شرودها ذي الانتقالات السريعة:

« والغريب أن كل فترة وأخرى يظهر مسـيح دجـال، ويتبعه شعب الجيتو إلى أن يكتشفوا زيفه. كان يهود الجيتـو هم الأسرع تصديقا لكل من يزعم نفسه مسيحا، لأنهم حبسوا أنفسهم.. وبيسي وأخوتها يكرهون الانعزال، لـذا ضـغطوا على والديهما فعبروا عن رفضهم أن تضرب عليهم جـدران حارة اليهود في القاهرة، ففي دمياط سيسكنون وسط النـاس، ربما بالقرب من قصبة الثغر التي تضم تجمعا يهوديا، لكـن يسكن بها أيضا مسلمون ومسيحيون، حيث من الأسهل لهـم أن يكونوا معارف وأصحاب، وإذا لبسـت الأختـان مثـل مسلمتين، فلن يقابل الأمر بصرامة كما في القاهرة.

زيادة في إقناع والديهما قالوا: ألا تجـدان راحـة فـي تنكرنا في هذه القافلة المتجهة من المغرب إلـى مصـر، ألا تريان رجالنا من اليهود وقد تعمموا ونساءنا قد تحجبن.

تفيق بيسي من شرودها وتتمتم: الله رحيم.

استأنفت سنانية الحديث: إذا توقعـت أن يفهـم النـاس ويتفهموا ويقدروا كل ما تقولينه أو تفعلينـه، فلـن تشـعري بالإحباط أغلب الوقت، بل وستكونين ضحية لهم.

أترين أنك تستحقين العقاب أو النبذ؟

في لحظة ثقة ردت بيسي: لا.

- إذًا كوني صلبة.

لكن صوتا يضرب في جنبات بيسي يقول: نعم، استحق العقاب والنبذ.

سرعان ما كانت بيسي تحوز قلوب النساء: لقد ضـللت يا أختي، ما هو الطريق إلى عزبة النسوان؟ ( ملابسها تـدل على يهوديتها في أيام التشدد ).

يحنو النساء عليها للطفها: من هنا.. يـا أختـاه، لكـن الطريق طويلة، عليك أن تكتري حمارا.

تحكي لسنانية عن نساء قصر المطراوي، في أحد الأيام اجتمعت زوجتا المطراوي وضـيفاتهما والجـواري يـدخن النرجيلة، يتبادلن الحكايا والنوادر وهـن ناعمـات البـال، مغمضات أعينهن ومرتكنات إلى وسائد مخملية، منتظـرات هونا أن يفور حماس بيسي إلى الرقص لهن.

ما اهتمت بيسي أن تزيل الزغب الأصفر عن ذراعيهـا ووجهها أو حتى تحت إبطيها.

تسألها النساء: لم لا تهتمين؟

- هكذا خلقني الله، وحقيقة أنا الآن غير مهتمـة علـى الإطلاق باجتذاب رجل، وغمزت: ما حال الرجال في مصر؟

ولما كن يعرفن أنها طلقت أخيرا من زوجها الثـاني، رددن الغمز لها تنفيسا لغضب أو دفعا لحسد: مثل كل الرجال في المغرب وأي مكان في الأرض.

أطلقت الجارية المختصة فقط بتقـديم القهـوة تنهيـدة طويلة: ما في زول زين، خلصوا كلهم.

وضحكت النساء.

وسط القهقهات انطلقت صرخة ألم من إحدى الضـيفات التي فوجئت بعلامات ولادة مبكرة.

احتارت النسوة، فالضيفة يهودية زائرة مـن مقـدونيا، ولادتها عسيرة وحياتها فـي خطـر بحثـت بيسـي وهـي مضطربة في بقجتها، رفعت ورقـة كأنهـا فـازت بهديـة سلطانية، اتجهت إلى موضع الألم عند المرأة ثـم وضـعت الورقة تحت لسانها، وأخذت في قراءة كلمات توراتية.

سألتها النساء: ما هذا؟

- ورقة بها أربعة حروف ( ا، م، ف، ط ) إنـه مربـع سحري يضمن الحـروف الأربعـة لأسـماء وآيـات توراتية، حيث لا تعفى من آلام الوضع التي فرضـت على حواء سوى الصديقات.

مدحت سنانية صديقتها: الآن عرفت أن لديك مهـارات مخفية، إذ يمكنك أن تتكسبي من الـرقص والمسـاعدة فـي التوليد، ولكنك لا تكسبين ما يتيح لابنتك الحياة المسـتريحة التي ترغبينها لطفلتك، لماذا لا تواجهين أخاك الذي يبخسـك حقك؟

- اسمعي يا سنانية، لا بد أن تتفقي معي في أنه يجدر بنا نحن النساء أن نضحي ونتحمـل الآلام: آلام الإهانـة والإهمال تكفيرا لذنبنا الأول.
- ما هو؟
- ما هذا ألا تؤمنين؟ أو ليست حواء هي المسئولة عـن كل بلاوي البشر!!

إذا ما تحدثنا عن العصر الذهبي في حياة سنانية، ربمـا ستكون فترة إقامتها كجارية في قصر المطراوي.

سألها المطراوي يوما عن مزاجها المرح الـذي تـتقن استعماله حيلة للإغواء.

ردت: أنا ابنة الحب.

- آه، وابنة الحب تشعل القصر حريقا، وتطرح أرضـا كل قاطنة في الحرملك، كي تفوز بي.

- والأهم، أن تكون لي وحدي.

أحبها المطراوي. هذه حقيقة.

كلاهما جد متشابهين كلاهما عصي على الامتلاك فـي الوقت الذي يود كل واحد لو امتلك الآخر: أن يمتلك.

عندما تنتصر سنانية على غريمة لها في حـب وجسـد المطراوي، لا تشعر بالتشفي، بل بشـفقة نصـفها ازدراء، وتبكي من أجلها.

انتقمت إحدى غريماتها من الجـواري لقيـام سـنانية بخطف المطراوي منها، فقامت بإلقاء ماء عزم عليه الساحر بطلاسمه على بسطة السلم المطلة على غرفة سـنانية التـي رأتها لحسن حظها بينما كانت تهم بفتح الباب، عرفتها مـن ذؤابة شعرها حينما كادت تفلت من مرآها، نظرت سنانية إلى الأسفل، ووجدت ماء دلق على بسطة السلم، وكان لا بـد أن

تمر بها، فهمت، عادت إلى غرفتها وأحضرت حفنـة مـن الملح رشتها على الماء، رددت وهي على وشـك أن تفـتح ساقيها لتمر فوق الماء، أدعية منها: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن الشياطين...

تعاين سنانية البقعة يوما بعد يوم وقـد اسـتحالت فـي نظرها إلى بقعة زيت عسيرة الإزالة.

لم يحرمها المطراوي من الإثارة التـي ترفـع قـرون استشعارها التملكية إلى الحد الأقصى، يفاجئها بجارية أجمل وأصغر، وقد يقبل عودة رقص بعض معشوقاته من أجمـل الجواري في حياته مجددا. إذ كلما أشع هـاجس الاسـتحواذ لدى سنانية كلما أصبح حبهما عنيفا وقاسيا ومكثفا، حينئذ، في الفراش لن يمارسها حبا بل تنافسا وعراكا واستعراض فنون هي هبة اللحظة.

ولأن دمياط بلدة صغيرة فمن العسير إخفاء سنانية ومـا انتهت إليه في قصر المطراوي.

غاضبا ومحتدا، ذهب غياث الدين إلى المطراوي فـي وكالته ليعلمه أنه لا يجوز له أن يشتري عبدة مسلمة.

استهان المطراوي، رد مناكدا له لإغاظتـه: هـذا مـا حصل.

رفع غياث الدين مظلمة إلى القاضي الذي انحاز لصحة موقف المطراوي لأسباب تتعلق بإجراءات بيع سنانية، التـي خدع فيها المطراوي نفسه، ولم يشر من قريب أو بعيد إلـى دين الجارية.

لم ييأس غياث، عاد بعد فترة، طلـب مقابلـه أختـه، عرض عليها أن يطلب من المطراوي أن يعتقها أو يسمح له بشرائها، تكاد سنانية أن تبلي كُم ثوبها مسحا وتنظيفا، تناقش الموضوع مع أخيها بهدوء ثلجي. وتتفحص بدقة كُم ثوبهـا، كأنها تناقش موضوعا لا يخصها.

زمجر غياث: - دعي كُمك، انظري الي.

رفضت سنانية، تحججت بأن عيشتها في القصر رضية وأنها لن تترك كل هذه الدعة والراحة من أجل تقشير الفـول السوداني لتنفق على ابنها.

ما لم تفصح عنه سنانية أنهـا أدمنـت لعبـة خطـف المطراوي من كل جارية جديدة تروق له.

- لكن..

- ماذا تقولين؟

اختبرت الهواء بإصبعها، صوبتها إلى أخيها: - يمكنك أن تطالب بسعد الدين، فلا أرغب له حياة العبيد.

وجه غياث الدين الإهانات إلى المطراوي، الذي لم يبـد عليه أي غضب، فقط شعر بالتهديد عنـدما طالبـه بأختـه سنانية، ردد كتميمة: أنا الأحق بها.

وإمعانا في إذلاله: - علينا أن نقتسم سنانية كشـطرين متساويين، أنت بما تدفعه لعتقها، وأنا بملكيتي لها، لأنك لـن تدفع ما يوازيها عندي، إنها لي.. وأهون لي أن أراها ميتة، على أن أفقدها، وأعيدها لك حرة.

يشعر غياث بضآلته، إنسان بسيط مستور الحال، أهـين وسلب.

- وسعد الدين؟

- اشتره.

ولقد فعل، دفع كل ما يملك.

أكان المطراوي يكرر في سعد الدين ما حدث لـه مـع الدفشرمة، أن يباع ليصبح ابنا شرعيا، ربما؟!

والمؤكد أن المطراوي يحسد الطفل سعد الدين على أنه ابن شبه شرعي لأن من اشتراه هو خاله من دمه ولحمه.

في طريـق قـال الخـال محتويـا الكـف الصـغيرة لسعد الدين، إنه يريد أن يلملم شمل العائلة، وإنه لا يتحمل أن بتشتت أولاد أختيه في الأرض، وأن خالته ليل ستعود إلـى دمياط في الصيف القادم ومعها مولودها الصغير: نور الدين.

هنأ نفسه في نجاحه بالفوز بسعد الدين، أقل عمل لـرد جميل الأخت الكبيرة التي ربتنا أن هذا الطفل في أحضاننا.

استقبل سعد بفرح من قبل بنات خاله، وبترحاب أكبـر من جانب زوجة خاله التي هدأت وساوسها في أن غياث لن يتزوج بأخرى لينجب الذكر، لم تعرفه حصـيفا إلا عنـدما جاءها بسعد الدين الذي ستربيه على مساندة ومعاونة غياث، فالخال والد كما يقولون، وتبث فيه روح المسـئولية، القيـام برعاية بناتها، حتى الكبرى منهن التي تتقدمه سنا.

ما انتظرت الزوجة أي تلميح من غياث بأن الولد منعم، معتاد على الرفاهية، غمرته بمعاملة خاصة، وبدأت تـنقص منها تدريجيا. أن يخشوشن الولد من خلال لعبه مـع بنـات

خاله، أن يساعدهن ويتلهف على الاستيقاظ المبكر ليشاركهن واجباتهن المنزلية والتي تتضمن الخروج لشراء الحاجيات.

يوما، ألقى على خاله تحية الصباح، ودس يده الصغيرة في كف خاله طالبا منه أن يذهب إلى الحانوت.

- ماذا ستفعل؟
- سأكون الصبي الذي يحضر لك النرجيلة والقهوة.
- ولك مني بعد كل صلاة الجمعة ثلاث بارات.
- تسلل السأم الرخو، استهلكته واستهلكها.. دخل الفتـور حثيثا بينها، خافت فحذرته – مدارية حبال الضجر في صوتها – من أن يضطجع مع أخرى.
- لن تفقديني إذا ما نمت مع أخرى، ستفقدينني إذا أحببت أخرى. يكذب كلاهمـا، يمـثلان الحـب والاهتمـام والرغبة، يمطان الوقت ويسوفان فيه، خشية أن يدهمها الفقد، فقدان كل للآخر في أقل من رعشة جفن.

**عندما تأخذ سنانية من رجلها شيئا ما، ثـم تحرقـه.. ذلك يعني أنها قد أخرجته من حياتهـا. عرفـت أن الأمـر انتهى لما ضبطت نفسها تبحث عن ذلك الشيء مـن أثـر المطراوي، شرابة طربوشه.**

وبكل غل أحرقتها.

سمع المطراوي أن تصرفات سنانية مع العبيـد باتـت تفتقر إلى الحشمة، فأمر بجلدها وأعلـن أنهـا لـن تعامـل كـ« سرية » بعد اليوم وكُلفت بأعمال شاقة.

ونُسيت سنانية.

ويراكم غياث حقده على المطراوي لأن ما يقـع علـى أخته الضحية لا يحتمل.

أثناء مروره بأحد المجازات السرية في طريقـه إلـى الإيوان الشمالي لمقابلة جوقته وصديقه عاشق الفنادق، سمع عبيدا يخوضون في سيرة سنانية لأنها أقامـت علاقـة مـع صديقه التاجر يحيى بن فلتس، هكذا إذن، بعد أن اسـتنفدته واستنفدها.

خرج إلى مجاز مطروق، للوهلة أطلق الغضب لسـانه بالشتائم، هرع إليه بعض الخدم يتساءلون إذا كان يريد شـيئا وهرب آخرون، أشار بأن يتركوه لحاله.

جلس في معتكفه والإضاءة شاحبة، هل يجلـدها مـرة أخرى؟ هل يقتلها؟ هل يحبسها؟ ابتسم لاهتدائه إلى الانتقـام الأفظع لكل من سنانية ويحيى، لماذا لم يخطر بباله من قبـل

أنهما متشابهان؟ يكذبان كما يتنفسان ويبالغـان إذا صـدقا، يسعيان حثيثا للإثارة.. وإن كانت سنانية قد فشـلت فـي أن تلعب معه « كبير التجار ».

لعبتها المفضلة: تحقير المعشوق، فقد وجـدت رجلهـا، ذلك اليحيى الذي ينطوي على توق عظيم لأن يهان.. ينتشي بالإهانة، ويلتصق أكثر بالمرأة من ذلك النوع، وتصبح شهية بنظره كلما سامته العذاب.

إذا وضع العراقيل أمام غرامهمـا سيشـتعلان افتتانـا ببعضهما، حتى لو أدرك كل مـن سـنانية ويحيـى أن مـا يمارسانه هي لعبة ستنتهي يوما.

قرر المطراوي أن يحرمهما من الثالث الـذي يـؤجج جسديهما، قصم ظهريهما، إذ أهدى بطيب خاطر وعلى نحو غير رسمي، سنانية إلى صديقه يحيى.

أصبح غضب غياث وإحساسه بالعار ومذلته إزاء تنكيل المطراوي بأخته، فوق كل احتمال.

# الفصل الرابع

**« إن العصور القديمة لا تختفي تماما وكل الجـروح، حتى أقدمها، تظل تنضح دما »**

أوكتافيو باث

**« متاهة الوحدة »**

تتمدد السماء وتتسع حتى كادوا يشعرون بالضياع: ليل وآمونيت وابن أخيها.

ضوء أبيض مشع في الفضاء بين الشـمس والرمـال الصفراء، والأحجار الشاهقة في الحرارة اللافحـة، بشـكل غريزي أغلقوا عيونهم، تفتت الضوء إلى بلورات ثـم إلـى فقاقيع كبيرة.

على نثار الضوء صاح الشاب: يقولون إن الهرم موئل للجن.

ردت ليل: كما كانوا يقولـون علـى الخرابـة، لـذلك أصبحت جزيرة للفل، أين كنت يا آمونيت لحظتها، أقصد يوم القيامة؟

لم ترد آمونيت مأخوذة بالهالة الزرقـاء حـول الهـرم الأكبر، قالت: إنه مكان جليل.

أشار الشاب مع اقتراب رحلتهم إلـى الهـرم الأكبـر: تقصدين يا عمتي أنه مكان روحاني.

- من الكتب الدنيوية القليلة في مكتبة ديـر أم البـراري « سانت دميانة »، قرأت كتابا باللاتينية يقول إن الهرم الأكبر يقع في منتصف العالم، بالضـبط فـي مركـز الأرض.

- ألهذا...؟

- وله قدرة شفائية ومطمئنة يا حنين.

- أهنا تنتهي المغامرة يا عمتي؟

صمتت آمونيت، نظر حنين إلى ليل:

- هل سنجلس في ظل الهرم يا خالة؟

لم يراع أي منهم الإجابة على أية أسئلة علـى الفـور، كأنما رهبة المكان تخيم عليهم بالصمت والتأمل.

بعد قليل قالت ليل وهي تنظر إلى آمونيت: أعتقد يا بني أن المغامرة ستبدأ.

آمونيت: لندر حول الهرم.

حنين: ما الذي يدور برأسك يا عمتي؟

آمونيت: ثمة مدخل سري للهرم، استخدم فيه اللصوص طريقة الخليفة المأمون بوضع المعاول في النيران حتى تصل إلى درجة حرارة الاحمرار ثم يضعونها في الخل لتزداد حدة وصلابة.

- كيف سنكتشفه.

- لدينا الوقت والأمان.

استغربت ليل: الأمان!!

آمونيت: نعم، لا أحد سيقترب منا، باعتبـار أن الهـرم سكن للجن.

ليل: لا أشعر براحة، هيا نعد، ليس من الضـروري أن تشفى ساقي.

أيدها حنين: استعنا على الحر الشديد في السـفر بشـم بصلة.. بم نستعين على الخوف؟

كانت خفقات الاضطراب والقلق والخوف تضرب فـي جنوب ثلاثتهم.

وبالرغم من ذلك تقدموا.

وجدوا فتحة مردومة، لم تأخذ الكثير من وقت حنين.

تصاعدت أنفاس التوجس في صدورهم، كـاد الغثيـان يصيبهم من الذعر، أمسك كل يد الآخر.. وبمجرد خطـوهم معا إلى الداخل زال عنهم كل اضـطراب وأحسـوا بسـلام مباغت وغامض.

- يا لها من رائحة لطيفة.

- الهرم بداخله رائحة الليمون!!

إلى جانب زمزميات الماء والمشاعل، بحثت آمونيت في الخُرج وشرعت بتبخير المكان بنبات الشـيح لأن رائحتـه تطرد الحشرات والثعابين، وبعد أن تلاشت الرائحة أشـعلت نبات السرو البري لأنه ملطف ويبعد الهوام ويـدفع ضـرر لسعتها.

وفي تنظيفهم للمكان، وجدوا قططا ميتـة وجافـة، لـم تتعفن، قطة واحدة لم تتعفن أو تتحنط، لا تزال بجسدها الحي كأنما غفوة داهمتها.

قالت آمونيت: هذه القطة نفقت منذ يوم أو يومين.

- كيف عرفت؟

- أبصر لولبيات من سحاب تغادر جسدها، تتوقف هـذه اللولبيات بعد ثلاثة أيام من الموت.

للوهلة، سرى تشاؤم في عظامهم.. جرفه بنعومة جـو السكينة الطافي داخل الهرم.

انسل من عضلات أجسادهم التوتر، ثقلـت أطـرافهم، يخامرهم شعور بالسلام والاسترخاء.. والوسن.

ليل وسنى، تكاد روحها تلمس كيانات أخرى تشـاركهم المكان، كيانات عارفة، كريمة، أطلت عليها في لحظة هاربة بالاندهاش.. تراسلت المعاني بينهما بألفة، دلفت إلى أحـلام تنبؤية ملغزة، ونبوءات أخرى انتقلت مـن صـدورهم إلـى صدرها، بأي صوت، بأي لغة؟ لا تعرف.

منهم من يحمل في هيئته سمات الجلال والهيبة، ملكات حكيمات وهؤلاء الزهاد، وآخرون عليمون ذوو نظرة ماكرة، توقفت ليل عند هؤلاء الماكرين من رجال ونساء وسـمعت نفسها تقول ما لم يرد على ذهنها أو لسانها من قبل: - لا بد أن صناعتكم هي الكلام.

أحدثوا جلبة وضوضاء من تداخل كلماتها، تضـاربها، عزفها النشاز. بقي كلام كرنين، كرجع صدى لـوتر ربابـة مسته إصبع، الشجن.

انفصلت ليل عن جسدها، تحلق، ويا للروعـة، تـرى البحر ترتجف على أمواجه شموس مسائية صغيرة، رفرفت في فضاء قمرة / مصرية، إنه ليث الدين بأتم عافيـة وبـال رائق، ورجل تألفه ولا تعرفه يحدق في وجه أخيها المتأمل، إنه يحدق فيها الآن: هل يراني حقا؟

حلقت فوق قرية في ضباب ذاكرتها، تحبو جائعة وثدي أمها ناضب منكمش، ما من طعام في البيت سوى كسـرات من خبز البتاو جاء من الصعيد لجارة لهم، أهدتهم بعضا منه حتى لا تترصده أعين حاسدة.. وأبوها يقف بين صف مـن الفلاحين المعدمين أمام بيت أحد المساتير، يترقبون الفرصة ليخرج ويبثوه شكاواهم ويجادون ناظريه بآثار السوط علـى ظهورهم، إلا أن هذا الثري لوح يده بسلام مقتضب وتكشيرة غير مشجعة على وجهه ومضى

الصدى المتذبذب لرنين وتر الربابة، وإشعاعات ميـاه البحر، تنتشر في عظام ساقها، تتوالد فيها، تكسوها وتغلفها، تلتئم شروخها، تهدئ توابرات أعصابها المحتقنة.

ظلال بحة الربابة والإشعاعات بحرية اللون، تلتف حول الألم وتنومه.

وسنانة ليل، تتراكم في حلقها طاقة كبيرة تجاهد لإطلاق سراحها، تكاد تصدح حبورا، لا، لقد غنت، سـمعت نفسـها تغني بتمهل ساعة رملية.. لا شيء يشقيها الآن، لا غرامها، لا ساقها المكسورة ولا عنوستها.

يعبق المكان برائحة بخور ترق وترق ثـم لا يبقـى إلا رائحة خشب الصندل تهف على ليل شعاعا شفافا متوحدا... حدث ذلك مرة واحدة من قبل: يوم غياب أمها.

تدير نظرها في المكان، تتساءل: أين أمي؟

بالوعي المتسع ذاته تغوص ليل داخل نفسها لسبر غور هذه التنبؤات: « هل هي جديدة أم أنها تقرأ ما يـدور فـي ذهني؟ أو ليست التنبؤات هذه تشـبه خـواطر لـم تكتمـل صياغتها في عقلي وقلبي ».

تتعرف ليل على الحجرة الحجرية داخـل الهـرم مـن جديد، بعد وسنها، حرج حنين تاركا الصديقتين.

صمت جليل يغلف آمونيت.

- سألتها ليل: أتصلين؟

- بل أتأمل.

- وما الفارق بين التأمل والصلاة؟ أحدهما شيء واحد.

- في الصلاة أتحدث إلى الرب وفي التأمل يتحدث الرب إلي.

ساءلت ليل نفسها: أمن علامات زهـد الراهبـة، قلـة الكلام؟

تستلقي آمونيت في الظلمة النهارية تلك، يشحب ضـوء الشمس، يسقط ويناور ليمتد عبر الفتحة، السواد في الـداخل امتص الضوء، وهناك على زاوية منحدرة كجرف، وقفـت ملاكها الحارسة، تداخل الضوء والظل على هيئتها، لتـرى نفسها بثوب من المربعات، يشكو ابن عمها من ألم برأسـه، ومثلما شافت أمها تضع يدها على جبينهـا حينمـا تصـاب بحمى، وضعت آمونيت يدها على جبهة ابن عمها.

قالت: لست دافئا.

- اتركي يدك على جبهتي قليلا.

وفعلت، أحس ابن عمها بالصداع وقد زال، أمـا هـي فشعرت بألم الصداع ينتقل إليها.

لاحظ أفراد العائلة اللمسة الشافية للطفلة، وكانت بجبلتها طيعة ومعطاءة، ذاع بين الناس خبر آمونيت وتفرح الطفلـة

بما تبذله لهم من تخفيف آلامهم ووهنهم، وبالحدس عرفـت ضرورة تدريب نفسها لتلافي العدوى بتلك الآلام.

هاجمتها آلام أخرى مجهولة: جيشان من البكاء، ولمـا كانت صغيرة فلم تعرف سبب بكائها، وما الذي تريده، خاف عليها والداها واصطحباها إلى دير سانت دميانة.

هزت رئيسة الراهبات رأسها كتنويه لوالديها بأنها تدري ما يحدث للطفلة، سألت: - ما اسمها؟

- آمونيت.

ارتعدت الراهبة غضبا ورسمت علامة الصليب، بذلت جهدا مضنيا لتبدو هادئة.

سألت: كيف أعطيتما هذا الاسم. غير المعروف بيننا – للبنت؟

بين حرج ودهشة وإحساس بذنب مبهم، دافعت الأم عن نفسها، فحكت من البداية.

في شهور زواجهما الأولى، قامت وعريسـها برحلـة يزوران فيها المعابد الفرعونية التي تحولت إلى معابد وأديرة مسيحية، عرجا على أديرة رهبان الصحاري كدير المحـرق في الصحراء الغربية، وحتى يكتمل حجهما توجها إلى ديـر

العربة بالصحراء الشرقية. كانا قد بدآ الرحلة فـي بـواكير الربيع في شهر برمهات، وهاهما الآن فـي أواخـر شـهر برمودة.

تذكر أنها غنت لزوجها وهي جذلـة بنهايـة حجهمـا ( برمودة دقوا الشعير بالعمودة، ولا يبقـى فـي الغـيط ولا عودة ).

احتوى جذلها برصانته: إننا مقبلان على ديـر الأنبـا انطونيوس باني أقدم دير عرفته المسيحية ومؤسـس نظـام الرهبنة في المسيحية التي انتشرت من بين جدرانه إلى بقيـة أنحاء العالم.

- يبدو بعيدا وعاليا دير العربة أو كما تسميه دير الأنبـا أنطونيوس!!
- إنه مقام على سفح جبل الجلالة في منطقة بحر القلزم.
- كيف بني في هذا الموقع؟
- بدأ بالمغارة التي تنسك فيها الأنبا أنطونيوس في القرن الثالث الميلادي، ومنذ ثلاثمائة سنة مضـت أي فـي القرن الثالث عشر، تم بناء بقية مباني الدير المكونـة

من أربع كنائس ومزرعة وحصـن صـغير لحمايـة الرهبان من الغارات.

- وأين مغارة الأنبا أنطونيوس؟

- سترينها، المغارة عبارة عن سـرداب ضـيق ينتهـي بحجرة صغيرة عاش فيها القديس معظم حياته.

- ما أجمل الأشياء بالدير.. انظر هذا النبع.

- إنه نبع يجـري طـوال العـام فـي هـذه المنطقـة الصحراوية، لذا يزرع حولها الرهبان، سترين أجمـل الأيقونات وأقدمها.. ها نحن قد وصلنا.

- توجه الزوجان إلى واحدة من الكنائس الأربع، وبعد أن باركهما راهب شاب، توجه بالحديث إلـى الزوجـة: ستنجبين النائحة، الشافية، المحبة، الهائمة، والعارفة.

وجمت الزوجة: هل أنجب خمس بنات؟

لم يرد الراهب، وأشـار عليهـا أن تسـتجيب لتجلـي العذراء، قبيل انصرافهما، قال: قولي للنائحة أن تزورنا.

- كيف؟

- إذا ما ضاق الأمر بالنائحة، قولي لها أن تلجأ لنا فـي كنيسة الشتاء.

- أين نحن الآن؟

- في كنيسة الربيع أيتها العروس. وأضـاف: - نقـوم بالصلاة مدة ثلاثة أشهر في كل كنيسة مـن كنـائس الدير الأربع توافقا مع فصول السنة الأربعة

في الربيعين التاليين، أنجبت الزوجة الصغيرة ولـدين، ونسيت أمر النائحة.

كبر الولدان، وفي حملها الثالث حلمت بتجلي العـذراء التي تتلاشى ببطء، تضمحل الصورة لتظهر من خلالهـا أم أخرى: من هي؟

تذكرتها أنها الملكة المجنحة على جدران معابد رأتهـا بالصعيد والطفل جالس في حجرها.

صحت مستبشرة: ربما ستنجب ذكـرا للمـرة الثالثـة، قامعة حنينها الخاص إلى بنت.

اعترفت الأم لرئيسة دير سانت دميانة أن ولادتها الثالثة كانت عسيرة، ظلت يوما بطوله، والمولـدة تـدعو النسـاء الأخريات أن يرتلن كي ينقذها الرب، ألم الولادة أدخلها فـي حالة من الوجد، إغماءة طيفية، سنة من نوم رأت فيها أمهات قديمات، مهيبات، حانيـات، وقاسـيات، تعـرف صـفاتهن

وأشكالهن ولا تعرف أسماءهن.. يتلاشين وهن ينطقن بكلمة غير واضحة، لم تعرفها أو تعرف لها معنى.

مع الطلق الأخيـر الـذي فتـت عظامهـا صـرخت: آمونيت؟!

اندهشت المولدة: باسم الآب والابن والـروح القـدس.. كيف عرفت أنها أنثى؟

رضي الأب باسم المولودة، باشا ومحبا لهـا، ومفسـرا اسمها الغريب للأقوياء، ربما حورت زوجته ختام دعواتهـا وهي في شدة آلامها كلمة: آمين.

استسهالا في النطق دللها الجميع باسم: آمونة.

في دير سانت دميانة منحت اسم « بربـارة »، دأبـت الراهبات الأكبر سنا على قص شعرها الذي جاءت به طويلا كثيفا، مضمخا برائحة خشـب الصـندل ومـدهونا بـدهن الماعز.. كيلا تغتر أو تدرك أنوثتها.

في سنوات قليلة حظيت بصفتين: الورعة، الراضية.

كانت ذات عقلية تحليلية، ومن ثم ستنزع إلـى الوحـدة بين الفينة والأخرى، لديها قدرة على تفكيك المشاكل المعقدة للآخرين، ومن القليلين الذين لم يهتزوا لشائعة يوم القيامـة،

قالت آنذاك: يستحدث المصريون يـوم القيامـة، يبتكرونـه ابتكارا دون وعي منهم:

فلم تخفف الخلاعة والسخرية مـن عـذابات إفقـارهم وقمعهم، اعتبروا أنفسهم جديرين بالقيامة التي ستعوضهم عن العوز والحرمان والمذلة بينما تصب لهيب جحيمهـا علـى ظالميهم.

لم تهتز الراهبة « بربارة » خوفا من الشائعة، زلزلـة أعمق أحدثت فوضى في خزانة وأدراج عقلها المرتبة، منـذ تلك اللحظة وبرغم يقينياتها الدينية والأخلاقية، بدا العالم في نظرها سيالا وغير محدد تحت عدسة ذهنها.

الراهبة « بربارة » النافعة للآخرين، ستبدي عجزا مع نفسها إذا واجهت مشكلاتها الخاصة.

ستردمها جيشانات النواح تحت ركام من غبار عجزها، التكرار والتجربة يعلمانها أن النواح عرض بأنها على حافـة المغامرة: العقلية والروحية.

في البداية فسرت الراهبات جيشاناتها بصدق إيمـان؛ إذ حدث مرات أن انفجرت بالبكاء لدى ترتيلها صـلوات فـي

أوقات الطعام والأخوات يأكلن. لكن هذه الجيشانات لم يكـن لها أو لغيرها أن يتنبأ بتوقيت صحوها.

تتحسن حالتها وتهدأ إثر زيارة بابا كنيسة دمياط للدير.

اعتقدت الأخوات أن ما أصاب « بربارة » نـوع مـن السوداوية، استنفدن كل السبل لعلاجها، كانت تردد:

- سوف اعتزل العالم، لن أغادر كـ « ناسـك » يلـزم قلايته.

جاءتها رئيسة الدير: إنك بالفعل معتزلة، أنت تتحـرقين للتواصل مع العالم الخارجي، ليس اعتزاله.

واهتدت الرئيسة إلى حكاية رهبـان الصـحاري التـي كادت تطويها السنون، ووعدت الراهبة الصغيرة بعد انتهـاء مولد « ستنا دميانة » كما يقول العوام، بأن ترتب رحلة لهـا إلى دير العربة.

اختتمت حديثها بصوت هـادئ وحـازم: بإمكانـك ألا تعودي، بإمكانك أن تخدمي الرب باندماجك في الحياة خارج الدير.

وصلت « بربارة » إلى دير الصحراء الشرقية في شهر هاتور، سألها الراهب: يشير الإنجيل إلى الـذنب الأصـلي للعبريين، فماذا يقول؟

- ( لأنكم لم تخدموا ربكم بقلب مبتهج وسعيد لوجود كل شيء بشكل وفير ).

- نعم أيتها النائحة: اعبدي ربك بفرح.

واستدرك: ما الذي تتقنينه؟

- قراءة اللغات العربية والقبطية واليونانيـة واللاتينيـة، ومعرفة بالأعشاب الطبية منهـا اسـتخدامات نبـات البردي العلاجية، كما تعلمت وسائل أخرى للمداواة.

- مثل؟

- ديدان العلق السوداء لالتئام الجروح وتجفيـف القـيح والتهابات العظام المزمنة وقروح الفراش.

- كيف تعمل؟

- أنها تتغذى على الجلد الميت والضار، لينمو جلد جديد وسليم.

عملت آمونيت بعد أن استعادت اسمها كمساعدة لحكـيم قبطي مشهور ببراعته في الطب والعـلاج.. نالـت سـمعة

وشهرة طيبتين، حتى طلبتها زوجـة المطـراوي اليونانيـة للإشراف على علاجها الذي قرره لها ذلك الحكيم القبطـي.. ولما أبلت من مرضها أغوت آمونيت بما تحبه: فلن تمنعـا من خدمة ومداواة الناس وفقرائهم كما ترغـب، وأن تظـل معها بالقصر كوصيفة لها.

شمر حنين عن كميه، وصعد إلى الفتحة حيـث ترقـد الصديقتان، نادى: يا عمتي آمونة، يـا خالـة ليـل.. بهـذه السرعة استغرقتما في نوم عميق!!

صحت ليل ورأت الضوء الشاحب في الخارج، قالـت: رحت في النوم وللأسف لم أصح لصلاة الفجر، لعلنـا نمنـا يوما ونصف اليوم.

- أو تظنين أن الصبح على وشك الانبلاج؟

- أليس كذلك؟

- لا يا خالة، لقد تركتكما بعض الساعة.

ندت عن ليل آهة دهشة: - ألسنا نبدو كأهل الكهف؟ ما زلت أظن أننا قضينا هنا يوما كاملا، لـو حكيـت لـك يـا صاحبتي؟ ستتفقين معي، إنها أمور لا يمكن أن تحدث فـي بعض الساعة كما قال حنين.

- تفحصت أربعين عاما هي عمري في « بعض الساعة هذه ».

غسلت الصديقتان وجهيهما، خرجتا إلى الضوء الشاحب والنسمة العليلة للمغرب.. التفت ليل إلى آمونيت: آمونة، إنك تكذبين.

بدماثة ولطف ردت:- إن كذبت، فأنا لا أقصد.

أخرجت ليل من بقجتها مـرآة وضـعتها أمـام وجـه صديقتها: هذا الوجه ليس لامرأة في الأربعين.

- حقا!! إن وجهي استعاد نضارته وصفاءه، انظري أنت أيضا يا ليل، وجهك هادئ يكاد يشف من رونقه.

نزلتا إلى سفح الهرم، سبقهما حنـين، شـاهدوا خيمـة منصوبة وجمالها الثلاثة مستكنة، وعجـوزا بحليـة فضـية وعيون لوزية مكيرة بجوارها.

سألته آمونيت: من أنت؟

- رغبت أن تستأجروني غفيرا.

- لماذا؟

- اعتقد أنكم ستبقون عدة أيام.

انفلت من ليل نظرة تأنيب إلى حنين اعتقادا منهـا أنـه أخبر العجوز.

استدرك العجوز فاهما مأزق الشاب: بين يـوم وآخـر يأتي أناس شديدو الغرابة في الطباع والملامح.

- من يكونون؟

- إما لصوص، وإما ناس يضربون على غير هدى، بلاد الله خلق الله أو من المتيمين بهذه الحجارة.

- متيمون؟!

- يعتقدون أن هذا الهرم ينطوي على أسرار، ويعرفـون من فوائده الكثير.

سألته آمونيت لتختبر صدق معلوماتها: - مثل؟

- انظرا إلى حليكما الفضية والذهبية، ألم تزدد لمعانـا، والماء الذي يوضع داخل الهرم يمنح الصحة والعافية، ويمكنكم تجفيف الزاد إذا قمتم بسفر طويل، إلى جانب علاج أمراض عدة.

- وأنت؟

- امنح خدماتي للكل، لا يخفى عليكم إنها لقمة العيش.

- ماذا عن اللصوص؟

- دائما يخرجون صفر اليدين، وعلى فكرة أفضل النـوم في ظل الهرم الذي يهديني أحلاما متجلية، أترون: من هذه الفتحة يدخل الزائرون.

- أين؟

- أنعمي النظر يا سيدتي، إنهـا توصـلهم لغرفـة ذات تابوت حجري.

تهكمت ليل: إنك تبيعنا الهواء.

الغريب أن العجوز بعد أيام ثلاثة قنع دون مساومة بما نقده حنين من بارات. اعتقدوا أنه سيطالب بالمزيد.

شاغبته ليل: لماذا لم تطلب المزيد؟ وجدنا الأنس معـك وشعرنا بالأمان.

- لا أريد بارات أخرى فقد سعيت لشيئين كنت أنتم أيضا بحاجة إليهما: الأنس والأمان.

منحته ليل هديتها الخاصة، كعكًا منقوشًا – هذه المرة – بالأهلة وتحويرات زهرة القرنفل وأوراق الشجر.

بصدر يفيض بشرا، أسرت ليل لصديقتها: من الآن لن نفترق أبدا يا صاحبتي، إنه ما نرغب بـه بكـل جوارحنـا، هيه!!

- طبعا، ويخامر قلبي أمنية أخرى.
- ما هي؟
- أن أُبلغ أختك الصغرى سنانية أن لديها طاقات روحية طيبة، أن تعيرها اهتماما، لكني أراها تهرب منها بقدر ما تتسع خطوتها.
- ماذا تعنين؟
- أختك في فرار دائب من نفسها.

## (٢)

تتريض ليل، تسمح لنفسها بأن تتلقى النعمة.

كانت متململة بعض الشيء وتعرف بغريزتها أن شـيئا ما يختمر حولها، يبدو عصيا على التحديد، ربما إحساس أنها مفعمة بالطاقة كنهر ينساب تحت قدميها الواقفتين على جسر الآن.

شيء مغو في تلك المياه الجارية، لكن ليل لم تسـتجمع شجاعتها بعد للقفز في النهر، لتصبح جزءا منه: من ضفتيه، تياراته، اخضراره المتردد، أسماكه، ورد النيـل، مراكبـه، نسيمه المداعب، ورذاذه الناعم على بشرتها.

توقفت ليل، تصلبت ابتسامتها على حدس: « ربما يكمن مصيري في الجانب الآخر من الجسر ».

واستأنفت تريضها.

من النظرة الأولى لهذا الضيف « المهتدي الجريكـو » كما يناديه أخوها ليث الدين، لاحظـت أن يديـه ضـخمتان توحيان بالتهديد، وعندما يقول « لا » بهزة مـن كتفيـه أو تحريك رأسه في نصف دائرة، أو يرفـع إبهامـه.. فكأنـه يتوعد.

تعجبت من أخويها اللذين يهتز بدناهما من الضحك، ولا يلتقطان رنين الآمر الناهي وهـو يحكـي: أربعـون جلـدة للقرصان الذي يحمل مصباحا مشتعلا بدون واق أو غطاء.. ويعدم – شنقا – من يتعرض بالإهانة، سواء باللفظ أو الفعل لامرأة من الأسرى، أما الموت فعقوبة الخيانة والفرار مـن الخدمة.

أخبرها غياث الدين أن الضيف « المهتدي الجريكـو » يتقدم للزواج بها.

سمحت لأذنيها أن تتابعا حديثه العفوي مـع أخويهـا، وعلقت عروس القمح على باب البيت تيمنا بالخير.

رأته وهي تنظر من شباك المشربية المطل على المزين / الحلاق، وقد أخذ مشطا وفتح قميصه وبدأ يمشـط شـعر صدره الكثيف، للحظة بدا لها فاتنا ورجوليا، ذابت اللحظـة في ثوان ليظهر لها كذكر غوريلا – رأته في أحد الموالد - يضرب على صدره.

صوت استنكار، أخيها المحتشم غياث الدين، لامبـالاة من ليث الدين، أرهفت من انتباهها وسمعها: كـان يتبـاهى بعضوه الذي دق عليه وشم « عرف الديك » وأسرف فـي الإفاضة عن قوة احتماله وثبات أعصابه أثنـاء عمليـة دق الوشم على هذا الجزء بالغ الحساسية من الجسم.

سأل ليث: لا بد إنهم خسروا الرهان.

غير مصدق وغاضب قال غياث: وهـل كـان ذلـك موضوعا للرهان.

بلغته العربية المكسرة رد المهتـدي: واحنـا بنشـرب كيزان البيرة.

حول غياث الموضوع: ما موقف أهلك مـن اعتناقـك الإسلام؟

- يدعونني المهرطق.

- حقا؟!

- لست مهرطقا بل مرتدا من وجهة نظـرهم، مهتـديا بالنسبة للعتبة السنية، يستفزونني بقولهم إن السـلطان العثماني يجتذبك ليقوي باسه في البحـر، ألـم يكفـه الدفشرمة التي تخلخل وحدة دمائنا لتختلط بهؤلاء البدو الرعاة من عرب وأتراك؟!

- ماذا كان ردك؟

- أقول "أو لم يكفكم المسلمون الذين تنصروا كرها فـي الأندلس، ولعلمكم ليس كل المسلمين من البدو الرعاة"

مغيظا عقب غياث الدين:- وما عيب البدو؟

- ها أنت بدأت تغضب

تدخل ليث الدين: هل نسيت يا أخي غـارات العربـان على الفلاحين أيام الحصاد؟

- لكنهم يحرسون قوافل الحج من الأشرار.

- وقد يسرقون قافلة الحج بأنفسهم، أما سمعت عن تعطل قافلة الحج منذ بضع سنوات، بسبب سلبهم المسـافرين واغتصابهم النساء؟

- كل طائفة بها الأخيار والأشرار.

تنفس ليث والمهتدي الصعداء، وقالا حقنا للتوتر: تمام.. تمام. ظل واه لذكرى حلم يريم علـى روحهـا: « الرجـل الحصان »، كنت أريده رقيقا وقويـا، لـيس ذلـك الخشـن المزهو.

بإصرار رفضت ليل الزواج بالقرصان الجريكو، اقترح ليث الدين أن يجلسا سويا وحدهما، تركهما وخرج.. اعترض غياث الدين: لا تصح الخلوة.

ليث:- دعهما يتفاهمان، هما كبيران بما يكفي.

حرونًا كان غياث في تشبثه بموقفه.

رفع ليث صوته حانقا: - لقد تقدم إليك بطلب الـزواج بأختنا التي ربتنا، ألا يعني ذلك شيئا؟

قال الجريكو – مغازلا ومتوددا – لليل: اسرقيني.

لم تأبه، حكى لها غرامه بالبحر والذهب.

- والنساء؟

- لسن كثيرات في حياتي.. أتعرفين بسبب الذهب أصبح عالمي هو البحر.

- كيف؟

- كنت أعمل في شبابي ك « سيميائي ».

- تعمل من الفسيخ شربات!!
- ماذا؟
- أقصد تحول الحديد إلى ذهب.
- ها أنت قد فهمت.
- هل قمت بذلك حقا؟
- جمعت ذهبا حقيقيا من زبائن أقنعتهم بالحيلة
- حيلة!!
- بداية كنت أفرط في التـأنق وادعـاء الغمـوض، ولا أظهر لهفة على عروض تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، أجعل الزبون يلتمس موافقتي بحرارة لأنه سمع الكثير عن خبرتي ومهارتي في السيمياء.
- وعندما تقبل؟
- أجعله يحضر لمشاهدة عملية تحضير الذهب بنفسه.
- ليقتنع؟!
- كنت استخدم مراجل ذات قيعان مزدوجـة وقضـبانا مجوفة ومسدودة بشمع أسود، تحتوي علـى كميـات صغيرة من الذهب، وهذه الكمية تطلى قطع الحديـد، وتخرج باللمعان السحري للذهب.

- كل مرة تستخدم الحيلة نفسها ولم تكشف؟
- في جعبتي الكثير من الحيل.
- مثل؟
- آخذ مسمارا من الحديد نصفه مطلي بالذهب، وأغطيه كله بدهان أسود، وعندما أضعه في المذيب الذي يناسب الدهان الأسود، فإن المسمار يبدو وكأنه تحول ذهبا. أما النقود المصنوعة من سبيكة مزدوجة من الفضة والذهب، ويكون اللون الخارجي للنقود أبيض، فإنني أغمرها في حمض معين يذيب الفضة من السطح، فتبدو النقود كلها وقد تحولت إلى ذهب، وفي النهاية قبض علي، وكانت العقوبة تقطيع أصابعي وسجني، لكني فررت بعد دفع رشوة.

قلقة نظرت ليل إلى أصابعه لتتأكد من سلامتها: رشوة!! كم؟ رد متحسرا: كل الذهب الذي جنيته.

عاود السيميائي المزيف تودده في نهاية جلستهما: اسرقيني.

رقت لحاله وقدرت صراحته.

في اليوم التالي ذهبت لتسرقه.. فإذا بها يسـرق منهـا القلب واللب، وشهدت غير مصـدقة – انفضـاض المـوج الرقيق عن عشق غاف.

قالت: لي شرط.

- تفضلي.

- أن تتوب عن القرصنة.

ولما كان سريع البديهة، مدركا لما في اقتراحهـا مـن تناقض، ولأن بجعبته عددا من البدائل تلائم كل منحنى فـي حياته، قال: هذا لك.

في وثيقة عقد القران يقر المهتدي « انطونيوبابـاس » المشهور باسم المهتدي الجريكو بأنه بزواجه مـن الحرمـة « ليل بنت السيد بصل » سيوفر لها سكنا بالمدينة العتيقـة وسط المسلمين في جزيرة رودس ببحر الروم، وأنه سينقدها مصاريفها ومصاريف البيت مدة سنة مقدما، نظرا لأسـفاره الطويلة وعمله في البحر، وتعهد بأن يعيدها إلى أهلهـا فـي دمياط كل سنتين في زيارة لبضعة أشهر، وأن يضـع فـي المحكمة الشرعية نفقة عودتها وأولادها - إذا أنجبا – إلـى دمياط في حال وفاته.

وإذا توفي أي منهما، تؤول رعاية الأطفال إلـى ليـث الدين أو إلى غياث الدين، في حالة غياب ليث الـدين عـن دمياط.

ويعترف الجريكو بأن ما تحت يد زوجته الآن من مال ومهر ومصاغ، هو ملك لها وحدها.

ويقبل الشرط الذي تطلبه زوجته، بأنه إن تزوج عليهـا أو تسرى، فلها الحق في الطلاق في غضون شهر قمـري، ويعيدها معززة مكرمة إلى موطنها، ومؤخر صداقها ألـف بارة.

في قصر المطراوي، عرفت آمونيت الاسـتمتاع بـأن تكون نفسها بكل تنوعها وتجلياتها وتناقضاتها، قابلت تقـدير المحيطين بها في القصر بالإنصات إليهم بحـب واهتمـام، والتفاني في خدمتهم: طبيا ونفسيا... ومـن ثـم تركوهـا، تركوها.. لا يدهشون إذ يجـدونها هائمـة فـي القصـر أو حديقته، ويعرفون بالخبرة أنها ليست في وقت موات للانتباه لهم أو تبادل أحاديث معهم.. ففي بداية وجودهـا بالقصـر، نادوها مرة، لم يظهر عليها البتة أنهـا سـمعت، لاحظـوا رغبتها التي لا راد لها في الاختلاء بحجرتها والقراءة بنهم.

عرفت الهائمة الأبواب والممرات السرية في القصـر، وما تفضي إليه، القصر شبيه بقلعة من الـداخل أو متاهـة، أعملت ذهنها لتحليل الأسباب، ارتاحت لأحدها وهو تـأمين سكان القصر من غارات العسكر للنهـب والسـلب.. لكـن الخواجة المطراوي على علاقة جيدة بالحكام؟.. ربما خوفـا من المصادرات حينما تتغير أمزجة الحكام ناحيتـه عنـدما يحتاجون للمال أو قد يقع ضحية وشاية فاسدة من أقرانه من التجار أو أعدائه السريين الذين لا يمكنه.

تحديد هويتهم؟.. ترجح آمونيت أن المطراوي منـدمج في شبكة للفساد تجمع أهل النفوذ وأهـل المـال.. تتقـوض الأسباب واحدا وراء الآخر، حتى وقعت عيناها على وثنيتـه وشركه، لا، ربما يقوم وجوقته بطقـوس السـحر الأسـود، وربما وربما هو وأصحابه مـن اليهـود المـارانو الـذين يتسربلون بالتقية والقبالاه، ويعدون لاجتماع ممثلـي أسـباط إسرائيل الاثنى عشر الذين سمعت عنهم أساطير، إنه يحدث مرة كل مائة عام ليؤكدوا أنهم لم يقبلوا تعويضا عن شـتات شعب إسرائيل، أو ربما يخططون بأن يتحكم اليهود في العالم عبر شبكاتهم التجارية الواسعة.

أثقلتها المعرفة، ففي القصر وداخل بيوت الفقراء الـذين تطببهم، كانت أخبار البلاد كلها تصب في أذنيها.

عرفت آمونيت أكثر مما يجب، بدأت تنوح من جديـد، في نوبات مرضها، طلبت أن ترى ليل التي قرئت فاتحتهـا قبل عدة أيام.

قالت لها ليل: أن تحملي هموم الناس والعالم، وتجهـدي عقلك لفهم الأمور المعوجة، وحدك، ثم عن الناس والعـالم، هذا أمر لا يحتمل.

زفرت آمونيت، واصلت ليل: - اخرجي من إحسـاس الكارثة الواقعة أو الكارثة الوشيكة، أنت آدمية من دم ولحم.

- أشكرك يا ليل.

- لا تنسي يا آمونة، ما قلته سبق أن تعلمته منك.

حكت آمونيت لصديقتها فيما تعتقده أقـل أهميـة عـن المطراوي، لم يدر بخلدها أن تفشي أسرارا، غير أن افتتانها بالجمال المعماري لقصر المطراوي، جعلها تخصـص لـه الجزء الأكبر من حديثها، كأنما تدفع عن نفسها وعن العـالم سموما يبثها ذلك القصر بأروقته وأسراره عبر تريـاق مـن الحكي البريء.

في تعقيب لليل على ما سمعته:- من هنا يمكن أن نظن بأن « الخواجة » في الباب الرئيسي للقصـر الـذي يمكـن المطراوي من الدخول دون إزعاج أهله، ليست إلا تمويها.

ولأن فتنة الجمال والغمـوض تبـدو كشـذى يتطـاير بالهواء، ملكا للجميع، تحدثت ليل إلى أخيها غياث الدين عن روعة القصر ومتاهته من الـداخل، وبلاطـات القاشـاني، والسلالم من الرخام الوردي، والنقوش والآيات القرآنية التي تزين الأسقف والإيوانات، والألوان الطاووسية التي تخلـب الألباب لحجارة بارزة من جدران غرفة نوم المطراوي.

من نثار المعلومات هذه، كون غياث الدين – فيما بعد – بخياله وبالاستعانة بخدم يدخلون القصر، ومن تردده الـدائب إلى مكتب المطراوي بالوكالة بشأن أخته سـنانية وولـدها، كون خارطة تقريبية للتصميم السري للقصر، وكـم أدهشـه عندما تجول بالقصر ليلة مقتل المطراوي، أن تصوره كـان قريبا جدا من الحقيقة.

مع قرب زفاف ليل: أهدتها آمونيت شموعا ذهبية اللون ومشكاة مذهبة ومطلية بالمينا.

- تعرفين أني أحب الألوان الذهبية هل تجلب لي الحـظ الطيب؟

- نعم، وسترطب مزاج زوجك. وغمزت: - « المحـب للذهب ».

- سكتت برهة ثم قالت: - عندي خبر سيسعدك.

- بشريني؟

- لن تكوني وحدك في رودس، سأسافر بصحبة زوجـة المطراوي إلى أهلها هناك.

- أهو خصام بينهما؟

- لا، أوحشها أهلها.

- لكنك ستعودين وتتركيني وحدي.

- من يعرف يا ليل!!

دخل المطراوي حجرة زوجته حين كانت آمونيت تعـد صندوق أمتعة الزوجة، وصندوقًا آخر لها، قدم لهما قطعتين من جلد الأسد، لتضعهما آمونيت في صندوقي الثياب حتى لا يقربهما السوس والعثة.

- إنهم يشبهوننا.

كان رد ليل على زوجها الذي يشير إلى أبواب البيوت في رودس وقد علتها حزم من الثوم.

قال لها إنهم يضعون أيضا إكليل الغار، بندق الساحرة، أحجارا ذات ثقوب كتمائم، ويعلقون جلاجل الحصان أو إحدى حدواته على الباب، ويدفنون أيضا السكاكين تحت مداخل الأبواب.

- كل ذلك لإبعاد العكوسات، تستنجدون بالساحرات ثم تخافون منهن!!
- قد تسمعين عن إحراق ساحرة كل عدة أيام.
- يا ساتر.. هه.. ما هذا؟ لقد رأيته من قبل
- تقصدين المزاريب على شكل قنطور؟
- ذلك الرجل الحصان.
- لم يصنعون الميزاب الناتئ على شكله؟
- لأنهم يعتقدونه الآن شيطانا وشريرا.
- ومن قبل؟
- كان رمز الحكمة وأسرار الشفاء، القنطور سيد الموسيقي بخاصة القيثارة والفلوت، ستتعجبين: إلى

وقت قريب كان القنطور يظهر في معمـار الأديـرة والكنائس والكاتدرائيات، بل واعتبر رمزا للمسيح.

- ما من عيب به إذن!!

- للقنطور ضعف تجاه الشراب وتنتشر قصـص عـن دأبهم في اختطاف واغتصاب النساء.

- كدت أصدق أنه مخلوق حقيقي.

ضحك الجريكو

ظلت ليل سنوات دون إنجاب، وتركت آمونيت عملهـا كوصيفة لزوجة المطراوي اليونانية بعـد أن طلقـت منـه، وتزوجت رجلا فقيرا من بني جلدتها.

يوما تفتت قلب ليل من الحنين إلى مصر، خرجت مـن بوابة المدينة العتيقة على حمار ركبته بالأكف عرضا / مـن جانب واحد / مراعاة للحشمة لتزور صديقتها في حانوتهـا لبيع الأدوية. قالت لها:- آمونة واحشني أشرب مية طوبـة، ولبن برمهات، وتين بؤونة، وسمك كهيك.

أكملت آمونيت وهي تغني: واحشني كمان عسل آبيب، وخرشوف أمشير، ونبق بشنس، ورطب توت.

وفي صوت واحد أنشدتا: وورد برمودة، وعنب مسرى.

ضحكت ليل، واستبصرت آمونيت.

- ليل.. أنت حبلى؟

- ربما، أيكون هذا هو الوحم!!

أنجبت ليل نور الدين وقد خددت أظافر الوهن والكهولة جسدها، أثناء فترة النفاس، وسريرها لصق النافذة وعلى مـد البصر، ممر به صرة من أغصان أشجار متقابلـة تتشـابك كقوس يلقي غماما رحيما على بيت الجيران يحميه من وهج الشمس والمطر، وإلى الأبعد جدار قديم متداع تتخلله نباتات ظلية، حجارة الجدار تسكنها الثقوب، ومسامه حبلى بالنـدى المقطر، مع ارتفاع الشمس إلى كبد السماء، وقع ظل القوس على منتصف الجدار الذي انشقت عـن حجارتـه شـجيرة صغيرة، لأوراقها في البعيد حفيف ناعم.

تأملت النهار بطوله الجدار القديم والشجيرة الوليدة.

مسدت ليل رأس الوليد.

وفي المساء، تسمع نغمات البرق من فنـاء الجيـران، تتناهى إلى ذاكرتها النغمات الحزينة والأبية للربابة.

تجتر لحظاتها الحلوة والقليلة مع زوجها الـذي وفـاء لعهده لها ابتعد عن اقتراف القرصنة ويهندس للسـفن الآن،

ودائما في عرض البحر.. علمها أن تجعله مخمورا بالمباهج المتمهلة بمداعبة منمنمات الأعصاب الرهيفة في عنقه، أذنيه، ظهره وكتفيه، باطن فخذه ومعدته.

أقبلت إليه لتحترق في عالمه حين كادت تصبح رمادا.. قبلت يوما طابع الحس في ذقنه.

دهش: تقبلين غمازة ذقنـي!! مثلـك يصـلح للمـرأة والرجل.

غضبت، وتمنعت عليه ليالي.

بحنان صالحها: - يا لك من متزمتة!!

كيف نسيت امرأة التهتك الكحكي، أخفت تحت طيـات النسيان شقاوات بريئة وأخرى غير بريئة.. في نهاية دهليـز نفايات الذاكرة، نصعت رغبتها في لحظة ما: ودت ليل لـو تلتف في سحابات دخان النرجيلة التي تدخنها امـرأة مدللـة حلوة، في خدرها، من تكون؟ في أي من البيوتـات الغنيـة رأتها؟ لا تتذكر.

**ثمة أمر أهم ومختلف عما يلمح إليه زوجها: تعـرف الآن بوضوح أنها كادت تذوب أملا فـي تحقيـق فكـرة أن تكون غير مرئية، في زفير لدخان نرجيلة مثلا، أن تحتجب**

**هونا عن أنظار الناس، ألا يلتقطوا حتى ذبذبات عقلها وهي تفكر، إذ تمر بهم.. أمل عسير، لم يكن حفاء قدميها في أيام طفولتها وصباها يعد بالنسبة لها فقرا وضنكا فقط بل حرقة الأماني في سكون أي صوت أو حركة لها، بدن المرء ثقيل، يشق الهواء ويشق الأنظار حتى الهائمة والشاردة منها.. لا تزال تركن إلى الشخصيات التي يلف جسدها أثير هادئ، لا يجرحها اهتمامهم أو انتباههم مثـل صـديقتها الوحيـدة، آمونيت.. للأسف، أغلب الناس والكائنات ليسوا كذلك.**

قدام جامع سليمان بالمدينة العتيقة في رودس، اشـترت آمونيت بعض الحلوى للصغير نور الدين.. وجدتـه يبكـي ويدبدب بقدميه على الأرض ويصيح: بيتالودث.. بيتالودث.

تساءلت: ما هذا يا ليل؟

- يقصد بيتالودس.

- ما المشكلة، خذيه لوادي الفراشات.

- همدانة، لا همة لي.

- لنذهب معا الآن.

- لا أعتقد أنه موسم الفراشات الآن.

- بل هو يا كسولة، من شهر يونيو إلى شهر سبتمبر.

صاغرة، أطاعت، ثم ما لبـث الحمـاس أن دب فـي روحها، وشعرت بهسيس فائر لجمال قد يفوت عليها، عندما رأت آلاف الفراشات تطير وتحط على أشجار العبهـر ذات العبق الخلاب والمدوخ قليلا.

انحنت آمونيت وبيدها نور الدين، أخرجت آلـة حـادة صغيرة وبدأت تحدث حزوزات بلحاء الشجرة، سألت متثاقلة مادة صمغية ذات عطر فواح، تجمعت الفراشـات حـولهم، يرمح وراءها نور الدين فرحا بمطاردتها.

- لا يعجبني حالك يا ليل.

- لا تقلقي، مجرد همود وفتور. ابتسمت كاذبة: سيذهب عني لما يرجع المهتدي لبيته.

- الوحدة تثقل عليك؟

- مع تلك السنين في رودس لم أتعود أن أكون عاطلة.

- والبيت ونور.. ألا يشغلانك؟

- لولاهما لمت من الضيق والفراغ.

- أتعرفين يا ليل.. ثمة شيء غريب يحدث لي منذ فترة.

بنصف اهتمام سألت ليل: ما هو؟

- تعرفين تعلمت هنا المصافحة باليـد، ومـؤخرا كـان بعض الرجال والنساء يدغدغن راحة يدي بأناملهم عند المصافحة وعندما أظهر استغرابي يقولـون لـي: لا عليك.

- احذري منهم يا آمونة، ربما هـم جماعـات سـرية، للسحر الأسود مثلا والعياذ بالله.

- عندك حق.. هيا بنا نـزور إيـرين، ليسـتمتع نـور بالانطلاق في اللعب مع أولادها.

جلست ليل وآمونيت وإيرين خارج الـدور، يستنشـقن نسمة محملة ببرود البحر الشـبق ويتنهـدن: ثلاثـتهن فـوق الخمسين.

فجأة وقفت إيرين كأنما تراقص رجلا، خجلت صديقتاها من فعلها، ما لبث أن ظهر رجل رث الثيـاب معـه حقيبـة قماش، وطلب أن يراقصها، رقصا معا متنـاغمين وممتنًـا كلاهما للآخر، ثم قبل يدها ومضى.

شهقت المصريتان.. كادتا تضـربا علـى صـدريهما عجبا.. قالت إيرين: لا تستغربن يا مصريات، لقـد انتشـى بمراقصتي أكثر من شغفي بمراقصته في تلك اللحظة، عبـر

كل للآخر عن أنه مرغوب، لماذا تتنكران للطبيعة، خُلقنـا، ومن لغز الخلق أن تحفى، ترق، وتنحل أقدامنا مـن فـرط السير سعيا كل منا للآخـر، وأنتمـا تتجـاهلان، تتكبـران وتستغنيان عن الرجل.

خذا كلمتي في العلاقة بين رجل وامرأة، إنهـا أبسـط وأجمل من أعراف ومكبوتات وتحفظات لديكما.

تتوق آمونيت إلى عزلة، قد أرهقت نفسيا وذهنيا علـى مدى أسبوع، قد تستمع إلى عشرة أشـخاص مـن طـالبي الدواء، تنصت لمعرفة موطن الأذى وإمكانية الإبـراء فـي أرواحهم، هذا يعني أنها تبدلت عشـر مـرات فـي اليـوم، تستحضر في نفسها الموجات الذهنية والروحية الملائمة لكل شخص على حدة، والتي يكون من شأنها أن يكـون لنغمـة كلماتها التأثير الفعال الهادئ وللمسـتها القـدرة الشـفائية، ولنظرتها كل المشاركة والتعاطف والتشجيع، وكـذلك فـي إيماءاتها المغلفة بصمتهما معا، هي والمريض أو المريضة.

كانا يجوسان في متاهة روحه أو روحها حتى يصلا إلى الباب المحرم، ويفتحاه.. ويعرفا سويا، وكأنها المرة الأولـى

لآمونيت أيضا، أن ذلك الباب المحرم يخبئ عنا كل إمكاناتنا الرائعة أو شجاعتنا أو تحملنا أو صبرنا.

إنها أشياء اعتقدنا من البداية أننا محرومون منها.

في أيام اكتمال القمر، تستلقي على ظهرها فـي فنـاء البيت وتتأمل نور القمر الفضي.. تترك الشـوائب العالقـة لتمضي إلى حال سبيلها، تتأمـل لسـاعات وأحيانـا لأيـام متواصلة حتى يعود إليها صفاؤها وطاقتها وشغفها للالتقـاء بالبشر وشكاواهم من جديد، فالتعامل مع الحقـائق الحياتيـة لعبتها، إذا لم ترها فهي تشمها، تسمعها، تحسها، تتـذوقها أو تلمسها، أما تحديد ماهية هذه الحقائق، بالنسبة لها، فهو أمـر غير ذي بال.

ما جال بخاطرها يوما أن هناك من يراقبها ويحصـي عليها خطواتها وسكناتها، العاديون من الناس الذين يسمونها « الراهبة القبطية » كانوا يرون أن حضورها الطاغي يومئ بمن تكون هي دون مزيد من الكـلام فـي حـين يعتبرهـا الخجولون والمتأنون بطبعهم: جارفة، متهورة وذات عزيمة.

راقبوها وعرفوا أنها لم تكـن لتتسـامح مـع الهـراء والتفاهة، نزقة صعبة الإرضاء، دقيقة وحريصة، تتروى عند اتخاذ قرار.

في جبلتها ملمح واحد أثارهم كلهم على تباين أهـوائهم، ملمح ما يلبث أن يظهر حتى يختفي: أنها تـزدري بعـض العادات والحكمة التقليدية والسلطة.

في دنياها، كانت آمونيت تتحسب من بوادر أعـراض ثورة بركان يخمد ويثور حسب رغبته المتعاليـة: النـواح، يمرضها هاجس بأنها بدأت تفقد كل شيء، تعلمت أن تتحايل على الثورات المتوقعة، تسارع بتغيير حالتها الراهنة، تشرع في سبر مجهول تكرس له جل الانتباه.

عرفت آمونيت مبكرا أن أكبر عيوبها هو البحث عـن حب مثالي، ولأنها لن تجده تشبثت برهبانيتها في أنواء العالم خارج الدير أغلقت قضية حبها، ما من بديل، باطلاعها على التجارب الحميمة لمرضاها وأصدقائها، أدركت معهـم أنـه كلما اعتمدنا على شخص ما، ازداد الخوف من الفقد، فالأمان المرتكز على الاعتمادية مجرد وهم.. فواقع الحياة هو أن أي شخص خارج أنفسنا يمكن أن يتلاشى في أي وقت.. ما الذي

سنفعله عندئذ؟ أين مرساة حياتنا؟ إن لم تكن بداخلنا، حتمـا سنعاني.

في طفولتها كانت خجولة في عالمها الصـغير، تمعـن النظر في داخل نفسها، لا تتقن الحـديث أو التواصـل مـع الآخرين، وتبدو شاردة الذهن لمن لا يعرفها. وبينما كانـت تكبر وتنضج تحولت إلى العالم الخارجي مع الإبقـاء علـى طبيعتها التأملية، واعية في الوقت ذاته بحالاتهـا المزاجيـة المكيرة.. كانت العارفة لا يعنيها العمق بل الجديد.

تنغمس آمونيت الآن بكليتها في تعلـم مهـارة جديـدة: أسرار التنفس.

تجاوزت آمونيت أزمتها الأخيرة، خرجت للتريض قرب بساتين الكروم، رأت الفلاحات متشابهات هنا وفي مصر، في أنهن يعصبن رؤوسهن بالمناديل، تعكـف فلاحـات رودس بصبر وحذق على اختيار العناقيد الأصلح من العنب لصـنع نبيذ رودس المشهور.

**في ذلك الوقت بدمياط، كانت بذور الحصرم تتدلى على حيطان المطراوي.**

## (٣)

في منزل يحيى بن فلتس، كان هبو ولفحات حمى الغيرة تخنق أنفاس النساء.. استنجدت زوجة يحيى بأحـد الرهبـان المعروفين بانغماسهم في السحر، غرس طرقًا حادا لسـعف النخيل في معدة تمثال شمعي على هيئة سنانية.

عاودت سنانية آلام المعدة المبرحة والتقيؤ.

وفي مناورة نسائية، زارتها زوجة يحيى في مرضـها، وألحت عليها بأن تترك لها جاريتها لترعاها فـي مرضـها، خدمتها الجارية بتفان ولم تسمح لهـا إلا بالراحـة التامـة، ووفرت لها قصعة لتبول فيها.

لم تتحسن صحة سنانية بل ازدادت سوءا، حيث أعطت الجارية البول للراهب الذي ألقى بالتعازيم عليه ثم رشه على تمثال طيني على هيئة سنانية حتى يذوب رويـدا، بغيـة أن تتدهور صحة سنانية، أن تذبل تدريجيا وتموت.

طلبت سنانية أن يزورها أحد شـيوخ الصـوفية أو أن يحملوها إليه، ففعلوا، ولما اختلت به، باحت للشيخ بشـكوكها في أن عملا سحريا قد أمرضها.. راجـع الشـيخ اسـتخدام الأعداد المتحابة وطبائع الحروف، وأخبرها أن تنتظر لأيام،

حتى تغيب طوالع النحس ليوم معين، وعمل لها طلسما بنقش صورة الشمس والأسد على حجر ياقوت وقت دخول الشمس برج الأسد في شهر آبيب.

ولم تتوقف آلام سنانية.

أما حياة بيسي الراقصة فقد أصبحت أكثر استقرارا من حياة صديقتها المساندة لها.

وحتى بعد أن اختفت سنانية، ظهر أن بيسي قد وعـت الدرس جيدا: أنه ينبغي تحمل المر لأن حياتها لن تخلو مـن الحلو أيضا حتى لو كان من كدحها، ليس الخير الذي يقـال عنه في المثل العامي المصري « يأتي على الطبطاب » دون أي جهد، عطية من الرب والحظ الطيب.

رقصت بالرغم من سخط أهلها وتأففهم، نالت احتـرام النساء، حبهن وثقتهن، طُلب منها أن تعلم الرقص لزوجـات الأثرياء وبناتهم وحريمهم.. وجدت أن الأمهات الثريات هن الأكثر حماسا في تعليم بناتهن الرقص، استبصـارا مـنهن، ربما لا يكون لديهن ما يستمتعن به بعد زواجهـن، سـوى النرجيلة والرقص، كيلا يصبن بالجنون من التزام الحرملـك طوال عمرهن.

وبعد زواج ابنتها ستعمل أيام السبت إن اقتضت الضرورة، وتشغل نفسها بجمع القطط الضالة من الحارات لتكفلهم، تنفق عليهم ما تكسبه، لم تقرب منها الدائرة الشريرة للوحدة، فالمحبة والسمعة الطيبة اللتان حازتهما كانتا من حفرها الخاص.. ونسيت.. نسيت حتى أنها كانت ذات مرة جرذا في متاهة.

## (٤)

حملقت فيها ذاهلة وهي واقفة تسد حلق الباب: آمونة!! اتفضلي.

- ما هذا الاستقبال، كأني معك بالأمس؟

- أو لم تكوني هنا بالأمس؟

تتغير هالة ليل بين الرمادي، والرمادي الفحمي على التوالي دون انقطاع. تلاطفت معها آمونيت لإخراجها من حالة « السوداوية الترابية » التي تثقل عليها وتزهدها في الحياة لتنال مبتغاها الذي أحيانا ما يسعى بنفسه إليها، وحينما تلقاه يهرب منها: أن تصبح غير مرئية.

- في مثل هذه الليلة والهلال في يومه الرابع كنا نتسامر بجانب هذا الشباك.

- آه، الشباك!!.. أنا جالسة بجواره دوما أتفـرج علـى الشارع الفاضي.

- ما بك؟ ما الذي يشغلك؟

ندت عن ليل ما يشبه ضحكة خافتة: الحقيقة!! لا شيء يشغلني بالمرة، أصحو واهنة، أجرجر بدني مـن السـرير، أطبخ ثم أجلس هنا، أحدق في ذلك الركن هناك.. أترينه؟

- إنه مجرد حجر، زاوية بيت.

- نعم، نعم.. هذه الزاوية تخبرني أن البيت يطل علـى حارتين وربما أكثر.

- شهر كامل تحدقين في زاوية البيت الحجريـة!! ألـم تخرجي؟ تتسوقي؟

- لا، نور يشتري ما نحتاجه ثم يتركنـي ليلعـب مـع أصحابه.

- فيم تفكرين؟

- أنا؟ لا أفكر مطلقا، رأسي فاض، لا قلق، لا ذكريات، لا توقعات لا أشواق.. وجسمي هامـد لا يسـاعدني، لذلك أجلس.. أجلس فقط حتى..

- هه.. أكملي.

- حتى أصبح كالهواء مثلما تمنيت فـي شـبابي.. هـل رأيت مرة إنسانا يحدد الهواء بنظرة، أن يتأمله ليتبين ملامحه؟!

- أعرف يا ليل لم تطمحي حتى أن تصيري نسـيما أو رياحا تشق طريقها بدعة لأنهما مثيران للانتباه.

وحادثت آمونيت نفسها، ووجهها باك دون دموع: نساء عائلة بصل!! إن لم ينتحرن فإنهن.......

موهت آمونيت على نوبة انتحاب بصدد أن تجرفهـا.. فمسدت وجه صديقتها حانية..

- وأحلامك، ألا تتذكرينها؟

- أحلام كثيرة، أحاول أن أصحو منها، وعندما أستيقظ، لا أتذكرها مطلقا، فقط حلم واحد أتذكره.. أراني أسير في شوارع دمياط القديمة، أراني فتاة في بداية عمـل كحكية، وألعب مع نفسي، في كل شارع أو حـارة أو زقاق أدخله.. فلا بد للفتاة التي هي أنا، أن تنطق باسم الشارع أو الحارة أو الوكالة أو الحانوت حالما اقتربت منها.

تتساقط أشعة الشمس على الزاوية الحجرية وفي الليـل يتراقص شعاع غامض حزين للقنديل المسرج أعلاه.

- سأصطحبكما أنت ونور إلى بيتي حتى يمكنني رعايتك والاطمئنان عليكما معا.

- لا، بيتك يمتلئ دائما بالناس، لا طاقة لي على احتمال أدنى همساتهم أو التحدث إليهم.

- فقط تهمسين إلى نفسك؟

- أنا حتى لا أتحدث مع نفسي، أنا لا أفعل شيئا البتة.

- أتشعرين أنك في سلام هنا؟

نظرت دهشة: أنا لا أشعر بأي شيء حتى.

ثم جلست فـي اسـتكانة تراقـب زاويتهـا الحجريـة المكدودة.. لم تنتبه لراحة يد آمونيت على يدها.. تحـاول أن تنعش نسغ حياة يتسرب من جسد وعقل ليل.

- ألا تودك الجارات.

- الجارات!!.. ربما.

- سأمكث عندك بضعة أيام.

لم ترد عليها.

لم تتحمل آمونيت ألوان الهالة حـول جسـد صـديقتها المقربة، فأغمضت عينيها حتى لا ترى الرمـادي الفحمـي، فالبني الطيني، والقرمزي الشاحب.. تفحصت جسـد امـرأة هيئ لها كأنها تعرفها وهي تلقـم الكـانون بـأعواد الحلفـا المشتعلة، عظام هذه الساق التي كسرت، اليدين اللتين عجنتا الكعك والفطائر، كفها اليمنى التي صفعت سنانية صبيحة يوم القيامة، الفخذين اللذين تجمرا شبقا طويلا ثم متعة متـأخرة، الشفتين اللتين انطبقتا على تحمل الألم والمسئولية واعتـزام نذر لله، وانفتحتا فقط لتقهقه وتسخر وتلقي بتعليقات بذيئـة، هذه الكبد التي تفتتت للفقد والرحيل وتلك الدمعة التـي لـم تذرفها لأنها لا تزال عاتبة على أمها، وذلك الرغيف الـذي ظلت تقسمه خمسا حتى اليوم.

## (٥)

هذا الخطاب لم يفتح أبدا، ما يـزال بختمـه الشـمعي ومكتوب عليه كلمة الوفق « بدوح »، هذه الكلمة السـحرية، ضمانا لسلامة وصول الخطاب.

لم يقرأه جدها أبدا، هل كان ضجرا مـن طلبـات وزن امرأته عن ضرورة العودة إلى مصر، هل ضج من شكواها

من الحنين والغربة وكوابيس عن طريـق متـرب، طينـي، ومستنقع تتوه وسط أعشاب السفانا في طريقها إلـى مسـقط رأسها في رشيد، تحمل بناتهما الثلاثة وابنهما الوحيد علـى كتفيها وبطنها وظهرها بالرغم من أنهم أصبحوا فـي سـن الشباب الآن، يتشقق باطن قدميها وينزف، ولا يزال أمامهـا الطريق طويلا إلى مصر.. تصر بإلحاح على نقل توجساتها إليه: أن يسفر اختلاط قبيلة جدتها مع قبائل وثنية عن تـأثر أولادهما بهم.

يتنهد الترجمان، وينفخ ملء فيه: لم تصر هـذه المـرأة على تقييده، خنقه، عرف منذ البداية أنه طير حر، ظل طويلا بلا زواج حتى يجد فتاة ذكية قوية الشخصية، علمها القراءة فقط على عادة أهل زمانه خشـية أن تكبـر نفسـها وتفقـد مطواعيتها إذا تعلمـت أن تكتـب وتعبـر عـن أفكارهـا ومشاعرها.. ولما تكأكأت عليه الأزمات لإصراره كل مـرة على أن يكون منفلتا، أقصد حرا حسب رؤيته، دلـه حدسـه على ضرروة تعليمها الكتابة.

علمها الكتابة حتى تصله مراسيلها، التي لا ترضى بأقل من التشبث به: ما كان يجب عليـه الـزواج!! ولا إنجـاب الأولاد!!

عندما تزوجها لم يغير أي عادة من عاداته، ولا بذل أي جهد للتكيف معها، اعتقد أن ذكاءها سيوصلها إلى أن تتركه لحاله، وتتكفل هي بكل مطالب الأسرة: هي وأولادها.

كانت شديدة الانزعاج، لأنه يصحو كل صباح فيغسـل ملابسه، لم يسمح لها قط أن تغسل له، وإذا لم تطـبخ مثـل قريناتها من النساء اللواتي يشترين الطعام جاهزا من السوق، يدخل المطبخ ليعد لنفسه وجبة بسيطة.

وفي الأخير استسلمت لعاداته، وفي أزمة ثغر رشـيد، اجتمعت وجدتها السودانية التي قامت بتربيتها إذ توفيت أمها عند ولادتها، اتفقت المرأتان على الفرار والهجرة.

وافق الترجمان على القرار إلا فيما يتعلق به: « سأبقى هنا، وأبعث إليكم بالمال ما استطعت ».

تساءلت الحفيدة مجددا: « لماذا لم يفـتح جـدي هـذا الخطاب، أتكون قارئته الأولى بعد ما يربو علـى خمسـمائة عام؟ ».

ها هي جدتها الكبيرة تعلمه في مرسالها أنها اضـطرت لتعليم بناتها الثلاث الكتابة لأنها شاخت وقد تمـوت قريبـا، وعليهن أن يتواصلن بالكتابة مع أبيهن.

أبلغته أيضا أنه حظي بأربعة أحفاد علـى مـدار عـام ونصف العام.. ولكنها – ويا لخجلها – كتبـت أن اسـتمرار اسمه لم يكن عن طريق الابن، بل عن طريق بناته، إذ ينسب الطفل لأمه في قبيلة « الفور » التي ناسبوها، واستقر الأبناء كلهم في نيالا، فحفيده من ابنته البكرية سمي « أبشـر بـن فتحية الترجمان ».

ترجته الزوجة أن يرد عليها في مسألة فقهية، حكت له أنه بمجرد أن تزوجت البنات، حصلت كل واحدة منهن على قطعة أرض تزرعها، مساوية في مساحتها لمزرعة زوجها.. ومن العرف عندهم أن ترث البنت مثل الولـد قطعـة أرض تزرعها مستقلة عن زوجها، وبالتالي فهي تشارك في نفقات البيت.. لكن أليس للذكر مثل حظ الأنثيين؟

وبزواج البنات تعين عليهن أن يقمن بإعـداد المريسـة وهو مشروب مسكر إلى حد ما، وتستغرب: « لقد رأيت بأم

عيني الفكي / الفقيه يشرب المريسة أثناء عمله، هـل يحـل ذاك؟ ».

حافظت الأم وبناتها وولدها على الثياب العثمانية، لكـن بممارسة البنات للعمل في مزارعهن، كانت الثياب العثمانيـة معوقة، وانتهى بهن الأمر إلـى ارتـداء ملابـس الفلاحـة المصرية، الطرحة على الرأس، لكنهن قصـرن جلابيـبهن ليتمكن من التحرك بسهولة، والسير بسلاسة فـي المنـاطق طويلة الأعشاب والأشجار وأيضـا فـي المنـاطق طويلـة الأعشاب والأشجار وأيضا في المناطق الجبلية « ما رأيك يا أبو محمد؟ ».

في إسلامبول في ذاك الوقت، كان الريس ليـث الـدين يعيش أيام مجده وعزه بقربه من الباب العالي، وتجرأ وطلب الزواج بإحدى الفتيات اللاتي سبق لهن العمـل فـي حـريم السلطان، وكان من نصيبه الزواج بـ « أبواز خاتون » التي عملت في حريم السلطان مدة تسع سنوات، أعـدت خلالهـا كفتاة مثقفة ومهذبة وجميلة.. أحيلت للتقاعد، لكن السـلطان تكفل بتجهيزات زواجها.. وخصص لها مخصصات ومـالا،

فرح أهلها من الشوام الذين قدموها فـي طفولتهـا للقصـر لتحظى بشرف أن تكون من حريم السلطان.

الريس ليث الدين ذو التوجه العملي فكر: « لـو دارت الأيام علي، أو توفيت فقيرا، سوف يصرف لأبواز خـاتون مخصصات يومية من مطبخ السلطان، وفي حالة وفاتها هي سوف تنتقل هذه المخصصات إلى أبنائها من بعدها »

أعجبه فيها أدبها الشديد، قبل أن تدخل عليه في مرقـده تقول: دستور، وحينما مرضت وجيء بالطبيب إليها، لفـت معصمها بقطعة رقيقة من القطن حتى لا تلمس يد الطبيـب بشرتها.

وفي رمضان تفطر على ماء زمزم مخصص لها مـن قبل السلطان.

من بين قراطيس ملفوفة بعناية مما يدل للحفيـدة أنهـا القارئة الأولى لها.. وجدت حفيدة الترجمان صفحات خطـت بحروف عربية، لكن اللغة غير معروفة لها: ربما تركية، أو فارسية، أو أمازيجية؟

هكذا توجهت بالسؤال لأحد المختصين الذي هز رأسـه بالنفي:

- هي لغة قبطية صعيدية.

- صعيدية!! قبطية!! جدي الكبير سـكن فـي المـواني دائما.

برمت القراطيس.. على وشك أن تحملها عائدة، تحـدق في بئر أسئلة لا قرار لها.

- أهي آيات من الإنجيل؟

- لا، حكايات الحياة اليومية للمصريين في ذلك الوقت.

- هل سجل تاريخ كتابتها؟

- كتب بالهجرية بما يقابل أواخر القرن السادس عشـر الميلادي. وأضاف:- تتحدث المخطوطة أيضا عن.

العامية القبطية.

- تقصد لغة الحياة اليومية بالقبطية.

- نعم.

فكرت الحفيدة:- هل لذلك صلة بما كان يقوم به البعض من ذوي النفوذ بالإيحاء للناس حول اللبس والغموض اللذين يحيطان بأصل الترجمان، ربما كان قبطيا فـي شـبابه، أو لأبوين قبطيين.

ما الدافع الذي كان يناوشه ليقوم في شيخوخته، بكتابة لغة دارجة عامية، توقف المصريون عن استخدامها قبل قرون من القرن السادس عشر؟

كلما قرأت الحفيدة، عرفت المزيد والجديد عن جدها الكبير، إلا أنها لم تستوعب أنه كان يعرف القبطية.

ما من شيء في كتاباته يشير من قريب أو بعيد إلى معرفته بالقبطية.

بعد دفن ليل واستقبال المعزيات والمعزين لبضعة أيام، اصطحبت آمونيت الصغير نور الدين، وخرجا من المدينة العتيقة إلى منزلها، يتساءل الصغير ذو السنوات الخمس: آمونة. أمي هتكون بخير عند الله.. مش كده؟ هي دلوقت تطل علي من الجنة.. فرحانة بي يا آمونة، لأني راجل وأتحمل وأقرأ لها الفاتحة دائما، آمونة!! كلميني.

ملأ الصغير نور حياة آمونيت لثلاث سنوات، علمته فيها إجادة التحدث بالعربية واليونانية واللاتينية، كما تعلمت قديما في الدير.. تود أن تربي الصبي على الارتباط الشديد بها ليفعم حياتها بأنس عائلي في شيخوختها، أن يكون ربيبها، غير أن إحساسها بالعدل جعلها تتصرف بحكمة في عواطفها

لتغدق عليه محبة عاقلة، ألا تضفي على حياته في المستقبل المنظور أية تعقيدات، حتما سيطلبه أبوه أو أخواله يوما منها.. مدت جسرا من المراسيل بين نور وأقاربه، وتفرح لفرحه إذا ما جاءته هداياهم... لم يظهر أبوه كثيرا في تلك السنوات، منهمكا في تصميمات جديدة لسفن القراصنة – مسيحيين هذه المرة – واقتناء الذهب.

العلاقة الجميلة كانت بين نور وخاله ليث الدين، يلاعبه ويخرج معه للنزهات والصيد في الغابات، مبهورا كان نور الدين بمغامرة الصيد فهو يسمع عن حظر السلطان للصيد على كل مواطني السلطنة في المناطق الأوربية.. معجب بخاله فهو الوالد الذي يحلم به: جريء وحنون ويعامله كرجل يشاركه أنشطة خطرة.. مات السؤال الاستنكاري على لسان آمونيت قبل أن تفتح فاها: أتعده ليكون قرصانا؟! حذرا، إنه ابن المرأة المكافحة المضحية التي لم تنفق عليكم يوما بـارة من حرام.. شكرت للرب أنها لم تتفوه بهذه الأشياء، خوفها على الصغير جعلها تضخم الأمور، ما هي إلا لعبة يمارسها الخال مع ابن أخته حتى لو منعها السلطان... راجعت أفكارها: لكنه يربيه على أن يخرج عن القطيع ويقترف

الممنوع بمنتهى الشغف والسعادة، ويا ويل من يخرج عـن القطيع.

في آخر زيارة قام بها ليث لهما في رودس، أخبرهمـا أنه سيتزوج في إسلامبول، ثم يعود ويأخذ نور ليقـيم مـع زوجته.

خوفها اللاواعي من الوحدة بذهاب نور كان أشد وطـأة من خوفها الواعي الذي يمكنها أن تناقشه، تحايله، وتراوغه.. قاومت آمونيت، لكن فكرة « الحرمان المتوقع » مؤلمة قبـل حدوث الحرمان بالفعل: إنها الآن علـى مشـارف نوبـات النواح، شيخوختها لم تدخر لها مرونة تسهل عليها التكيـف مع أي وضع جديد من غير نور الـدين.. ازدادت سـاعات رقادها في ظل القمر، عطشى لأنس حقيقي وحكايات، لـيس لمرضى، بل لأصدقاء وأقارب.

أثناء طقس الاعتراف، كانت آمونيت تسـتدرج القـس لتعرف طباعه، حياته، تناقضاته، بأسئلة ملؤها التعاطف عن موقف خصمين « خياليين » وحكاية من نسج أهوائها، تسأل عن إعدادات الكنيسة لحماية أطفالها من غضب الرب ومـن الأمراض.

مما أوجع آمونيت في شيخوختها حقيقـة عاشـتها وإن أدركتها متأخرة: أنها تقتات على حكايات ليست لهـا، وفـي حال افتقارها إليها، سعت إليها « تحت جلد » الذين تتعامـل معهم، كان فضولا بريئا، دفع بها إلى التهلكة.

قبضوا عليها وهي مستلقية تحت ضوء القمر، اتهموهـا بتعاطي السحر، ومضاجعة الشيطان، ونشر وباء الطـاعون في أوربة.. شهد عليها بعض الجيران بأنهم رأوهـا تشـحن طاقتها السحرية بأشعة القمر، وأنها تمتلك عددا من التماثيـل للإلهات الوثنية.

لم تقتنع آمونيت بأنهم نجحوا في حبك أدلة الإدانة عليها فهي محض « فانتازيات » خائبة، لو طلبوا منها أن تساعدهم لانحنوا لها امتنانا لقوة مخيلتها ومنطقها المتماسـك، لـيس مجرد هراء وتخريف يضحكون به على العامـة ليكرسـوا لأنفسهم ومناصبهم ويقولون تبريرا: الكنيسة، الكنيسة.

لكن الذي أوجعها هو عثورهم على تماثيل « الإلهـات الوثنية »، إنه فضولها الذي سوف يؤدي بها الآن، تعتـرف بمرارة لنفسها، أنه ما كان يجدر بها أن تأخذ / تسرق هـذه التماثيل من قصر المطراوي، وهي تعرف خطورتها وسـوء

الفهم الذي سيحيط بها.. تصنعت الظرف مع حالها: طـيش شباب!!

وراء قضاة محكمة التفتيش لوحة كبيرة لفنان إيطـالي صور فيها الشيطان حاملا سـاحرة لتسـاعده فـي أعمالـه السحرية.

تفاوتت ألوان وجوه القضاة بين الأبيض المحمر ولـون الحنطة، مع مسحة من لون رمادي ميت، نظرت آمونيت إلى هالاتهم، كانت قرنفلية قزحيـة كمـا تظهـر فـي فقـاقيع الصابون.. وظهرت هالات بلون الزنـك حـول أعضـائهم الجنسية: كانوا في حالة استثارة شبقية.

ساءلت نفسها: كيف يرغبون بعجوز مثلي؟ الغريب أنها رأت نظرة الشهوة أيضا بالجمهور.

شبقهم واحد: تعذيبها.

تتحدث آمونيت مـع القضـاة باللاتينيـة وتحـاججهم بنصوص مقدسة، ضيقوا الخناق عليها أن تعترف باقترافهـا السحر ومعاشرة الشيطان، وإلا تعرضت للتعذيب.

ران صمت متواطئ لجمهور منى نفسه بمشاهدة تعذيبها وإعدامها حرقا، يستثيره فضول رؤية هذا الجسـد الشـائخ،

يشوى، لا بد أن يشوى، فالأخاديد الطويلـة فـوق شـفتيها والكرمشات حول عينيها اللتين فقـدتا لونهمـا إلـى لـون « رصاصي فاتح »، والعروق النافرة في رقبتها وكفيها، كل ذلك يجرح عيونهم التي تقدس وتعبد الشباب.. يستفز كرههم لأنه يذكرهم بما هم عليه الآن إذا كـانوا شـيوخا، أو بمـا سيؤولون إليه إذا كانوا شبابا.

يفكر هذا الجمهور في صمته العنيـف:- لا بـد مـن التخلص من هذه الهشاشة وهذه الحالة الطارئة على الجسد.

تفكر آمونيت: ما هذه الوحشية الحارقة في أكبادهم؟

أغمضت عينيها لقبح تلك الغابة من العيون التي تـتلمظ لمرآها، ولرائحة لحم يحترق.

تقول آمونيت: لستم بحاجة إلى تعريتي حتى تروا مـا تريديون رؤيته عن ذلك البروز الذي يرضع منه الشـيطان بين ثديي، أو تغرسون الإبر في جسمي الذي لن ينزف، لأني حتما سأتجمد من الذعر والخجل والعار.. سـوف أريحكـم جميعا:

أنا لست ساحرة، أنا حواء نفسها.

همهم الجمهور: حواء!!!!!!!!

قالت بالعامية المصرية:

« أنا حواء الضجرة، اللي بنبـات فيـه نصـبح فيـه، والاعتياد يفقدنا الإحساس بجمال الجنة، عرفناهـا أنـا وآدم شبرا.. شبرا، أنهارها، عيونها، جبالها الثلجيـة، الخضـرة الجميلة، الفراشـات الطيـور، الأزهـار، النسـيم الحلـو، العطور... لكن؟

أصابتني الكآبة وكنت خايفة على أحاسيس آدم، وكانت الحية صاحبتي، كاتمة سري، شاورتها:

دبري أمري يا حية.

قالت لي: التدابير لك يا حوا، واتفقنا أني أحملهـا وزر نصيحة الأكل من شجرة التفاح، شجرة معرفة الخير والشر، مش كله زي بعضه، خير.. خير، دا شيء يطهق، وحدث ما حدث، لكني في النهاية أنا أم البشرية، يعني أمكم كلكم ».

ضحك الجمهور وصـفر طالبـا حرقهـا، لهطرقتهـا السافرة.

آمونيت أخذت في النواح كتائبة، تنشج، يهتـز بـدنها، فجأة توقفت عن الانتحاب، هدأ لونها الممتقع، فتحت عينيهـا

على اتساعهما، كأنما رأت أحبتها جميعا، ثم لانت نظرتهـا، أمالت رأسها على كتفها ثم سقطت على الأرض.

ولأن قانون محاكم التفتيش يقضـي بسـجن المعتـرف واستتابته، أقبل طبيب ليكشف عليها: ماتت.

نفخة الضجر وخيبة الأمل من الجمهور والقضاة نشرت توترا في الهواء وفي أنفاسهم.

قال قاض: لا يصح حرقها: لأنها اعترفت أولا، ثم لأنها ميتة ثانيا، أعيدوا جثتها إلى أهلها.

صاح واحد من الجمهور: لا أهل لها.

هتفت إيرين بأعلى صوتها: إنها قريبة للمرحوم زوجي.

أضاءت إيرين الشموع حول التابوت، سـاهرة أمامـه تبكي حتى تقوم المغسلة بغسل الجثة صباحا، سمعت صـوت تنفس وإن ربما رغبتُ في سماع تنفسها، إنها لا تزال بيننـا، تمتمت إيرين لنفسها. غير أن الصوت عاد ثانيا، نظرت إلى التابوت، رأت جسد آمونيت يتململ فـي حركتـه، كـادت تصرخ، أطبقت يدها على فمها، فتحـت آمونيـت عينيهـا وابتسمت.

بحنو قالت لها إيرين: كنت باردة برودة الموت.

- أفادني تعلم أسرار التنفس والتحكم به، عرفت كيف أوقف تنفسي ونبض قلبي وضبط الدم الساري إلى الأطراف.

- حمدا لله على سلامتك.

- أين نور؟

أطرقت إيرين رأسها:- شوهد آخر مرة مع المتشردين.

- ساعديني لأقوم من هذا التابوب، سأجري من فوري للبحث عنه.

- أنا لم أكمل لك، لقد عبر إلى أراضي أوربة، عن طريق خدمات يقدمها المتشردون إلى السفن المغادرة لرودس.

- يجب أن أعيده إلى مصر.

- إذا انتظرت حتى تجديه، سيؤول مصيرك إلى المحرقة – جديا هذه المرة – لقد حاول من يعرفوه إرجاعه، قال إنه ذاهب إلى والده كي يرجع وينقذ آمونة.

- يا حبيبي يا نور. ما جنسية هذه السفينة؟

- فرنسية.

ساعدت إيرين صديقتها على التنكـر فـي زي امـرأة تركية، تسدل نقابا ثقيلا على وجهها، وأركبتهـا أول سـفينة تغادر رودس إلى دمياط.

قالت إيرين للناس إنها غفوة غلبتها، ولما أفاقت لم تجد الجثة في التابوت.

تداول الناس الخبر، مؤكدين أن تلك الراهبـة القبطيـة ساحرة حقا.

في فرنسا، عرف نور الدين مـع المتشـردين الجـوع والنوم في العراء، وفي يوم طرقوا باب كنيسـة يسـتجدون بعض الخبز، خرج إليهم راهب، حادثهم بالفرنسية التـي لا يعرفونها، وطرأ على بال نور أن يحدثه باللاتينية التي علمته آمونيت إياها.

- من علمك اللاتينية؟

- آمونة.

- من آمونة؟

- الراهبة القبطية.

التحق نور الدين بخدمة الكنيسة، ولما ضموه للرهبنـة، وضع في تابوت عند تنصيبه في سلك الكهنوت، وصلوا عليه

صلاة الموتى ليموت عن العالم الدنيوي، ومنح اسما جديـدا « أوغسطين ».

## (٦)

أخبر المفزوع صديقه الترجمان بأن سيدة تبحـث عـن رجل يعرف القراءة والكتابة بعدة لغات.

- أهي من المساتير؟
- لا يبدو عليها ذلك.
- وما غرضها؟
- لا أعرف.

استقبل الترجمان آمونيت التي عرضت عليه السفر إلى الصعيد، لمقابلة آخر سيدة مصرية تتحدث بطلاقـة القبطيـة الدارجة ولغتها للحياة اليومية.

قال لها الترجمان: - توقف المصريون عـن اسـتخدام اللغة القبطية في حياتهم اليومية وفي الدواوين منذ عدة مئات من السنين.

- ليس صحيحا، ظلت القبطية تعيش على استحياء بـين أقباط الصعيد وبخاصة نساءهم.
- ففيم تريدني؟

- أن تكتب ما تقوله هذه السيدة، أنا أعرف أربعة لغـات قراءة فقط، والقبطية التي نسـتخدمها فـي الكنـائس مكرسة للصلوات في الأغاب.. أريد تـدوين العاميـة القبطية.

- ألا يكفيك أن يدونها راهب قبطي؟

- أبحث عمن يتقن عدة لغات معاشة، أن تكون لغة أدب وتجارة.

- هل تريدين تدوينها باليونانية مثلا؟

- الأفضل أن ندونها بالعربية أولا.. وإن اتسع لنا الوقت ندونها بكل اللغات الأخرى التي تعرفها وتمارسها.

- ثمة صعوبة هنا... أنت تقولين لغـة حيـاة يوميـة، بإمكاني أن أنقل العامية القبطية إلى العامية المصـرية العربية، أما اللغات الأخرى فأنا أعرفها لغة دواويـن وآداب، ليست لهجاتها أو لغتها اليومية.

- اتفقنا.

- كيف عرفت بأمر هذه السيدة؟

- العجوز، نعم سيدة عجوز، كما سـمعت مـن رحالـة إيطالي ركب السفينة من رودس إلى دمياط، وتحـدث

باليونانية مع بحارة السفينة عن رحلاته، ذكر أنه قابل تلك المرأة، وأن سيشرع في تأليف كتاب عن مصـر بعد رحلته الحالية.

- أتسابقين رحالة إيطالي؟

- لقد سبقنا بالفعل، عرف عنا وعن تراثنا أكثـر ممـا نعرف نحن، تجرأت وتحدثت إليه، بدا علـى وجهـه الارتياب والخوف أن يتحدث لامرأة تركيـة مسـلمة، طمأنته بأني مجرد وصيفة وقبطية.

- يبدو أن رحلة عودتك أخبرتك بالكثير.

- ليست الرحلة وحدها نبل سني عمرها التي قضيتها في رودس.

- ما الجديد في العالم هناك؟

- رغم أن رودس واقعة تحت الحكم العثماني، إلا أنهـا تتعامل مع الأوربيين الذين يتقدمون في علوم الطـب. هذا ما يمكنني أن أؤكده لك، لأنني اعتقدت قبل سفري إلى رودس أني ذات دربة وخبرة بالطب... لقد تقدموا كثيرا في هذا المضمار، ناهيك عن الفنون واختـراع

المطبعة والأفكار وجرأة الناس فـي الإفصـاح عـن آرائهم.

- ومحاكم التفتيش؟!

- تنهدت: نعم

سافر المفزوع والترجمان وآمونيت إلى الصعيد لمقابلة آخر امرأة مصرية تتحدث القبطية اليومية.

تبادل الترجمان وآمونيت الأخبار فيما يحدث هناك، مـا يحدث هنا.

عادوا من الصعيد أصدقاء.

قال لها الترجمان: - أتعرفين ما هي نكبتنا يا آمونيت؟

- ما هي؟

- أن أحدا من حكامنا لم يسألنا رأينـا يومـا، رغـم أن قراراتهم الجادة والهزلية يقـع ثقلهـا علـى أعناقنـا وأكتافنا.

- وأرواحنا.

- نعم، ثمة نكبة أخرى ستنهي هذه الحضارة العربية، أو ستدخلها في احتضار طويل.

- ما هي؟

- أن الشيوخ والقساوسة يعلمونا أن التفوق فـي العلـوم الدنيوية هو من قبيل الزيغ والضلال، مما يجعلنا فـي غفلة عن الدار الآخرة... يصفون من يعمِلُ عقله بأنه يأتي بالبدع والضلال، وقد يكون نصيبه السيف، حتى ينقذه أحد شيوخ العقيدة والشعائر ليشـهد لـه بحسـن الإسلام... يخافون من علم الكيمياء وينعتون المشتغل به بالساحر.

- أليس الكيميائي كذلك؟

- حتى أنت!!... لنر الأمر من وجهة جديدة.

- ما من حل؟

- لن يحدث طالما يجزل الخلفاء مـن الدولـة الأمويـة وحتى الآن العطاء للشعراء المادحين وللمتفقهين فـي اللغة والدين، إن كانوا على هواهم بالطبع، ويتركـون الساعين للعلم في الفلك والطب والجبر والبصر يعانون العوز والحرمان أو يضطرون لعمل بسيط يتكسبون به لقمة العيش والإنفاق على علمهم، وإن أعطوهم بعض المال فمن قبيل المن والإذلال والأذى والشح.

- قرأت في الدير وأنا صغيرة عن الكندي الذي عانى من البؤس والحرمان فاعتزل الناس، والحسن بن الهيثم الذي حاول أن يكسب قوت يومه بنسخ الكتب، كأي ناسخ بسيط.

- سأعلن ذلك.

- ليست طريقة آمنة، وأخبارك السابقة تؤكد ذلك.

قوبلت دعوى الترجمان كالعادة، بغضب شديد من الحكام، والشيوخ، والعامة على حد سواء.

لم يسجنوه، شيخوخته سوف تستثير عطف الناس، تركوه للناس أنفسهم يقرعوه ويمازحونه ويسخرون منه، تركوه في النهاية يتحدث إلى حاله أو إلى الفراغ.

يتبادلون المواساة والحنان، تلك كانت صداقتهم.

يقول المفزوع: جلست الداية أخت المغسلة تتحدثان: قالت الداية: نأتي إلى الدنيا بقبضات مغلقة، كأنما هو تحدي الغرير.

وردت المغسلة: ونرحل عنها بأصابع مفرودة، مستسلمة.

في وقت آخر قبيل أفول القرن السادس عشـر، جلـس الأصدقاء في الغروب الجميل على شاطئ النيل، وقفت طفلة صغيرة حيرى تتفرس في وجـوههم المتغضـنة وهـيكلهم المحني الضئيل: انتوا عواجيز قوي كده ليه؟

رد الثلاثة ضاحكين: - لأنه فاتنا ميعاد النـوم ففضـلنا صاحيين لحد دلوقت.

هزت كتفيها علامة أنها لا تفهـم، أقبلـت الأم الشـابة تقرعها: ليه بتشاغبي الناس ودول بركتنا.

اعتذرت الشابة: معلهش يا حجاج، معلهش يـا مقدسـة آمونيت حقكم عليا.

كعادة المسنين في هوايتهم العودة إلى الماضي البعيـد، تشاغب آمونيت المفزوع: أتعرف أنا مش مصدقة إن الزعار لم يسألوا عنك، ذلك ليس من شيمهم وشهامتهم مع بعضـهم البعض؟

اعترف المفزوع: - عندما عرف رفاقي مـن الزعـار مكاني، تحدثوا إلى المرحومة أختـي.. أخبرتنـي، فـرددت منتصرا ومندهشا: ألم أقل لك: ألم أقل لك، لقد وشوا بي.

وقالت المرحومة: ليس لهذا جاءوا، إنما يستأذنك أحدهم أن يتزوج صاحبتك التي هجرتها أعواما، وكانوا يعاملونهـا ويرعونها باحترام كأنها زوجة لك.

قلت: فليتزوجها، فما كانت لتصدقني فيما أقوله لها بشأن المعارك ضد طومان باي.. وسألت أختي: هل سألتهم عـن طومان باي؟

- لم تتح لي الفرصة.

- ربما سيعدمني طومان باي لهروبي من المعارك، لقـد وشوا بي. وظللت أقنعها بالحجج والضرب والإهانـة حتى قالت: حقا، لا بد أنهم وشوا بك.

هرع أحد التجار المعروفين في دمياط إلى الأصـدقاء الثلاثة وهمس بشيء في أذن الترجمان، استطلعت نظـرات الصديقين الآخرين.

بصوت مبحوح هدته السنون قال: لا حول ولا قـوة إلا بالله.

- خير ما الخبر؟

- قلت لكم من قبل، إنهم في إسلامبول لا يهمهم سـوى جني الخراج، لا الحفاظ على الدين والأخلاق.

من بعد تناهى لهم صوت المنادي في الشوارع والأسواق، يطلع الناس على تنصيب يهودي في منصب « المحتسب »، وإنه سيتم إعدام قامات الفعلة الذين حرضوا الصبية على الهجوم على الحوانيت مطالبين بخفض الأسعار وإخراج الأغذية المخزونة، بل إنهم شنوا غارات على المخازن وشقوا أجولة الأرز والقمح ورشوا بها الشوارع، وكاد ارتفاعها في الشارع الأعظم أن يصل إلى نصف ذراع.

في هذه المعمعة، اقترب فتى في الحادية عشرة من عمره إلى الترجمان، سأله ببراءة متحمس:

- قل لي يا جدي، هل أنت قبطي أم يهودي أم مسلم؟

ربت الترجمان على كتف براءة سيساء استخدامها، وعلى حماس وغيرة سيكونان وقودا للفتن، وقال:

- كلنا من روح الله.

ربت على الصبي من جديد، ومضى الأصدقاء بخطواتهم الواهنة.

أحاطت خيول العسكر بالأصدقاء، مشيرين إلى الترجمان بأن يتقدم إليهم: - أنت مطلوب.

- هل سأسجن ثانية؟

- فقط نتحفظ عليك.

- لماذا؟

- أرني كفيك.

- لم؟

بالقوة، فرد الجندي راحتي يد الترجمان: - أظللت تكتب حتى هذه السن.. وأنت كليل البصر، يا رجل؟!

الإصبع الوسطى لا تزال ملوثة بالحبر.

- أتتحفظون علي، لأن إصبعي ملوثة بالحبر؟!

## (٧)

في غمرة انشغاله بجني الذهب، نسي الجريكو ابنـه.. اكتسب عادة استحواذية يمارسها يوميا، ساعة أن يلجأ إلـى قمرته ليملي ناظريه برؤية أكياس المال والذهب.

ذات مساء عن له أن يلمس أمواله بأصابعه، عملة إثـر عملة، قطعة ذهب وراء أخرى... كان استغراقه كليـا فلـم يشعر بالوقت أو الصراخ والهرج والمرج على متن سـفينة القراصنة.

شبت نار عارمة في السفينة بسبب قاذفة أطلقتها إحـدى سفن الأسطول العثماني، على متنها الـريس ليـث الـدين،

التهمت النيران غالبية أجزاء السفينة، من المؤكد أنها ستصل في غمضة عين إلى قمرة الجريكو.

لم يشعر بالنار حتى شبت في ملابسه.. أخذ يطفئ هذه النار، ولما يئس من إخمادها أو الحد منها، بدأ يجمـع قطـع الذهب التي تناثرت عبر قمرته، جذبه أحدهم وقفز بـه إلـى الماء.

اندهش طبيب السفينة العثمانية من وفاة هذا القرصـان فقد كانت حروقه طفيفة.

رآه ليث الدين، فتح يد الجريكو المضمومة على صدره، كان بداخلها قطعة ذهب.

علق الرايس ليث: الجريكو مات من الحسرة.

طلب قنصل البندقية بثغر دمياط مقابلة القاضي، وأخبره أن أحد رعاياه يريد أن يشـهد لديـه فيمـا يتعلـق بوفـاة المطراوي.

مثُل « عاشق الفنادق » الأشقر بين يدي القاضي، قائلا بلغته العربية المكسرة: سلام عليك أيها القاضي.

أخبره « عاشق الفنادق » أن الخواجا المطراوي كـان مريضا مرضا شديدا في أيامه الأخيرة، حتى إنه لم يكن يقدر

أن ينزل إلى جوقته في الإيوان الشمالي، وفي اليوم الأخير، نشط فجأة، كأنما استعاد عافيته، ونزل إلى مكتبه بالوكالـة، واجتمعنا به ليلا، نحذره من جديد من محاولة لاغتيالـه قـد يقوم بها أعداؤه الليلة، لقد فاض بهم الكيـل هـم أصـحاب مصالح يتناثرون تقريبا في كل شبر مـن أسـواق دميـاط، وعرضت عليه أن أقوم بتهريبه أو على الأقل تغيير مكانه.

لم يكن يشعر بالاعتلال لحظتها، كان متكاسلا، قـال إن ادنيا برد ومظلمة، والنوة شديدة بالخارج، وإنه لا يفكر بـأي شيء الآن سوى الدفء والنوم... كان مزاجه رائقـا، ربمـا تعاطى بعض الحشيش، سأل: يريدون قتلي لماذا؟

قلت له: ربما لأن أفعالك لا ترضـي الله مـن وجهـة نظرهم.

ضحك وأنشد:

**أضجرني الناس يقولون: تب**

**ما لي وللناس، وما شانيه؟**

**إن كنت للنار فما حيلتي**

**عذبني الله وأشقانيه**

**أو كنت للجنة أحيا بها**

**فما عليكم يا بني الزانيه؟**

احمر وجه القاضي وسأل ساخرا: وكيف سمع الخواجة بشعر أبي نواس هذا؟

- سمعه من الترجمان.
- الترجمان؟
- في قعدة حشيش.
- أكمل
- فجأة شحب وجهه، متألما غاية الألـم، حملنـاه إلـى سريره، واستدعينا الطبيب، الذي أسر لي أنه يحتضر، وطلب منا أن نوفر له الهدوء والراحة.. تركت خادمي إلى جانبه، وذهبت إلى غرفتي بفندق الوكالـة خلـف قصر المطراوي وهو ساهر مع موظف كبير بوثـائق الأوقاف.. سمع المطراوي يودعه ضاحكا.

لبث غياث ساكنا في مكانه، زحف إلى مكتبه، يسـتعيد في ذهنه المداخل السـرية لقصـر المطـراوي بـدءا مـن الحواصل بالوكالة وإلى حجرة نومه، أو إلى الحمـام، مـع تجنب المربع بالركن الشرقي من الضلع الشمالي لبير السلم، لأنه يؤدي إلى الحرملك.. في هذه الحالة الوحيدة لا يتبعه.

صعد المطراوي، سمع غياث صفق باب بأعلى، دخـل حيثما دخل المطراوي قبل دقائق، وجد أنه على حافـة بئـر عميقة جافة.. أين اختفى المطراوي؟ ثمة شيء معلـق فـي العتمة مثل طيات قماش، تذكر أنه سمع صوتا معدنيا لحديد، مرر يده على ذلك الشيء المعلق، جذب طرفا حديديا مثبتـا في حبل سميك، فُردت طيات من القماش السميك مثل سلالم، مثبتة في طرفيها بالأخشاب، صعد غياث.. نسي أن يسـحب الطرف الذي يبدو كمرساة سفينة مثلما فعل المطراوي.

سمع صوت رجل يجري، ورأى من شـباك المشـربية المطل على الوكالة، خادما يطرق بابا، ليخرج إليـه رجـل أشقر.. أكمل طريقه إلى غرفة نوم المطراوي وضع المنديل المثقل برائحة "الفوة عود" المخدر على وجهه، ثـم خنقـه.. سمع وقع أقدام أكثر من رجل، فهرب.. إذ وجد السلم القماش بانتظاره، وقرب البئر العميقة، سمع طرقـات أقـدام عـدد متزايد من الرجال.

سأل القاضي عاشق الفنادق وبحضور قنصله:

- لم تحدثني عن طبيعة لقاءاتكم!!

- مجرد سمر ولهو بريء، بتلاوة أشعار وأغان شـعبية من مناطق أوربة.

- إذا كنت تعرف أن المطراوي توفي وفاة طبيعية، فلـم تأخرت طويلا حتى تبلغنا بذلك؟

- لقد أبلغت أسرته وأهل بيتـه بوفاتـه، وقـدمت لهـم التعازي، ولم أسافر إلا في اليوم الثاني لوفاته.. ولـم أسمع عن شائعات بقتله إلا عندما عدت مـن جولـة طويلة لي.

- عامان كاملان!!

- بل أكثر، لأني سافرت إلى الهند وجاوة الصـين، ثـم مررت بغرب إفريقيا عائدا إلى أوربة حيث وزعـت بضاعتي، وعدت إلى مصر لغرض تجاري أيضـا.. وأول سؤال سألته لما سمعت هذه الشائعات هو: ألـم يبلغكم الطبيب أن وفاته طبيعية؟

- رجح ذلك، لكن الآثار على جسد المطراوي أبعدت هذا الترجيح.

عندما أبلغت سنانية بوفاة المطراوي.. أشـرق وجههـا بابتسامة لم تند عنها منذ شهور.

إثر تعافيها من مرضها، تسلمت مـن القاضـي صـك حريتها ومنزلا باسمها وراتبا شهريا يؤخذ من عوائد أوقاف المطراوي.

سمعت عن سخط الموظفين بالدواوين: لم يترك لنا بارة واحدة يمكن أن تؤول إلى بيت المال، وهو لا وريث له.

أوقف المطراوي العقارات والأطيان للفقـراء، وخـص بعض الفقراء بالاسم كمنتفعين من المعامل وأوقاف أخـرى تنفق على المرافـق العامـة التـي أنشـأها كالبيمارسـتان والكتاتيب.

لم يخص بارة واحدة لأي فـرد مـن جماعـة اليقـين والتقوى أو الزوايا والتكايا الصوفية.

احتجبت سنانية في منزلها، تزور ابنها سعد الدين لـدى أسرة أخيها كل عدة أيام.. بدت هادئة وصامتة.

يوما اكتشف ابنها سعد أنها اختفت، فهي لا توجد فـي بيتها.

آخر من سمع صوتها كان اللبان، المتعالم، الذي أكد أن صوتها مثل صوت من يقدم على الانتحار، صوت أجـوف، كأنه آت من عالم آخر، وبنبرة صوت أعلى.

تكهن البعض أن تكون سـنانية قـد لبسـت الخيشـة، وأصبحت من الشيخات المتصوفات، ورأى آخرون أنها لقيت حتفها من جراء الضرب المبرح لعلاجها من مرض الغلمة.

افترشت العناكب دار سنانية، ذات يوم حاول أحد الجنود الانكشارية الاستيلاء على الدار، وقف له ليث الدين، الـذي تصادف وجوده في دمياط، دافع عن بيت أخته، فاعتدي عليه بالضرب من زمرة جنود انكشاريين، ذهب إلى القاضي الذي حكم بخروج الجندي من الدار، وأن يكون ليث الدين وصـيا على أملاك أخته.

خرج جندي الانكشارية، لكن خلع الأبواب والشـبابيك وحرقها انتقاما.

كلما تقترب السفينة التي تقل غياث الـدين إلـى رودس ليأخذ ابن أخته من آمونيت في طريق عودته إلى مصر، كان الحلم ذاته يتكرر، يرى دارا صغيرة مقببة السقف ظلت على حالها دون أن تمسسها النيران، يقف ولد على بابها، يشـيح غياث الدين بنظره إلى جهة أخرى، ثم يصرخ: كيـف لـم أعرفه، إنه نور الدين.

يعرف غياث القصة كلها بعد اثنتي عشـرة سـنة مـن شروعه في هذه الرحلة الطويلة، الآن فهم أن الدار المقببـة السقف ربما تكون كنيسة، لما بدا له أن نور الدين قد ضـاع منه إلى الأبد.. ظل يجري ويجري، صـعد سـلالم كثيـرة ومجهدة لأكربول ليندروس وهو أعلى مكان بالمنطقة، دفعـة واحدة، لاهثا، يزفر ويزفر، رادعا نفسه عن أخذ شهيق ولو لمرة واحدة.

يبكي، ويهمهم: كفارة يا نور، كفارة.. حقك علي.

قصرت في حقك، كفارة يا نور كفارة.

هتف به باعة: يمكنك أن تستأجر حمارا لتصعد به.

ملوما محسورا رد: دا أنا الحمار.

ظل يحكي حكايته مع نور الدين، تتداخل فيها كلمـات عربية ويونانية متكسرة، ولفظة أو لفظتـان مـن الفرنسـية والإنجليزية، لكن كل من سمعها أحسها بقلبه، وتعاطف مـع هذا النادم لتفريطه في ابن أخته من أجل كنز المال الذي حرم منه في صدارة حياته.

في سفينة عودته، ظل يحكي الحكاية لكل من يأنس له، يقرع ويجلد ذاته ولا يطلب من السامع تهوينا لجرمه، يحكي

وعيناه تلتقيان بعيني قس شاب أشـقر، يحييـان بعضـهما بانحناءة وابتسامة.. مرة اصطدم غياث عفوا بالشاب الدمث، فقال له كلمتين سيتردد رنينهما أبدا في أذني "أوغسطين"

قال غياث: لا مؤاخذة يا أبونا.

نزل غياث الدين ميناء حيفا في فلسطين عازما الصلاة بالمسجد الأقصى بالقدس.. تابعـه القـس « أوغسـطين » بعينيه، شاعرا أن هذا الرجل يحتاج إلى تربيته على الظهر، يحتاج لأن يعترف ليسمعه ويهدئه بأن الرب غافر له.

اقترب منه راكب، حكى عن حكاية المصـري الـذي يبحث عن ابن أخته.

اضطرب نبض فؤاد القس.

- هل قال اسمه؟

- قال شيئا مثل اسمه: غياث الدين، علاء الدين.. شـيء من هذا القبيل.

- رد عليه:- نور الدين!!

- نعم، إنه الاسم بالضبط، هل حكى لك أيضا؟

أحس القس أوغسطين باطمئنان أن جذوره تبحث عنـه، هل ينزل ميناء حيفا بحثا عنه، هل يسبقه إلى دميـاط،

كما كانت آمونيت تقول له.. هل ينزل بدعوى الحـج إلى القدس.

قطع الراكب أفكار القس وسأله: ما وجهتك؟

- غرب إفريقيا.

- لماذا؟

- للتبشير بالديانة المسيحية.

برطم الراكب: - حيثما تمتد التجارة والمصالح الأوربية في إفريقيا، تُرسل البعثات التبشيرية.

- ماذا تقول؟

- مهتك شاقة مع هؤلاء الكفار.

- أو لم يقل الرسول بولس في رسالته إلى أهل روميـة: "فهؤلاء إذ ليس لديهم الناموس، هم ناموس لأنفسهم"

واستأذنه بأدب، رغب في أن ينفرد بنفسه ليفكر بخاله.

بعد ساعات خرج القس من عزلته وقد قرر مستسـلما الآن لمرارة الرضا:

« أنا الآن ملك الرب، لم أعد ملكا لدمائي ».

عادت أنواء الكَرِمِ عتية، صاخبة، هاطلة مـدرارا فـي أمطارها.

جاءت آمونيت بصحبة حفيد أخيها لزيارة الترجمان في مرضه، استأذن الشاب على أن يعود بعد أن ينهي أعماله.

أشعلوا المنقد، قضوا الوقت في صمت، قد يتكلم أحدهم كلمات قليلة، لا ينتظر أن يجاريه الآخر ويحاوره.

تواصلهم في غنى عن الكلام وعن الصمت أيضا.

قال الترجمان: إن المكان الوحيد الذي بانتظارنا، ليس البيت أو الأبناء أو الأحفاد... هو القبر.

ضحكت آمونيت: نكرر هذا القول منذ ثلاثين عاما.

تأخر الشاب في عودته إلى جدته، جاء وقت القيلولة، غفا كل في جلسته، مستدفئًا في العشة الصغيرة بأنفاس رفاقه.

يعرف المفزوع أن الترجمان وآمونيت يعتمدان عليه لخدمتهما، لأنه الأصغر ولديه قليل من العافية.

عاد الحفيد، نادى جدته، ناداهم جميعا حتى يأذنوا له بالدخول لتتوكأ عليه جدته، لم يجبه أحد، طرق الباب، لم يجبه أحد، فتحه، نوبة من السعال داهمته، وأسالت دموعه.. اقتضى انطفاء أخشاب المنقد حياة ثلاثة آدميين، استنشقوا حد الإغماء والموت غاز الاحتراق اللذيذ.

لم يلحظ هو أو الناس، أن أكداس مخطوطـات وكتـب الترجمان لم تعد موجودة.

قرر العامة دفن جثتي الترجمـان والمفـزوع مطـرح وفاتهما، حفروا في تربة العشة التي أزالوها، وبنـوا قبـرا للصديقين.

**في ذكرى الأربعين للوفاة، قرر الناس بناء قبة علـى القبر، تُكرس مقاما لـ « الولي المفزوع » الذي كان ورعا وصابرا وراعيا لمخبول الـورق الـذين سـمعوا آبـاءهم وأجدادهم يلقبونه بالترجمان.**

**ولقرابة قرن من الزمان، ظل يتردد في دميـاط اسـم "المقدسة آمونيت" التي لم تحج إلى القدس أبدا، ينطق الاسم على لسان مسلمي ومسيحيي دمياط دلالة الوفاء بالعهـد إذ يحلفون "ورحمة المقدسة آمونيت" وعند الـدعاء لله بـأن يجيب حاجاتهم، وقد ينذرون لله بالتصـدق علـى الفقـراء وزيارة قبر الراحلة ويهدون لروحها حزمة من خـوص أو ورود، وذلك في حالة ترقبهم أنباء طيبة أو دفعـا لأشـياء سيئة.**

وهناك في عمق السودان، وصلت سنانية إلى « قبيلـة الفور » وبحوزتها كل مخطوطات الترجمان وقراطيسه.

( تمت )

القاهرة في: ١٥ مايو ٢٠٠١

٢١ صفر ١٤٢٢

٧ بشنس ١٧١٧

# شكر خاص

لـ ( الجمعية المصرية للدراسات التاريخية )

و

مؤلف كتاب « علاقات الرق في المجتمع السوداني »

المفكر السوداني الكبير / محمد إبراهيم نقد

# الفهرس


| | |
|---|---|
| إهداء | ٤ |
| مفتتح | ٦ |
| الفصل الأول | ٨ |
| الفصل الثاني | ٧٦ |
| الفصل الثالث | ١٥٨ |
| الفصل الرابع | ٢٧٢ |